

ورد في كتاب التفسير
حسبنا

في تهذيب

تفسير ابن كثير

تهذيب وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيقه

محمد راجح النجدي

الجزء الثاني

مكتبة دار الإمام أحمد في صنعاء

جمعية علماء اليمن الإسلامي

Handwritten text, likely a title or header, in Arabic script.

Handwritten text, likely a subtitle or author information, in Arabic script.

١٩٥٦م
١٣٧٥هـ
حسن التميمي
في تهذيب
قصيدة البراءة لـ
الشيخ

Handwritten text at the bottom right, likely a library or collection stamp.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مكتبة دار الإفتاء المصرية

جليب الشيوخ - المجتمعات التجارية

مجمع الواحة - الميزانين - محل رقم ٢ - ت: ٤٣٣٤٦٨٧ - ٤٣١١٣٧٩

فاكس: ٤٣٣٤٦٨٧

ص ب: ٣٧٦ - الفردوس - الكويت

مكتبة دار الإفتاء المصرية

فرع ضاحية صباح الناصر

ت: ٤٨٠٩٠٢٢ - ٤٨٠٩٠٢٣ - ٤٨٠٣٠٦٦

فاكس الإزاحة: ٤٨٨٢٠٧٠ - فاكس اللجنة العلمية: ٤٨٨٢٥١١

ص ب: ١٥٥١ العارضية - منبر يدي: ٩٢٤٠٠ الكويت

حَسْبُكَ الْحَسْبُ

فِي تَهْذِيبِ

تَقْسِيمِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُحَدِّثٌ وَمُخَصِّرٌ وَتَحْقِيقٌ لَتَقْسِيمِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِلْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرِ الدَّمَشْقِيِّ
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد بن محمود النجدى

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

طبعت هذه النسخة :
على نفقة فاعلة خير
أجرها الله تعالى فيما أعطت
و بارك لها فيما أبقت

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على

سيدنا محمد وآله الطيبين

الطاهرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله ،
أما بعد :

فبين يديك - أخي القارئ الكريم - المجلد الثاني من كتابنا : «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» نقدمه لك راجين حسن الانتفاع به ، و بتيسيره و تقريبه ، و الذي حرصنا على أن يكون سمة له ، تعين طلاب العلم و الباحثين على المراجعة و الاستفادة ، و كلفنا ذلك جهداً و وقتاً نحتسبه عند الله تعالى .

فهو - جزء - في ظني من المشروع العظيم الذي دعا إليه مجدد علم الحديث في عصره ، و علامة الشام ، شيخنا الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، و أسكنه فسيح جناته ، ألا وهو مشروع «التصفية» ، تصفية كتب الحديث ، و التفسير ، و العقيدة ، و الفقه ، و السيرة ، و غيرها ، من الأحاديث الضعيفة و الواهية ، و القصص الإسرائيلية الباطلة ، المخالفة للكتاب الذي جعله الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، و مهيمناً عليه ، أي : رقيباً و شاهداً على ما سبقه ، فما وافقه فهو الحق ، و ما خالفه فهو الباطل .

و لَكُمْ راجت تلك الأحاديث و الأقاويص على فئام من المسلمين ، بله الوعاظ و الكُتَّاب ، و من ينسب إلى العلم و التحقيق!! (١) .

(١) فلقد رأيت مختصراً لهذا التفسير (تفسير ابن كثير) باسم : «المصباح المنير» ، كتب على غلافه : إعداد جماعة من العلماء! بإشراف الشيخ صفى الرحمن المباركفوري ، فيه من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه المبتدئ في هذا الشأن! بل الواهية و المتروكة! وقد نبه عليها أو على أكثرها الحافظ ابن كثير! فيورد الحديث و يترك تعليق الحافظ ابن كثير عليه!!
و هذه بعض الأمثلة :

١- في صفحة (١٦) أورد في مختصره حديث أم سلمة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قرأ البسمة في أول الفاتحة و عدّها آية . و هذا الحديث ضعيف ، ضعفه الحافظ ابن كثير نفسه! حيث قال : لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي و فيه ضعف ، اهـ . فحذف المختصر كلام الحافظ ابن كثير ، و أبقى الحديث!!

٢- و في صفحة (١٧) أورد حديث ابن عباس : إن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فقال : «هو اسم من أسماء الله ، و ما بينه و بين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين و بياضهما من القرب» . الحديث أورده الذهبي في الميزان في ترجمة : سلام بن وهب الجندي ، و قال : عن ابن طاوس بنخبر منكر ، بل كذب ، ساقه العقيلي ثم ذكر الحديث عن ابن عباس .

٣- في صفحة (١٧) أيضاً أورد حديث بريدة : أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود و غيره ،

وقد بذلت جَهْدِي في تنقية هذا التفسير من تلك الأحاديث الضعيفة ، كما حاولت قدر المستطاع تقريبه للقارئ بحذف التكرار ، و الأقوال الشاذة . . . إلخ ما ذكرته في مقدمة الجزء الأول .

فأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل و سائر الأعمال ، و أن يجعلها خالصة لوجهه ، و ألا يجعل فيها لأحد شيئاً ، إنه ولي ذلك و القادر عليه . . . و صلى الله و سلم و بارك و أنعم على نبينا محمد و آله و صحبه أجمعين .

كتبه

محمد الحمود النجدي الأثري

لعشر بقين من محرم سنة ١٤٢٢

وهي «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، و الحديث ضعفه ابن كثير نفسه ، في تفسيره لسورة النمل ، فقال : حديث غريب و إسناده ضعيف .
٤- في صفحة (١٧) أيضاً : أورد حديث «كل أمر لا يبدأ فيه بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فهو أجدم . و عزاه في الهامش إلى كنز العمال!! وهو حديث ضعيف جداً ، رواه السبكي في «طبقات الشافعية» (٦/١) . بلفظ فهو «أبتر» ، و فيه : أحمد بن محمد بن عمران ، ضعيف متهم . انظر الإرواء (٢٩ / ١) .

٥- في صفحة (١٨) : أورد حديث : الحكم بن عمير قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قلت الحمد لله رب العالمين ، فقد شكرت الله فزادك» رواه الطبري . و الحديث ضعيف جداً ، فيه : عيسى بن إبراهيم وهو ابن طهمان الهاشمي ، قال البخاري : منكر الحديث ، و قال يحيى : ليس بشيء ، و قال أبو حاتم و النسائي : متروك (كما في الميزان) ، و فيه أيضاً : موسى بن أبي حبيب وهو الحمصي ، قال أبو حاتم : ضعيف الحديث (الجرح و التعديل : ١٤٠ / ٨) .

٦- في صفحة (١٩) أورد حديث : الأسود بن سريع قال : قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك و تعالى ، فقال : أما إن ربك يحب الحمد» رواه أحمد (٤٣٥ / ٣) ، و النسائي في الكبرى (٧٧٤٥) . و الحديث منقطع ، فهو من رواية الحسن وهو ابن البصري عن الأسود ، و لم يسمع منه ، قاله علي بن المديني كما في التهذيب (٢ / ٢٦٨) ، للحافظ ابن حجر . وكذا قاله البزار في مسنده ، المصدر السابق .

٧- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : «أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و عظيم سلطانك . . . » الحديث ، رواه ابن ماجه (٣٨٠١) .

قال البوصيري في الزوائد : في إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، و صدقة بن بشير ، لم أر من جرّحه و لا من وثقه ، و باقي رجال الإسناد ثقات ، اهـ .

قلت : أما قدامة ، فقال الحافظ في التقریب : مقبول ، أي : حيث يتابع ، و إلا فلين الحديث . و كذا الأمر بالنسبة لصدقة .
و الحديث ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في السنن (٣٨٠١) و الترغيب .

٨- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث : «اللهم لك الحمد كله ، و لك الملك كله ، و بيدك الخير كله ، و إليك يرجع الأمر كله» الحديث ، و عزاه إلى الترغيب و التهيب .

و الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٨٨ - ط السلفية) من حديث أبي سعيد الخدري به بنحوه .

و قال : قال أبو عبد الله : تفرد به خالد بن يزيد العمري عن ابن أبي ذئب ، اهـ .

قلت : و خالد بن يزيد أبو الهيثم ، قال البخاري فيه : ذاهب الحديث ، و كذبه أبو حاتم .

و قال ابن حبان : منكر الحديث ، يروي الموضوعات عن الثقات . انظر المنجروحين (٢٧٨ / ١) و الميزان (٦٤٦ / ١) .

و هذه أمثلة ، و إلا فالأحاديث الضعيفة الموجودة في المختصر كثيرة . فضلاً عن الآثار و الموقوفات!

كما أنه يكرر بعض الأحاديث المتشابهة دون زيادة فيها أو فائدة - كما في (ص ١٨) : «إني لأعلم كلمة لو قالها . . . » ، و هذا مما ينافي الاختصار كما هو معلوم .

ترتيبها ٥	سورة المائدة - مدنية	آياتها ١٢٠
--------------	----------------------	---------------

روى أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها. تفرد به أحمد. وقد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح.

وروى الحاكم: في مستدركه نحو رواية الترمذي ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وروى الحاكم أيضاً: عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الإمام أحمد وزاد: وسألته عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: القرآن، ورواه النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا يَرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾

١- روى ابن أبي حاتم: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وروى عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم. وروى عن خيشمة قال: كل شيء في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: يا أيها المساكين. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن يُقِّمه أهلها ويُعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك. قال: والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني العهود، يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا

تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدّد في ذلك فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾** - إلى قوله - **﴿سَوْءُ الدَّارِ﴾**. وقال الضحاك نحوه. وقال زيد بن أسلم **﴿أوفوا بالعقود﴾** قال: هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. وقال محمد بن كعب: هي خمسة، منها: حلف الجاهلية، شركة المفاوضة.

وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية **﴿أوفوا بالعقود﴾** قال: فهذه تدل على لزوم العقد وثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور. والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»**. وفي لفظ آخر للبخاري: **«إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»**، وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود.

وقوله تعالى: **﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾** هي الإبل والبقر والغنم. قاله الحسن و قتادة وغير واحد. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وُجد ميتاً في بطن أمه إذا ذُبحت. وقد ورد في ذلك حديث رواه أبو داود: عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: **«ذِكَاةُ الْجَنِينِ ذِكَاةُ أُمَّةٍ»** تفرد به أبو داود. وقوله: **﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتة والدم ولحم الخنزير. وقال قتادة: يعني بذلك: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك: قوله: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾** فإن هذه - وإن كانت من الأنعام - إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: **﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾** يعني منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه، ولهذا قال تعالى: **﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾** أي: إلا ما سيُتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال. وقوله تعالى: **﴿غَيْرِ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾** قال بعضهم: هذا منصوب على الحال، والمراد بالأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي: ما تقدم، واستثنى من الوحشي: الصيد في حال الإحرام. وقيل: المراد: أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها، لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، لقوله: **﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** أي: أبخنا تناول الميتة للمضطر، بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد، وهكذا هنا، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال، فحُرِّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، فإن الله قد حكم بهذا، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِ مَا يَرِيدُ﴾**.

٢- ثم قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾** قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج، وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهدي والبدن من شعائر الله محارمه أي: لا تحلوا محارم الله التي حرّمها الله تعالى، ولهذا قال تعالى: **﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾** يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال، وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾** وقال تعالى: **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾** الآية، وفي صحيح

البخاري : عن أبي بكرة ، أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : «إن الزمان قد استدارَ كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» . وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت ، كما هو مذهب طائفة من السلف .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾** يعني لا تستحلوا القتال فيه ، وكذا قال مقاتل بن حيان و عبد الكريم بن مالك الجزري ، واختاره ابن جرير أيضاً . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله تعالى : **﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾** والمراد أشهر التسيير الأربعة ، قالوا : فلم يستثن شهراً حراماً من غيره ، وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة ، قال : وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم ، لم يكن ذلك له أماناً من القتل ، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان ، ولهذه المسئلة بحث آخر له موضع أبسط من هذا .

وقوله تعالى : **﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾** يعني : لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة - وهو وادي العقيق - فلما أصبح طاف على نسائه - وكن تسعاً - ثم اغتسل و تطيب و صلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة ، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان ، كما قال تعالى : **﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾** وقال بعض السلف : إعظامها : استحسانها واستسمانها ، قال علي بن أبي طالب : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . رواه أهل السنن . وقال مقاتل بن حيان قوله : **﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾** فلا تستحلوه ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به . رواه ابن أبي حاتم . ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نُسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد ، وقوله : **﴿فَإِنْ جَاوَوْكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾** . وروى عن ابن عون قال : قلت للحسن : نُسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا ، وقال عطاء : وكانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون ، فنهى الله عن قطع شجره . وكذا قال مطرف بن عبد الله .

وقوله تعالى : **﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَوْنَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾** أي : ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام ، الذي من دخله كان آمناً ، وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد و عطاء و أبو العالية و مطرف بن عبد الله و عبد الله ابن عبيد بن عمير و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان و قتادة و غير واحد في قوله : **﴿يَتَتَفَوْنَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾** يعني بذلك : التجارة . وهذا كما تقدم في قوله : **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾** . وقوله :

﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحبهم . وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير : أن هذه الآية نزلت في الحطيم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَفَوَّنَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ .

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس ، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم ، والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به ، فهذا يمنع ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج علياً ، وأمره أن ينادي على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة ، وأن لا يخرج بعد العام مشركاً ، ولا يطوف بالبيت عريان . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعدها ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقال : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فنهى المشركين من المسجد الحرام .

وروى عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى : ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر ، فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ، ولا عند البيت فنسخها قوله : ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يعني : أن تقلدوا قلادة من الحرم فأمنوهم ، قال : ولم تزل العرب تغير من أخفر ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي : إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتهم منه ، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد ، وهذا أمر بعد الحظر ، والصحيح الذي يثبت على السبر أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي ، فإن كان واجباً رده واجباً ، وإن كان مستحباً فمستحب ، أو مباحاً فمباح ، ومن قال : إنه على الوجوب ، ينتقض عليه بآيات كثيرة ، ومن قال : إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى ، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه ، كما اختاره بعض علماء الأصول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ من القراء من قرأ ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الألف من «أن» ومعناها ظاهر ، أي : لا يحملنكم بغض من قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام . وذلك عام الحديدية . على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتضوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . وهذه الآية كما سيأتي من قوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي : لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ، فإن العدل واجب على كل أحد ، في كل أحد في كل حال . وقال بعض السلف : ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل به قامت السموات والأرض . والشناَن : هو البغض ، قاله ابن عباس وغيره ، وهو

مصدر من شئنا أنه أشنؤه شئنا بالتحريك .

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم. قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان مجاوزة ما فرض الله عليكم وفي غيركم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تخجزه وتمنعه من الظلم، فذاك نصره»، أخرجاه. وروى أحمد: عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه. وروى الحافظ أبو بكر البزار: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، قلت: وله شاهد في الصحيح «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسُوقٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

٣- يخبر تعالى عباده خيراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات، من الميتة: وهي ما مات من الحيوان حَتَفَ أنفه، من غير ذكاة ولا اصطيد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والبدن، فلهذا حرّمها الله عز وجل، ويستثنى من الميتة: السمك فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطنه والشافعي وأحمد في مسنديهما وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته». وهكذا الجراد لما سيأتي من الحديث. وقوله: ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني به المسفوح، كقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر. وقد روى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال» وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي. وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

وإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذنّ عظماً حديداً فتفصداً

أي: لا تفعل فعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه، فيفصد

به بغيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة. ثم قال الأعشى:

وذا النَّصَبُ المنصوب لا تأتيه ولا تعبد الأوثانَ واللّه فاعبدا

قوله: **﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾** يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: **﴿فإنه رجسٌ أو فسقاً﴾** يعنون قوله تعالى: **﴿إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحماً خنزيراً فإنه رجسٌ﴾** أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه. والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد. وفي صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ لَعَبَ بالتردشير، فكأنما صبَّغ يده في لحم الخنزير ودمه».

فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به. وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس فقال: «لا هو حرام». وفي صحيح البخاري: من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة والدم.

وقوله: **﴿وما أهلٌ لغير الله به﴾** أي: ما ذُبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تُذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام. روى أبو داود عن عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل^(١). قوله: **﴿والمُخَنَّقَةُ﴾** وهي التي تموت بالخنق إما قصداً، وإما اتفاقاً بأن تتخبل في وثاقتها فتموت به، فهي حرام. وأما **﴿الموقوذة﴾** فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقدها فتموت. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها. وفي الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيدٌ فلا تأكله». ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصاب بعرضه فجعله وقيداً لم يحله، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء. واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله، (أحدهما): لا يحل كما في السهم، والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد (والثاني): أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم، وقد قررت لهذه المسئلة فصلاً فليكتب ههنا.

(فصل) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى: فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه،

(١) مرسل، رجاله ثقات، لكن له شاهد عند البيهقي في الشعب وغيره، انظر الصحيحة (٦٢٦).

أوصدمه هل يحل أم لا؟ على قولين (أحدهما): أن ذلك خلال، لعموم قوله تعالى: «فكلوا مما أمسكن عليكم» وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم، وهذا قول حكاة الأصحاب عن الشافعي رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي. (قلت): وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضوعين يحتمل معنيين، ثم وجه كلا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسئلة قولين عنه، اللهم إلا إنه في بحثه للقول بالحل رشحه قليلاً، ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به. والقول بذلك - أعني الحل - نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمان الفارسي وأبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وابن عمر. وهذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه (والقول الثاني): أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله واختاره المزني، ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، والله أعلم. ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، وهذا القول أشبه بالصواب، والله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، وأمس الأصول الشرعية، واحتج ابن الصباغ له: بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدواً وليس معنا مدى أفندبح بالقصب؟ قال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» الحديث بتمامه، وهو في الصحيحين.

وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن البتع وهو نبيذ العسل، فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»^(١). أفيقول فقيه إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ وهكذا هذا، كما سألوه عن شيء من الذكاة، فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذلك المسؤول عنه وغيره، لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم، إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غمّه بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل، لمفهوم هذا الحديث.

(مسلك آخر) وهو أن قوله تعالى: «فكلوا مما أمسكن عليكم» عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيه، لا يخلو إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، وإياً ما كان فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه (أحدها): أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله» ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيد معتبر حالة الصيد، والنطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، وهو محظور عند كثير من العلماء. (الثاني): أن تلك الآية «فكلوا مما أمسكن عليكم» ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صعدن من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ.

(المسلك الآخر) أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء، لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات فلا تحل قياساً على الميتة. (المسلك الآخر) أن آية التحريم «حرمت عليكم الميتة» إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص، وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله تعالى:

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لهم الطيبات﴾ الآية، فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خزقه المعراض فيكون حلالاً، لأنه من الطيبات وما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل، لأنه وقيد فيكون أحد أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء: إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل، وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله، فهو نطيح أو في حكمه، فلا يكون حلالاً.

(فإن قيل) فلم لا فصل في حكم الكلب فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام؟ (فالجواب) أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر، وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميه، أو للهو أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، والله أعلم.

ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال: «إن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وهذا صحيح ثابت في الصحيحين، وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، لا يحل ما أكل منه الكلب. حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس، وبه قال الحسن والشعبي والنخعي وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه. وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس: أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة، وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأما في الجديد إلى قولين قال ذلك الإمام أبو نضر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه، وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك» ورواه أيضاً النسائي فذكر نحوه.

وأما الجمهور فقدّموا حديث عدي على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره، وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجئ، فأكل منه لجوعه ونحوه، فإنه لا بأس بذلك والحالة هذه، لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، والله أعلم^(١).

فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعي على أنها كالكلب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عن الآخرين. واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه. وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيُعفى عن ذلك. وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير، والله سبحانه وتعالى

(١) وهو بنحوه كلام الإمام ابن القيم في تهذيب السنن كما في عون المعبود (٨ / ٥٧ - ٥٩). وقال الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٨٢): لكن قوله: «وإن أكل منه» منكر.

أعلم.

وأما **«الْمُتَرَدِّيةُ»** فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المتردية التي تسقط من جبل . وقال قتادة : هي التي تتردى في بئر . وقال السدي : هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر .

وأما **«النَّطِيحَةُ»** فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام ، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها . والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة ، أي : منطوحة ، وقوله تعالى : **«وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ»** أي ما عدا عليها أسدٌ أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحتها ، فلا تحل بالإجماع . وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقر أو نحو ذلك ، فحرّم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله : **«إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ»** عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله : **«وَالْمُنْحَنَةُ وَالْمُتَوَفَّوَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ»** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : **«إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ»** يقول : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه ، فهو ذكي . وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي . وروى ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال : **«إِنْ مَصَعَتْ بِذَنْبِهَا أَوْ رَكُضَتْ بِرِجْلِهَا أَوْ طَرَفَتْ بِعَيْنِهَا فَكُلْ»** . وروى ابن جرير نحوه . وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد : أن المذكاة من تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ، قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى أي شيء منها ؟ هذا مذهب مالك رحمه الله ، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها ، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية ، والله أعلم .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال قلت : يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ فقال : **«مَا أَنَهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكَلَّوْهُ ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ ، وَسَأَحْدِثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ : أَمَا السِّنُّ فَعِظْمٌ ، وَأَمَا الظُّفْرُ فَمَدَى الحَبْشَةِ»** . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق ؟ فقال : **«لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخْذِهَا لِأَجْزَاءِ عُنُقِكَ»** وهو حديث صحيح^(١) ، ولكنه محمول على ما لا يُقدر على ذبحه في الحلق واللبة .

وقوله : **«وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ»** قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة . قال ابن جريج : وهي ثلاثمائة وستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب . وكذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب ، حتى ولو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبائح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله . وينبغي أن يحمل هذا لأنه قد تقدم تحريم

(١) كذا قال ابن كثير رحمه الله ! وقد ضعف الحديث الحافظ الذهبي في الميزان وأعله بأبي العشاء ، إذ قال : ولا يدري من هو ولا من أبوه ! انفرد عنه حماد بن سلمة . وكذا ضعفه الحافظ في التلخيص (٤ / ١٣٤) .

ما أهل به لغير الله .

وقوله تعالى: **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾** أي حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها: زلم، وقد تفتح الزاي، فيقال: زلم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك وهي عبارة عن قدام ثلاثة، على أحدها مكتوب: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث: غفل ليس عليه شيء. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهائي ربي، والثالث: غفل ليس عيه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد. والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام. هكذا قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾** قال: الأزلام قدام كانوا يستقسمون بها في الأمور. وكذا روى عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هبل، منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه.

وثبت في الصحيحين: أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله! لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً». وفي الصحيح: أن سراقه بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضرمهم أم لا؟ فخرج الذي أكره: لا يضرهم، قال: فعصيت الأزلام وأتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة، كل ذلك يخرج الذي يكره لا يضرهم، وكان كذلك، وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك. وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يلج الدرجات من تكهن، أو استقسم، أو رجع من سفر طائراً». وقال مجاهد في قوله: **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾** قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها. وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم، فإن الله سبحانه قد قرن بينها وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ - إِلَى قَوْلِهِ - مُتَّهُونَ﴾** وهكذا قال ههنا: **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾** أي: تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك.

وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن: عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور، كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيَسْمِيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِّي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلُ أَمْرِي وَأَجَلُهُ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِّي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي، فَاصْرِفْني عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ

حيث كان، ثم رَضَّنِي بِهِ لفظ أحمد.

وقوله: **«الْيَوْمَ يَشَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ»** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني يشسوا أن يُراجعوا دينهم. وكذا روى عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان. وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلِّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالْتَحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»**. ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين، لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله. ولهذا قال تعالى **«أمرًا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحداً إلا الله فقال: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ»** أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم، واخشوني أنصركم عليهم وأيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»** هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: **«وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا»** أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. فلما أكمل لهم تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»** أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورسوله ورضيه، وبعثه به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»** وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ المؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. وقال ابن جريج وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً، رواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال: قوله: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»** فقال عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلت عشية عرفة في يوم الجمعة. ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر. وقال ابن جرير: وقد قيل ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس. ثم روي ذلك من طريق العوفي عن ابن عباس ثم روى عن أبي هريرة: أنه اليوم حجة الوداع، ولا يصح لا هذا ولا هذا، بل الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم الجمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسمرة بن جندب رضي الله عنه، وأرسله الشعبي وقاتدة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء. واختاره ابن جرير الطبري رحمه الله.

وقوله: **«فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** أي فمن احتاج إلى تناول

شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورة أوجابه إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبان: عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته، كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان.

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق؛ أو له أن يشبع، ويتزود؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، وفيما إذا وجد ميتة و طعام الغير، أو صيداً وهو محرّم، هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله.

وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفثوا بها بقللاً، فشأنكم بها» تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين، وكذا رواه ابن جرير. ومعنى قوله: «مالم تصطبحوا» يعني به الغداء «و مالم تغتبقوا» يعني به العشاء «أو تحتفثوا بقللاً»^(١) فشأنكم بها» فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف يعني قوله: «أو تحتفثوا» على أربعة أوجه: تحفثوا بالهمزة «و تحتفثوا» بتخفيف الياء والحاء، و تحفثوا بتشديد وتحتفثوا بالحاء و بالتخفيف، ويحتمل الهمز كما رواه في التفسير.

(حديث آخر) روى أبو داود: عن جابر بن سمرة أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقتي ضلت فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت فقالت له امرأته: انحرها فأبى، فنفقت، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نُقِدَّ شحمها ولحمها فتأكله، قال: لا حتى أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله فقال: «هل عندك غني يغنيك» قال: لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحرتها؟ قال: استحييت منك. تفرد به. وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، والله أعلم.

وقوله: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أي: متعاطٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لاتنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

(١) قال أبو عبيد: من الخطأ وهو أصل البردي الأبيض الرطب منه، وقد يؤكل، يقول: مالم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. ويروى: «مالم تحتفثوا» من احتففت الشيء إذا أخذته كله، كما تحف المرأة وجهها من الشعر. وقيل: غير ذلك (نهاية).

عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ

الحساب (٤)

٤- لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» قال بعدها: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث. وقال مقاتل: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي، فقال: ليس هو من الطيبات، رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن وهب: سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس، فقال: ليس هو من الطيبات. وقوله تعالى «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما صدمتموه بالجوارح وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» وهن الكلاب المعلمة والبازي وكل طير يعلم للصيد، والجوارح يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: ورؤي عن خيشمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك، وروى عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح، وروى عن علي بن الحسين مثله، ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرأ قوله: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» قال: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك، ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي، ثم روى عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه. قلت: والمحكي عن الجمهور: أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب، لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلمه الكلاب فلا فرق، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير. واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود، لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه، لما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ: الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كل أسود بهيم». وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح: من الجرح وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جرح له، أي: لا كاسب له، وقال الله تعالى: «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ» أي ما كسبتم من خير وشر.

وقد ذكر سبب نزول هذه الآية الشريفة، الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت فأنزل الله «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» الآية، فقال النبي ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه، فليأكل مالم يأكل». وهكذا رواه ابن جرير بإسناده: عن رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه فأذن له، فقال: قد أذن

لك يا رسول الله، قال: أجل، ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب، قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلُّ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ ورواه الحاكم وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه: أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمة لا بمخالبه وظفره، أنه لا يحل، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله، حل الصيد وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين: عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة، وأذكر اسم الله، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك» قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن، ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره» قلت: فإني أرمي بالمعراض الصيد؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله» وفي لفظ لهما «إذا أرسلت كلبك فاذا ذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه، فكله فإن أخذ الكلب ذكاته». وفي رواية لهما «فإن أكل فلا تأكل فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا لا يحرم مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك

روى ابن جرير: عن سلمان الفارسي: كل وإن أكل ثلثيه، يعني الصيد إذا أكل منه الكلب. وروى ابن جرير: عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب فقال: كل وإن لم يبق منه إلا حذية يعني بضعة. وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: إذا أرسلت كلبك فأكل منه فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله. وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك، أكل أو لم يأكل.

فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر، وهو محكي عن علي وابن عباس واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري، وهو قول الزهري وربيعة ومالك، وإليه ذهب الشافعي في القديم وأوماً إليه في الجديد. لكن قد روى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه آخر^(١).

فهذه آثار دالة على أنه يُغتفر وإن أكل منه الكلب، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيماهم. وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه، فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم، وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ «فإن أكل فلا تأكل، فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني. وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه «النهاية» أن لو فصل مفصل هذا التفصيل، وقد حقق الله أميته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، وهو: التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي، وبين أكل الصقور ونحوها، فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي عند إرساله كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك» وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً «إذا أرسلت كلبك فاذا ذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذا ذكر اسم الله» ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية: الأمر بالسهم، لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية: الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السدي وغيره. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، وإن نسيت فلا حرج. وقال بعض الناس المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». وفي صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بلحمان، لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا الله أنتم وكلوا».

(حديث آخر) وروى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفأكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله، فليقل: باسم الله أوله وآخره» وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنا حضرنا معه طعاماً ما، فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت تضع يدها في الطعام فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل»

(١) وقد سبق ذكر رواية أبي داود، فتركناها هنا اختصاراً.

بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إنَّ يده في يدي مع يديهما» يعني الشيطان. وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(حديث آخر) روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي: عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع! قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين؟ اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله، يُبارك لكم فيه» ورواه أبو داود وابن ماجه.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الخاسرين ﴿٥﴾

٥- لما ذكر تعالى ما حرّمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم الطيبات، قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم. وهذا أمرٌ مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عنه تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح: عن عبد الله بن مغفل قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته، وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبي ﷺ يبتسم. فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك، في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله، لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قالوا: وهذا ليس من طعامهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر! لأنه قضية عين، ويحتمل أن يكون شحماً يعتقدون حله كشحم الظهور والحوايا ونحوهما، والله أعلم.

وأجود منه في الدلالة: ما ثبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا الرسول الله ﷺ شاةً مصليةً وقد سمّوا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم، فلفظه وأثر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زنب، فقتلت بشر بن البراء. ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم هل نزعوا

منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا . وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير، وإهالة سنخة يعني: ودكاً زنخاً^(١). وروى ابن أبي حاتم عن مكحول قال: أنزل الله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم نسخه الرب عز وجل، ورحم المسلمين فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب. وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظراً فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب، إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم متعبدون بذلك، ولهذا لم يُبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم، لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة، ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء، على أحد قولي العلماء. ونصارى العرب كبنى تغلب وتنوخ وبهرا وجزام ولخم وعاملة ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور.

وقال أبو جعفر بن جرير: عن علي قال: لا تأكلوا ذبائح بنى تغلب لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية يشرب الخمر. وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف. وقال قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن أنهما كانا لا يريان بأساً بذيبيحة نصارى بنى تغلب.

وأما المجوس فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل. ولما قال ذلك واشتهر عنه، أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه. يعني في هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب». ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي في صحيح البخاري: عن عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر. ولو سلم صحة هذا الحديث فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية ﴿وَوَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل.

وقوله تعالى: ﴿وَوَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحهم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما مروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم، كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة. كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ ذلك. فأما الحديث الذي فيه «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(٢) فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٢١٠ - ٢١١) من حديث أنس رضي الله عنه بسند صحيح.

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٨) وأبو داود (٤٨٣٢) وابن ماجه (٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بسند حسن.

ف قيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء . حكاه ابن جرير عن مجاهد ، وإنما قال مجاهد : المحصنات الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحررة العفيفة ، كما قال في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور ههنا ، وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية ، وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصّل زوجها على ما قيل في المثل : «حَشَفًا»^(١) و سوء كَيْلَة .

و الظاهر من الآية : أن المراد بالمحصنات : العفيفات عن الزنا ، كما قال تعالى في الأخرى : **«مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ»** . ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى : **«والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتابَ من قبلكم»** هل يعمُّ كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة ، حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة . وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا : الإسرائيليات ، وهو مذهب الشافعي . وقيل : المراد بذلك : الذميات دون الحرريات ، لقوله : **«قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»** الآية . وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : إن ربّها عيسى ، وقد قال الله تعالى : **«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ»** الآية . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية **«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ»** فحجز الناس عنهن ، حتى نزلت الآية التي بعدها **«والمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»** فنكح الناس نساء أهل الكتاب . وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً ، أخذاً بهذه الآية الكريمة **«والمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»** فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة **«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ»** إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلا فلا معارضة بينها وبينها ، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع ، كقوله تعالى : **«لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَنَفِّكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ»** و كقوله : **«وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا»** الآية .

و قوله : **«إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ»** أي : مهورهنّ ، أي : كما هنّ محصنات عفائف ، فابذلوا لهنّ المهور عن طيب نفس . وقد أفتى جابر بن عبد الله و عامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري : بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها ، أنه يفرق بينهما ، وتردُّ عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم . وقوله : **«مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ»** فكما شرط الإحصان في النساء وهي العفة عن الزنا ، كذلك شرطها في الرجال ، وهو أن يكون الرجل محصناً عفيفاً ، ولهذا قال : **«غَيْرِ مُسَافِحِينَ»** وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ، ولا يردون أنفسهم عنم جاءهم **«وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ»** أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن ، كما تقدم في سورة النساء سواء . ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه : لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة ، حتى يتوب ويقطع عما هو فيه الزنا ، لهذه الآية وللحديث **«لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»**^(٢) . و سيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله : **«الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»** ولهذا قال

(١) الحشف : أردأ التمر . انظر : «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد البكري (ص ٣٧٤) .

(٢) حديث صحيح ، رواه أحمد (٢/ ٣٢٤) وأبو داود (٢٠٥٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تعالى ههنا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فاطهروا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

٦- قال كثيرون من السلف في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني: وأنتم مُخَدِّثُونَ. وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث واجب، وفي حق المتطهر ندب. وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نُسخ. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله! قال: «إني عمداً فعلته يا عمر». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن. وروى أحمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة، طاهراً كان أو غير طاهر عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها: أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث، فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك، كان يفعله حتى مات. وهكذا رواه أبو داود وهو إسناد صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع. وفي فعل ابن عمر هذا، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

وروى ابن جرير: عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضئون لكل صلاة. وروى عن النزال بن سبرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يحدث. وروى عن إبراهيم: أن علياً أكتال من حب فتوضأ وضوءاً فيه تجوز، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً.

وروى ابن جرير: أيضاً عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذا إسناد صحيح. وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد، ما لم نُحدث. وقد رواه البخاري وأهل السنن.

وقال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلماً من الله، أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى

يتوضأ^(١). وروى أبو داود عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة». وكذا رواه الترمذي والنسائي.

وروى مسلم: عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضأ؟ فقال: «لم أصل فأتوضأ».

وقوله: «فاغسلوا وجوهكم» قد استدلت طائفة من العلماء بقوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي: له. وقد ثبت في الصحيحين حديث «الأعمال بالنيات»، وإنما لكل امرئ ما نوى». ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء، قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». وحد الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغم - إلى منتهى اللحين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، وفي النزعتين والتخفيف خلاف هل هما من الرأس أو الوجه؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان: (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهه، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة. وروى الإمام أحمد: عن شقيق قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت. رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح وحسنه البخاري.

وروى أبو داود: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته وقال: «هكذا أمرني به ربي عز وجل». قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي، ثم عن النخعي وجماعة من التابعين.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها، أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة: عن رفاع بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال للمسيء صلواته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة، كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْشِقْ». وفي رواية «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مَنْخَرِهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْشُرْ» والانتشار: هو المبالغة في الاستنشاق.

(١) الحديث الوارد في ذلك ضعفه الحافظ ابن كثير، وقال: غريب جداً.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غرفةً من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا - يعني أضافها إلى يده الأخرى - فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ. ورواه البخاري.

وقوله: **﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾** أي مع المرافق، كما قال تعالى: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾**.

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه، لما روى البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ﴾**، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: **﴿تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾** اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق، وهو الأظهر، أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين: عن عمرو بن يحيى عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا. وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معديكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله.

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، ولا يتقدر ذلك بحد لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزاء. واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: **﴿هل معك ماء﴾** فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كُمُ الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث وهو في صحيح مسلم وغيره.

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كَمَّلَ مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، أنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية، أو بعض

الرأس من غير تكميل على العمامة ، والله أعلم .

ثم اختلفوا في أنه : هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً ، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه ، على قولين ، فروى عبد الرزاق عن حمران بن أبان قال : رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما ، ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوئِي هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوئِي هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يَحْدُثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» أخرجه البخاري ومسلم .

وفي سنن أبي داود : من رواية عبيد الله بن أبي مليكة عن عثمان في صفة الوضوء : ومسح برأسه مرة واحدة . وكذا من رواية عبد خير عن علي مثله .

واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه : عن عثمان رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا . وروى أبو داود عن حمران قال : رأيت عثمان بن عفان توضأ ، فذكر نحوه ولم يذكر المضمضة والاستنشاق ، قال فيه : ثم مسح رأسه ثلاثاً ، ثم غسل رجليه ثلاثاً ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ هَكَذَا وَقَالَ : «مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا كَفَاهُ» تفرد به أبو داود ^(١) ، ثم قال : وأحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

قوله : **«وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ قَرِيًّا وَأَرْجُلَكُمْ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ»** وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أنه قرأها **«وَأَرْجُلَكُمْ»** يقول : رجعت إلى الغسل . وروى عن عبد الله ابن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف . ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء ، كما هو مذهب الجمهور ، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب ، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ، ثم وجهه أجزاء ذلك ! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب .

وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طُرُقًا ، فمنهم من قال : الآية دلّت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة ، لأنه مأمور بقاء التعقيب وهي مقتضية للترتيب ، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده ، بل القائل اثنان ، أحدهما : يُوجب الترتيب كما هو واقع في الآية ، والآخر : يقول لا يجب الترتيب مطلقاً ، والآية دلّت على وجوب غسل الوجه ابتداء ، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع ، حيث لا فارق .

ومنهم من قال : لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب ، بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء ، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أنه يرتب ، والدليل على ذلك : أنه ﷺ لما طاف بالبيت ، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى : **«إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ»** ثم قال : **«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»** لفظ مسلم ، ولفظ النسائي

(١) وفيه عبد الرحمن بن وردان ، قال الدارقطني : ليس بالقوي ، وقال الحافظ : مقبول ، أي حيث يتابع ، فمثله لا يعارض بروايته أحاديث الصحيحين ، والله أعلم .

«ابدؤا بما بدأ الله به» وهذا لفظُ أمر، وإسناده صحيح. فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره: من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، ولا قائل به فوجب ما ذكرناه.

وأما القراءة الأخرى، وهي قراءة من قرأ **«وَأَرْجِلِكُمْ»** بالخفض. فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح. فروى ابن جرير: قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور، فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: **«وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ»** قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بئلهما، إسناده صحيح إليه. وروى ابن جرير عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة بالغسل، وهذا أيضاً إسناده صحيح. وروى ابن جرير: عن ابن عباس قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. وكذا روى قتادة. وروى ابن جرير: عن أيوب قال: رأيت عكرمة يمسح على رجله قال: وكان يقوله. وروى ابن جرير عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح، ثم قال الشعبي: ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غسلاً، ويلغى ما كان مسحاً. فهذه آثار غريبة جداً، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: جحر ضبٌ خرب، وكقوله تعالى: **«عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سَنَدِسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ»** وهذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان. قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما وردت به السنة.

وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه، للآية والأحاديث التي سنوردها، ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي: عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة، حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال: «هذا وضوء من لم يُحدث» رواه البخاري في الصحيح ببعض معناه.

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضل وأضل، وكذا من جَوَّز مسحهما وجَوَّز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما

للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك! ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدم أو تأخر عليه، لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً: فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: «وَأَرْجِلِكُمْ» خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين و أنه لا بد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ غَسَلَ الرجلين في وضوئه، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به».

وفي الصحيحين من رواية عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عنا رسول الله ﷺ في سَفَرَةٍ سافرناها، فأدر كنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار» وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة.

وفي صحيح مسلم: عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار». وعن عبد الله بن الحرث بن جزء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب و بطون الأقدام من النار» رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناد صحيح.

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار» ورواه ابن ماجه. ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما، لما توعد على تركه، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف. وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة: الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى. وقد روى مسلم في صحيحه: عن عمر بن الخطاب أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ وقال: «ارجع فأحسن وضوءك».

وروى الإمام أحمد: عن بعض أزواج النبي ﷺ رأى رجلاً يُصَلِّي وفي ظهر قدمه لُمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود وزاد: والصلاة. وهذا إسناد جيد قوي صحيح، والله أعلم.

وفي حديث حمران: عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه: خَلَّلَ بين أصابعه. وروى أهل السنن: عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ فقال: «أسبغ الوضوء».

وخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق، إلا أن تكون صائماً».

وقال الإمام أحمد: عن أبي أمامة حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ قال: «ما منكم من أحد يُقرب وضوءه، ثم يتمضمض ويستنشق ويتنثر إلا خرَّت خطايا من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرَّت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرَّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال أبو أمامة: يا عمرو انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً. لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناد صحيح، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر. وفيه «ثم يغسل قدميه كما أمره الله» فدلَّ على أن القرآن يأمر بالغسل.

ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين فدلَّكهما. إنما أراد غسلاً خفيفاً وهما في النعلين، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعالها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين. وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه عن حذيفة قال: «أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه» وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه: بأن الثقات الحفاظ روه عن حذيفة قال: فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه.

قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان وعليهما نعلان. وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود، ورواه ابن جرير ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء، بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه، ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليه، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين. وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة. وقال الإمام أحمد: عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد ما أسلمت. تفرد به أحمد.

وفي الصحيحين: عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه، قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث، لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على

الخفين قولاً منه وفعلاً، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير» مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند، بل بجهل و ضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي صلى الله عليه وآله النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد. وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظامان الناتئان عند مفصل الساق والقدم. قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء: هما الناتئان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، هذا لفظه. فعند الأئمة رحمهم الله في كل قدم كعبان، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة ففي الصحيحين: عن عثمان: أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك.

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه: عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله بوجهه، فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتُقيمَنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم» قال: فرأيت الرجل يُلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبتيه بركبة صاحبه، ومنكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة.

فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا والمراد: العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرنا من أنهما العظامان الناتئان، عند مفصل الساق والقدم، كما هو مذهب أهل السنة.

وقوله تعالى: «وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لثلا يطول الكلام. وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى هنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة، عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل فثنى رأسه في حجره راقداً، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة! فتمنيت الموت لمكان رسول الله صلى الله عليه وآله مني، وقد أوجعني، ثم إن النبي صلى الله عليه وآله استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» إلى آخر الآية، فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله تعالى: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج» أي: فلهدا سهلاً عليكم ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء، إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.

وقوله تعالى: «ولكن يريد ليظهركم ولتيم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» أي: لعلكم تشكرون نعمته

عليكم، فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة .
وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امثال
هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن: عن عقبه بن عامر قال: كانت علينا رعاية
الإبل فجاءت نوتي فرَوَّحتها بعشى، فأدركت رسول الله قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم
يتوضأ فيُحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: قلت:
ما أجودَ هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك
جئت أنفاً قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلغ أو فيُسبغ الوضوء يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً
عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من
وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة
بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع
آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم. وروى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري:
أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان...». وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول
الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غلُول، ولا صلاة بغير طهور».

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ
عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾

٧- يقول تعالى مُذَكِّراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا
الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة، والقيام
بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يُبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول
الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. وقال الله تعالى:
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقيل: هذا
تذكارة لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود، في متابعتة محمد ﷺ والانقياد لشرعه. رواه علي بن أبي
طلحة عن ابن عباس. وقيل: هو تذكارة بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه،
وأشهدهم على أنفسهم ﴿الستُ برَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سَهِدْنَا﴾ قاله مجاهد ومقاتل بن حيان. والقول الأول أظهر،

وهو المحكي عن ابن عباس و السدي ، و اختاره ابن جرير .

ثم قال تعالى : **﴿ وَ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾** تأكيدٌ و تحريضٌ على مواظبة التقوى في كل حال . ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر من الأسرار و الخواطر ، فقال : **﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾** .

٨- و قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾** أي : كونوا قوامين بالحق لله عز وجل ، لا لأجل الناس و السمعة ، و كونوا **﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾** أي بالعدل لا بالجور . و قد ثبت في الصحيحين : عن العمان بن بشير أنه قال : نَحَلَنِي أَبِي نَحْلًا ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةَ بِنْتُ زُوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَهُ لِيُشْهَدَهُ عَلَى صَدَقَتِي ، فَقَالَ : « أَكَلَّ وَلَدُكَ نَحْلَتَ مِثْلِهِ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ - وَ قَالَ - إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ » قَالَ : فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّتْكَ الصَّدَقَةَ .

و قوله تعالى : **﴿ وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ﴾** أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد ، صديقاً كان أو عدواً ، و لهذا قال : **﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾** أي : عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه . و قوله : **﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾** من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء ، كما في قوله تعالى : **﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾** و كقول بعض الصحابييات لعمر : أنت أظف و أغلظ من رسول الله ﷺ . ثم قال تعالى : **﴿ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** أي : و سيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها ، إن خيراً فخير و إن شراً فشر .

٩- و لهذا قال بعده : **﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾** أي لذنوبهم **﴿ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾** و هو الجنة التي هي من رحمته على عباده ، لا ينالونها بأعمالهم ، بل برحمة منه و فضل ، و إن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، و هو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته و فضله و عفوه و رضوانه ، فالكلُّ منه وله ، فله الحمد و المنة .

١٠- ثم قال : **﴿ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾** و هذا من عدله تعالى ، و حكمته و حكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير .

١١- و قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾** روى عبد الرزاق : عن جابر : أن النبي ﷺ نَزَلَ مِنْزَلاً ، وَ تَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاءِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتِهَا ، وَ عَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » قَالَ الْأَعْرَابِيُّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ وَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُ » قَالَ : فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ ، وَ هُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ وَ لَمْ يَعْاقِبْهُ . وَ قِصَّةُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ وَ هُوَ غُورَثُ بْنُ الْحَرِثِ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ . وَ قَالَ أَبُو مَالِكٍ : نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَ أَصْحَابِهِ ، حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَغْدُرُوا بِمُحَمَّدٍ وَ أَصْحَابِهِ فِي دَارِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . .

و ذكر محمد بن إسحاق بن يسار و مجاهد و عكرمة و غير واحد : أنها نزلت في شأن بني النضير ، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي ، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين و وكنوا عمرو بن

جحش بن كعب بذلك ، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده ، أن يلتقى تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّل المؤمنون ﴾ يعني من توكَّل على الله كفاه الله ما أهمه ، وحفظه من شر الناس وعصمه . ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم ، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لا تكفرون عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ (١٢) فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (١٣) ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ (١٤)

١٢- لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهدته وميثاقه ، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم ، من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناهم لهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع والعمل الصالح ، فقال تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ﴾ يعني : عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه .

وقد ذكر ابن عباس وابن إسحاق وغير واحد : أن هذا كان لما توجه موسى ﷺ لقتال الجبابرة ، فأمر بأن يقيم نقيباً ، من كل سبط نقيب . وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ، ثلاثة من الأوس ، وهم : أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله : أبو الهيثم ابن التيهان ، وتسعة من الخزرج ، وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبد بن الصامت وسعد بن عباد وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمرو بن حنيش رضي الله عنهم . وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعره ، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله . والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ ، عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين وكوا المعاقدة والمبايعة ، عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

وفي الصحيحين : من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ما ضياً ، ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي ، فسألت أبي : ماذا قال النبي ﷺ؟ قال : كلهم من

قريش . وهذا لفظ مسلم .

ومعنى هذا الحديث : البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً ، يُقيم الحق و يعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم و تتابع أيامهم ، بل قد وُجد منهم أربعة على نسق ، وهم : الخلفاء الأربعة أبو بكر و عمر و عثمان و علي رضي الله عنهم ، و منهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، و بعض بني العباس ، و لا تقوم الساعة حتى تكون و لا يتهم لا محالة . و الظاهر أن منهم المهدي ، المُبشَّر في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يُواطئ اسمه اسم النبي ﷺ ، و اسم أبيه اسم أبيه ، فيملا الأرض عدلاً و قسطاً ، كما مُلئت جوراً و ظلماً . و ليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ، ثم ظهوره من سرداب سامراً ، فإن ذلك ليس له حقيقة ، و لا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، و توهم الخيالات الضعيفة . و ليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر : الأئمة الاثني عشر ، الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم و قلة عقلهم .

و في التوراة البشارة بإسماعيل علي ﷺ و أن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً ، و هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث سمرة ، و بعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة ، يُوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر ، فيتشيع كثيرٌ منهم جهلاً و سفهاً ، لقلة علمهم ، و علم من لقنهم ذلك ، بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ .

و قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي : بحفظي و كلاءتي و نصري ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ أي : صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وَ عَزَرْتُمُوهُمْ ﴾ أي : نصرتموهم و وازرتموهم على الحق ﴿ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ و هو الانفاق في سبيله و ابتغاء مرضاته ﴿ لَا كُفْرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي ذنوبكم أمحوها و أسترها ، لا أوأخذكم بها ﴿ وَ لَا دُخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : أدفع عنكم المحذور و أحصل لكم المقصود . و قوله : ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده و توكيده و شدته ، و جحده و عامله معاملة من لا يعرفه ، فقد أخطأ الطريق الواضح ، و عدل عن الهدى إلى الضلال .

١٣ - ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ، و نقضهم عهده ، فقال : ﴿ فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ ﴾ أي : فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم ، لعناهم ، أي : أبعدهناهم عن الحق ، و طردناهم عن الهدى ﴿ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أي : فلا يتعظون بموعظة لغلظها و قساوتها ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي : فسدت فهمهم ، و ساء تصرفهم في آيات الله ، و تأوَّلوا كتابه على غير ما أنزله ، و حملوه على غير مراده ، و قالوا عليه ما لم يقل ، عياداً بالله من ذلك ﴿ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : و تركوا العمل به رغبة عنه . و قال الحسن : تركوا عرى دينهم ، و وظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها . و قال غيره : تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة ، فلا قلوب سليمة ، و لا فطر مستقيمة ، و لا أعمال قويمه . ﴿ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ يعني : مكرهم و غدرهم لك و لأصحابك . و قال مجاهد و غيره : يعني بذلك : تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ . ﴿ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ ﴾ و هذا هو عين النصر و الظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصي الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه . و بهذا يحصل لهم تأليف و جمع على الحق ،

ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ منسوخة بقوله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية.

١٤- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: ومن الذين ادَّعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، ليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ، ومناصرتة وموازرتة، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود. ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة.

ولذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يُكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تُحرِّم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى، على ما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، مِن جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم، أميهم وكتابهم، وأنه بعثه بالبينات، والفرق بين الحق والباطل، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يبين ما بدّلوه وحرّفوه وأولّوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه.

وقد روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من كفر بالرجم، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

١٦- ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يُنجيهم من المهالك، ويوضح لهم أمين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم

حالة .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٨)

١٧- يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبدٌ من عباد الله وخلق من خلقه، أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء، وكونها تحت قهره و سلطانه ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو أراد ذلك، فمن الذي كان يمنعه منه، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسئل عما يفعل بقدرته و سلطانه، و عدله و عظمته. وهذا ردٌّ على النصارى، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

١٨- ثم قال تعالى رداً على اليهود والنصارى في كذبهم و افتراءهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري. فحملوا هذا على غير تأويله و حرفوه. و قد ردّ عليهم غير واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم و قالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف و الإكرام، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي و أبيكم، يعني ربي و ربكم. و معلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، و إنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه، و حظوتهم عنده، و لهذا قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه و أحبائه، فلم أعددت لكم نار جهنم على كفركم و كذبكم و افتراءكم؟ و قد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن، أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفية هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

و هذا الذي قاله حسن، و له شاهد في المسند للإمام أحمد حديث روى عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، و صبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى و تقول: ابني ابني، و سمعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار؟ قال: فخففهم النبي ﷺ فقال: «و لا الله ما يلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، و هو سبحانه الحاكم في جميع عبادته

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده ما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور. وروى عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذّرههم نقمته. فقالوا: ما نخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

١٩ - يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال ﴿على فطرة من الرسل﴾، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي و قتادة في رواية عنه: كانت ستمائة سنة. ورواه البخاري: عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. والمشهور هو القول الأول، وهو أنها ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف ﴿وَلِبِشُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية، التي كانت معلومة لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم وآخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا، ليس بيني وبينه نبي». وهذا فيه ردُّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يُقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره.

والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فطرة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان. فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أخبار اليهود وعباد النصارى والصابئين، كما روى الإمام أحمد: عن عياض بن خمار المجاشعي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «وإن ربي أمرني أن أعلمكم مما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من بني إسرائيل، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأ نائماً ويقظاناً، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: يا رب إذ يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغزِكَ،

وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً نبعت خمساً أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك...»، ورواه مسلم والنسائي.

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل» وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب» فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي: لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيره: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير، وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعني محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، و ثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله و كليمه موسى بن عمران ﷺ، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم، وآلائه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، ويحذرون نعمته، حتى ختموا بعيسى ابن مريم ﷺ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق: محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ روى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت. ورواه الحاكم عن ابن عباس قال: المرأة والخادم، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين هم بين ظهرانهم يومئذ. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وروى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل المملك إلا مركب وخادم ودار. رواه ابن جرير،

ثم روى عن الحكم ومجاهد ومنصور وسفيان الثوري نحواً من هذا، وقد ورد في الحديث «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، آمناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا»^(١).

وقوله: **﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة **﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** **﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** **﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** والمقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً، قال الله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾**.

وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة، وشرفها وكرمها عند الله، عند قوله تعالى: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾** من سورة آل عمران. وقيل: المراد: **﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، ويظللهم به من الغمام، وغير ذلك ما كان تعالى يخصصهم من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى **﴿لَبْنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ﴾** والدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف **﴿عَلَيْهِمُ السَّلَامُ﴾**، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوزوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله **﴿عَلَيْهِمُ السَّلَامُ﴾** بالدخول إليها وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه، والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى.

٢١، ٢٢ - فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾** أي: المطهرة. وقال ابن عباس قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقوله تعالى: **﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثته من آمن منكم **﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾** أي: ولا تنكروا عن الجهاد **﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾** **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِن يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾** أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها، وقاتل أهلها قوماً جبارين، أي: ذوي خلق هائلة وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلنا وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم **﴿عَلَيْهِمُ السَّلَامُ﴾**، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً، وثلث ذراع تحرير الحساب! وهذا شيء يستحي من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله **﴿صَلَّى﴾**

(١) حديث حسن، رواه الترمذي (٢٤٦٣) وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري **﴿رَضِيَ﴾**.

قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ الْخَلْقَ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ». ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته! وهذا كذب وافتراء، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّاراً﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ثم أغرقنا بعد الباقيين» وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظر، والله أعلم.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ، حرَّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: ممن لهما مهابة وموضع من الناس. ويقال إنهما: يوشع بن نون وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله، فقالوا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن توكلتم على الله، واتبعتم أمره ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم، وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلد التي كتبها لكم. فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً.

٢٤- ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَانْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال: إنهم لما نكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، سجد موسى وهارون عليهما السلام قدام ملا من بني إسرائيل، إعظاماً لما هموا به، وشق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما، ولأما قومهما على ذلك. فيقال: إنهم رجموهما، وجرى أمر عظيم، وخطر جليل.

وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم، يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النضير الذين جاؤا لمنع العير، الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر ﷺ فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون» وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تُعرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك. وروى أبو بكر بن مردويه: عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ، قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿انْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، ورواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان.

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي ﷺ، كما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن

مسعود بن النبي ﷺ: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: **«اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ»** ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك وسُرُّ بذلك. وهكذا رواه البخاري.

٢٥- وقوله: **«قَالَ رَبُّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»** يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال، غضب عليهم موسى ﷺ. وقال داعياً عليهم: **«رَبُّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي»** أي: ليس أحدٌ يطيعني منهم فيمثل أمر الله، ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون **«فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»** عن ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم. كذا رواه علي بن أبي طلحة، وقال غيره: افرق: افصل بيننا وبينهم.

٢٦- وقوله تعالى: **«فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ»** الآية. لما دعا موسى ﷺ حين نكلوا عن الجهاد، حَكَمَ الله بتحریم دخولها عليهم قدرَ مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه. وفيه كانت أمورٌ عجيبة، و خوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه، انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، و شرعت لهم الأحكام، و عملت قبة العهد، و يقال لها: قبة الزمان. عن سعيد بن جبیر سألت ابن عباس عن قوله: **«فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ»** الآية. قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة، يُصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى. وهذا قطعة من حديث الفتون، ثم كانت وفاة هارون ﷺ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم ﷺ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون ﷺ نبياً خليفة عن موسى بن عمران، و مات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، و يقال: إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع و كالب، و من ههنا قال بعض المفسرين في قوله: **«قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ»** هذا وقف تام، و قوله: **«أَرْبَعِينَ سَنَةً»** منصوب بقوله **«يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ»** فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون ﷺ، أو بمن بقي منهم و بسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب، و خشي دخول السبت عليهم قال: إنك مأمورة و أنا مأمور، اللهم احبسها علي، فحبسها الله تعالى حتى فتحها، و أمر الله يوشع بن نون، أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سجداً، و هم يقولون: حِطَّةٌ، أي: حُطَّ عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، و دخلوا يزحفون على أستاهم، و هم يقولون: حبة في شعرة، و قد تقدم هذا كله في سورة البقرة.

و قد اختار ابن جرير أن قوله: **«فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ»** هو للعامل في أربعين سنة، و أنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، و هم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد، قال: ثم خرجوا مع موسى ﷺ ففتح بهم بيت المقدس، قال: و أجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: و ما ذاك إلا

بعد التيه، لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه، هذا استدلاله .

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى ﷺ عنهم، أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتها فيما أمراهم به من الجهاد، فضغفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه و صفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون، من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون، لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلدهي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقروود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (٢٨) إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٢٩) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٠) فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين (٣١)﴾

٢٧- يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم، في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما: قابيل وهايل، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه، وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام، والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي: اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة، من اليهود وأمثالهم وأشباههم: خبر ابني آدم، وهما هايل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: على الجلية، والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم، ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى شرع لآدم ﷺ أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هايل دميمة وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يُقرَّباً قرباناً

فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه .
وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد له في كل بطن رجل و امرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة ، و ولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك و أنكحك أختي ، فقال : لا ، أنا أحق بأختي ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ، و لم يتقبل من صاحب الزرع ، فقتله . إسناد جيد .

وروى عن ابن عباس : قوله : **﴿إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا﴾** فقربا قربانها ، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، و صاحب الحرث بصبرة من طعامه ، فقبل الله الكبش فخرزه في الجنة أربعين خريفاً ، و هو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام . إسناد جيد .

وروى ابن جرير : عن عبد الله بن عمرو قال : إن ابني آدم اللذين قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر ، كان أحدهما صاحب حرث ، و الآخر صاحب غنم ، و أنهما أمرا أن يقربا قربانا ، و إن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه و أسمنها و أحسنها ، طيبة بها نفسه ، و إن صاحب الحرث قرب أشد حرثه ، الكودن و الزوان غير طيبة بها نفسه ، و أن الله عز وجل تقبل قربان صاحب الغنم ، و لم يتقبل قربان صاحب الحرث ، و كان من قصتهما ما قص الله في كتابه ، قال : و أيم الله ، إن كان المقتول لأشد الرجلين ، و لكن منعه التخرج أن ييسط يده إلى أخيه .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، إنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا : لو قربنا قربانا ، و كان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله ، و إن لم يكن رضيه الله حَبَّت النار ، فقربا قربانا و كان أحدهما راعياً ، و كان الآخر حرثاً ، و إن صاحب الغنم قرب خير غنمه و أسمنها ، و قرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة ، و تركت الزرع ، و إن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس ، و قد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ، و رد عليّ فلا والله ، لا ينظر الناس إليّ و أنت خير مني ، فقال : لأقتلنك ، فقال له أخوه : ما ذنبي ، إنما يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير .

فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب ، و لا عن تدارئ في امرأة ، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، و هو ظاهر القرآن **﴿إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** فالسياق يقتضي : إنه إنما غضب عليه و حسده بقبول قربانه دونه ، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل ، و أن الذي قرب الطعام هو قابيل ، و أنه تقبل من هابيل شاته ، حتى قال ابن عباس وغيره : إنها الكبش الذي فدى به الذبيح ، و هو مناسب ، و الله أعلم ، و لم يتقبل من قابيل .
كذلك نص عليه غير واحد من السلف و الخلف ، و هو المشهور عن مجاهد أيضاً . و لكن روى ابن جرير عنه أنه قال : الذي قرب الزرع قابيل و هو المتقبل منه ، و هذا خلاف المشهور و لعله لم يحفظ عنه جيداً ، و الله أعلم .

و معنى قوله : **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** أي ممن اتقى الله في فعله ذلك . و روى ابن أبي حاتم : عن أبي الدرداء قال : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة ، أحب إلي من الدنيا و ما فيها ، إن الله يقول :

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَئِن بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَئِن بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله، إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعني الورع.

ولهذا ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وروى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي» قال: أفرايت إن دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؟ فقال: «كن كابن آدم» وكذا رواه الترمذي وفي الباب عن أبي هريرة وخباب بن الأرت وأبي بكر و ابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة. وروى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: ركب النبي ﷺ حماراً وأردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر أرايت إن أصاب الناس جوعٌ شديد، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟» قال: قال الله ورسوله أعلم، قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر أرايت إن أصاب الناس موتٌ شديد، يكون البيت فيه بالعبد - يعني القبر - كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «اصبر» قال: «يا أبا ذر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تفرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ قال: والله أعلم، قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك» قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأت من أنت منهم، فكن فيهم» قال: فأخذ سلاحي؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إذا خشيت أن يروعك شعاع السيف، فألق طرف رداك على وجهك، كي يبوء بإثمهم وإثمك» ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائي.

٢٩- وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: بإثم قتلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قاله ابن جرير. وقال آخرون: يعني بذلك إنني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي. وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطاً، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه^(١).

(قلت) وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قَتَلَ الصَّبْرُ لَا يَمْرُ بَذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ» وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه: إن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمّل علي القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو

(١) ثم ذكر الرواية عنه بمثل القول الأول.

الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصَات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نَفَدت ولم يستوفِ حقه، أُخِذَ من سيئات المقتول فطُرحت على القاتل، وربما لا يبقى على المقتول خطيئته إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم^(١).

وأورد ابن جرير على هذا سؤالاً حاصله: كيف أراد هاييل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه، مع أن قتله له محرّم؟ وأجاب بما حاصله: أن هاييل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجر له لو انزجر، ولهذا قال: **«إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»** وقال ابن عباس: خوفاً بالنار، فلم ينته ولم ينزجر.

٣٠- وقوله تعالى: **«فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين»** أي: فحسنت و سوّلت له نفسه وشجعت على قتل أخيه، فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقوله: **«فأصبح من الخاسرين»** أي: في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه. وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل»** وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود.

٣١- وقوله تعالى: **«فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُوارى سواة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سواة أخى فأصبح من النادمين»** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء غرابٌ إلى غرابٍ ميت، فبحث عليه من التراب حتى واره، فقال الذي قتل أخاه **«يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سواة أخى»** وقال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فرأهما يبحثان فقال: **«أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب»** فدفن أخاه.

وقوله: **«فأصبح من النادمين»** قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: **«إلا كان علي ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أول من سنّ القتل»** وهذا ظاهرٌ جلي، ولكن روى ابن جرير عن الحسن هو البصري قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله **«واتلّ عليهم نبأ ابني آدم بالحق»** من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جداً، وفي إسناده نظر.

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد وابن جرير أنه: علق ساقه بفخذه إلى يوم القيامة، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت، عقوبة له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله عُقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»**^(٢).

(١) واختاره ابن جرير كما ذكره عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٩٠٢) وابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكره ﷺ.

وقد اجتمع في فعل قاييل هذا وهذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) ﴾

٣٢- يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي: من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها أي: حرّم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلّم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وعن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرُّك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً، فكأنما قتلت الناس جميعاً، فأنصرف مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فأنصرفت ولم أقاتل.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرّمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً. يعني أنه من حرّم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه. وهكذا قال مجاهد: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي: كف عن قتلها. وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم، فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرّم دم مسلم فكأنما حرّم دماء الناس جميعاً. هذا قول، هو الأظهر، وقال عكرمة والعوفي عن ابن عباس: من قتل نبياً، أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شدّ على عضد نبي، أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً. رواه ابن جرير. وقال مجاهد في رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، وذلك لأن من قتل النفس فله النار، فهو كما لو قتل الناس كلهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس، يعني فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة، ومن أحياها أي: عفا عن قاتل وليه، فكأنما أحيا الناس جميعاً. وحكى ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير. وقال مجاهد في رواية: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي: أنجها من غرق أو حرق أو هلكة. وقال قتادة: عظيمٌ والله وزرها، وعظيمٌ والله أجرها. وعن سليمان بن علي الربيعي قال قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي، والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا. وقال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ قال: وزراً، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ قال:

أجراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ، على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه، وودوا من قتلوه. وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَوْلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٣- قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: أن قرص الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، روى أبو داود والنسائي: من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير.

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت في الحرورية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ رواه ابن مردويه. والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري ومسلم: من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك: أن نفراً من عكّل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيرون من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشرّبوا من أبوالها وألبانها، فصحوا، فقلتوا الراعي وطرّدوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأدركوا، فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت أعينهم، ثم بُذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم. وفي لفظ لهما: من عكّل أو عرّينة. وفي لفظ: وألقوا في الحرّة فجعلوا يستسقون فلا يسقون. وفي لفظ لمسلم: ولم يحسمهم. وعند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. وعن أنس قال إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء. رواه مسلم. وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر وعائشة وغير واحد، وقد اعتنى الحافظ

الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جدا، فرحمه الله وأثابه .
وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ، كما في قوله **﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾** ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر! ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين. وفيه نظر! فإن قصته متأخرة. وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة، ومنهم من قال: لم يسلم النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فيبين حكم المحاربين. وهذا القول أيضاً فيه نظر! فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل، وفي رواية: سمر أعينهم. ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء، لقوله **﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾** وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه، حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ ما معه: أن هذه محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يُغيثه ويُعينه .
وقوله تعالى: **﴿أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يَصَلُّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾** قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: **﴿مَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَخَافَ السَّبِيلَ، ثُمَّ ظَفَرَ بِهِ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ، فِيمَا مِثْلِهِ فِيهِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالضُّحَّاكُ، وَرَوَى ذَلِكَ كُلَّهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، وَحَكَى مِثْلَهُ عَنِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمُسْتَدَدٌ هَذَا الْقَوْلُ أَنَّ ظَاهِرَ «أَوْ» لِلتَّخْيِيرِ كَمَا فِي نِظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ فِي جِزَاءِ الصَّيْدِ: «فَجِزَاءُ مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كِفَارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾** وكقوله في كفارة الفدية **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾** وكقوله في كفارة اليمين **﴿فَإِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ كِفَارَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾** هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.

وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال، كما روى أبو عبد الله الشافعي: عن ابن عباس: في قطع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال: قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال: قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا: قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال: نفوا من الأرض^(١).

وقد رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس بنحوه، وعن أبي مخرمة وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك، وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب؟ أو يقتله برمح أو نحوه؟ أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك

(١) وفي سنده ضعف، لكن له طرق يتقوى بها. وهو قول غير واحد من السلف كما ترى.

كله خلاف محرّر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان.
 وأما قوله تعالى: **﴿أَوْ يُنْفُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾** قال بعضهم: هو أن يُطلب حتى يُقدّر عليه فيقام عليه الحد، أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير: عن ابن عباس وأنس بن مالك وسعيد بن جبيرة والضحاك والربيع ابن أنس والزهري والليث بن سعد ومالك بن أنس. وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية. وقال الشعبي ينفيه: كما قال ابن هبيرة: من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: يُنفي من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من دار الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبيرة وأبو الشعثاء والحسن والزهري والضحاك ومقاتل بن حيان أنه: يُنفي ولا يخرج من أرض الإسلام.
 وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا: السجن. وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا: أن يُخرج من بلده إلى بلد آخر فليسجن فيه.

وقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** أي هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادّخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة. وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في المشركين.
 فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه بعضنا بعضاً، فمن وفّى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يُثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي حسن غريب، وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روى مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفع صحيح.

وقال ابن جرير في قوله: **﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾** يعني: شرٌّ وعار ونكال، وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة **﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا. في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها. **﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** يعني عذاب جهنم.

وقوله تعالى: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك، فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم: انحتم القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة. روى ابن جرير: أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة فامتنع، ولم يقدرُوا عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾**

الرَّحِيمِ ﴿ فوقف عليه ، فقال : يا عبد الله ، أعد قراءتها ، فأعادها عليه ، فغمد سيفه ثم جاء تائباً ، حتى قدم المدينة من السَّحَرِ فاغتسل ، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلّى الصبح ، ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه فلما أسفروا عرّفه الناس ، فقاموا إليه فقال : لا سبيل لكم علي ، جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي ، فقال أبو هريرة : صدق ، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية ، فقال : هذا علي جاء تائباً ولا سبيل عليه ، ولا قتل ، فترك من ذلك كله ، قال : وخرج علي تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر ، فلقوا الروم فقرنوا سفينته إلى سفينة من سفنهم ، فافتحم على الروم في سفينتهم ، فهربوا منه إلى شقها الآخر ، فمالت به وبهم ، فغرقوا جميعاً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ

مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴿

٣٥- يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ روى سفيان الثوري عن ابن عباس : أي القرية . وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن و قتادة و عبد الله بن كثير و السدي و ابن زيد و غير واحد ، وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ . وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة ، لا خلاف بين المفسرين فيه .

و الوسيلة : هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، و الوسيلة أيضاً عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله ﷺ و داره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

(حديث آخر) في صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة ، صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

و قوله : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لما أمرهم بترك المحارم و فعل الطاعات ، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار و المشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، و التاركين للدين القويم ، و رغبتهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح و السعادة العظيمة الخالدة المستمرة ، التي لا تبيد و لا تحول و لا تزول ، في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها ، الطيبة مساكنها ، التي من سكنها ينعم لا

يبأس، ويحيى ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

٢٦- ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار، من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، وبمثله، ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه، ولا محيص له ولا مناص، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه.

٢٧- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية. فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها، وقد قال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعتك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار» رواه البخاري ومسلم والنسائي.

ثم روى ابن مردويه: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر عن جابر، وهذا أبسط سياقاً.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴿

٣٨- يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع السارق والسارقة. وروى الثوري أن ابن مسعود كان يقرأها ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام، وزيدت شروط أخز، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على: أكانت عليه، وزيادات هي من تمام المصالح. وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً، قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً، لعموم هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة. وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده».

و أما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي حدة، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصه، فمتى سرقها، أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه، وجب القطع. واحتج في ذلك بما رواه ابن عمر أن رسول الله ﷺ «قَطَعَ فِي مِجَنِّ ثَمَنِهِ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ» أخرجاه في الصحيحين، قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك. قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي. وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم، خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم. وذهب الشافعي رحمه الله: إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار، أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا» ولمسلم: «لا تقطع يد السارق، إلا في ربع دينار فصاعداً». قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه، قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق. ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه وأبو ثور و داود بن علي الظاهري رحمهم الله.

و ذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه: إلى أن كل واحد من ربع الدينار، والثلاثة دراهم، مرد شرعي فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة رضي الله عنهما، و وقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن» قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار. فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم.

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية، من حديث أبي هريرة «يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة: (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر! لأنه لا بد من بيان التاريخ. (والثاني) أنه مؤول ببيضة الحديد، وحبل السفن. قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. (والثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة، من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده. ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة، في الأشياء المهينة. وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء، في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، و قلة عقله. وقد أجاب الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال: لما كانت أمينة، كانت ثمينة، ولما خانت هانت، ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن

في باب الجنایات ناسب أن تُعَظَّم قيمة اليد بخمسمائة دينار لثلاثي يَجْنَى عليها، وفي باب السرقة، ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لثلاثي يسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب.

ولهذا قال: **﴿جِزَاءٌ بِمَا كَسَبْنَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** أي: مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعاننا به في ذلك **﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾** أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك **﴿والله عزيز﴾** أي: في انتقامه **﴿حكيم﴾** أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: **﴿فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** أي: من تاب بعد سرقة و أناب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم، أو بدلها، عند الجمهور. وقال أبو حنيفة متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها.

وفي الصحيحين: عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله عز وجل» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ. وهذا لفظ مسلم. وفي لفظ له: عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها.

وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجحده فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، وهذا لفظه. وفي لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلبي للناس، ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ: «لَتُبَّ هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله، وترد ما تأخذ على القوم» ثم قال رسول الله ﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة، مذكورة في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة.

٤٠- ثم قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد **﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمِن يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ

اللَّهُ شَيْئًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٤﴾

٤١- نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المُقَدِّمِينَ آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل: «مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ» أي: أظهروا الإيمان بزلستهم وقلوبهم خرابٌ خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا» أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ» أي: مستجيبون له منفعلون عنه «سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ» أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُهَوِّنُونَهُ إِلَى قَوْمٍ آخِرِينَ، ممن لا يحضر عندك من أعدائك «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون «يَقُولُونَ إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا» نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرقوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم، والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك، فروى مالك: عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة» أخرجاه، وهذا لفظ البخاري.

وفي لفظ له: قال لليهود: «ما تصنعون بهما؟» قالوا: نسخّم وجوهما ونخزيهما، قال: «فأتوا بالتوراة فأتوها إن كُتُمُ صَادِقِينَ» فجاءوا فقالوا الرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، فقال: «ارفع يدك» فرفع فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكأته بيننا، فأمر بهما فرجما. وروى أبو داود عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى

القف، فاتاهم في بيت المدارس فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم، قال: ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها، ثم قال: «اثنوني بالتوراة» فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها وقال: «آمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال: «اثنوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك.

وروى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: مرَّ على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود، فدعاهم، فقال: «أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقال: لا، والله، لولا أنك نشدتنني بهذا لم أخبرك، نجد حدَّ الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرفنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: يقولون ائتوا محمداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: في اليهود إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: في اليهود ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حَكَمَ بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليتقرَّروا على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانهم وجحدته، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ، إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيئْتُمْ هَذَا﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿فخذوه﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

٤٢- ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: الباطل ﴿أَكَاوُونَ لِلسُّخْتِ﴾ أي: الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أي: ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه، وأنى يستجيب له ثم قال لنبية ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إليك ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي: فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والحسن وغير واحد: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

٤٣ - ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائفة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدأ، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه، وعدم لزومه لهم، فقال: **﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾**.

٤٤ - ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحَكِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾** أي: لا يخرجون عن حكمها، ولا يبدلون لها ولا يحرفونها **﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾** أي: وكذلك الربانيون، وهم: العلماء العباد، والأخبار: وهم العلماء **﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾** أي: بما استودعوا من كتاب الله، الذي أمروا أن يظهروه، ويعملوا به **﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾** أي: لا تخافوا منهم وخافوا مني **﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: إن الله أنزل **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**، **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**، **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتله الذليلة، من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة وهل كان في حين دينهما واحد، ونسبها واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فدسوا إلى محمد من يخبركم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتهم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ، أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** إلى قوله: **﴿الْفَاسِقُونَ﴾** ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل، ورواه أبو داود.

وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم، ولهذا قال بعد ذلك: **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾** إلى آخرها. وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. وروى عبد الرزاق عن إبراهيم

قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله هذه الأمة بها. ورواه ابن جرير. وروى ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة؟ فقال: من السحت. قال فقلا: وفي الحكم؟ قال: ذلك الكفر، ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها: أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

وروى ابن جرير عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ قال: هذا في النصارى. وروى عبد الزراق عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ الآية، قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وروى الثوري عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وروى وكيع عن طاوس ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

وروى ابن أبي حاتم عن طاوس عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ (٤٥)

٤٥- وهذا أيضاً مما وُيخت به اليهود، وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس، وهم يخالفون ذلك عمداً و عناداً، ويقيدون النضري من القرظي، ولا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، و عدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم و عناداً و عمداً، وقال ههنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم، في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجمع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً.

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى: أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مقررأ ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الأسفراييني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة. وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة. رواه ابن أبي حاتم.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يُقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة. وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم «أن الرجل يقتل بالمرأة». وفي الحديث الآخر «المسلمون تكافأ دماؤهم». وهذا قول جمهور العلماء.

وكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية، على أنه يقتل المسلم بالكافر، وعلى قتل الحر بالعبد. وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين: عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُقتل مسلمٌ بكافر». وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة، أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرّاً بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم، إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن الربيع عمه أنس كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «القصاص» فقال أخوها أنس بن النضر: تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص» قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله، من لو أقسم على الله لأبره» أخرجاه في الصحيحين.

وقد روى أبو داود عن عمران بن حصين: أن غلاماً لأناس فقراء، قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً. وكذا رواه النسائي. وهذا إسناد قوي رجاله كلهم ثقات، وهو حديث مشكل، اللهم إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَالجُرُوحَ قِصَاصًا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقد العين بالعين، وتقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس. رواه ابن أبي جرير وابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة

الجراح تارة تكون في مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل ولكف والقدم ونحو ذلك. وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم. فقال مالك رحمه الله: فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها، لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً. وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد. وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه، أنه لا قصاص في عظم إلا في السن، وحديث الربيع لا حجة فيه، لأنه

ورد بلفظ: «كسرت ثنية جارية» و جائز أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع.

ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال، ثم زاد جرحه فلا شيء له. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني، فقال: «حتى تبرأ» ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده فقال: يا رسول الله، عرجت، فقال: «قد نهيتك فعصيتني، فأبعدك الله، وبطل عرجك» ثم نهى رسول الله أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد.

(مسألة) فلو اقتص المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص فلا شيء عليه، عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فمن عفا عنه وتصدق عليه، فهو كفارة للمطلوب، وزجر للطالب. وقال: ابن عباس أيضاً: فمن تصدق به فهو كفارة للجراح، وأجر المجروح على الله عز وجل. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليه وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك.

(الوجه الثاني): وروى ابن أبي حاتم: عن الهيثم بن العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية، أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. رواه ابن جرير. وروى الإمام أحمد: أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يُجرح من جسده جراحة، فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به» ورواه النسائي. وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالوا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمٍ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾

٤٦- يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا على آثارهم، يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمٍ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمناً بها، حاكماً بما فيها ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات، وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة، وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل هدى يهتدي به وموعظة، أي: زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله،

و خاف وعيده و عقابه .

٤٧- و قوله تعالى : ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قرئ ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ﴾ بالنصب ، على أن اللام لام كي ، أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم . و قرئ ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر ، أي : ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، و مما فيه : البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه و تصديقه ، إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية . و قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ إلى قوله ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ و لهذا قال ههنا : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي : الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق . و قد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى ، و هو ظاهر من السياق .

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾

٤٨- لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه و مدحها ، و أثنى عليها و أمر باتباعها ، حيث كانت سائغة الاتباع ، و ذكر الإنجيل و مدحه ، و أمر أهله بإقامته و اتباع ما فيه ، كما تقدم بيانه ، شرع في ذكر القرآن العظيم ، الذي أنزله على عبده و رسوله الكريم ، فقال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره و مدحه ، أنه سينزل من عند الله على عبده و رسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر ، الذين انقادوا لأمر الله و اتبعوا شرائع الله ، و صدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ و يقولون سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي : إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمين ، من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً ، أي : لكائناً لا محالة ولا بد .

و قوله تعالى : ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المهيمن الأمين . قال : القرآن أمينٌ على كل كتاب قبله . و رواه عن عكرمة و سعد بن جبير و مجاهد و محمد بن كعب و عطية و الحسن و قتادة و عطاء الخراساني و السدي و ابن زيد نحو ذلك . و قال ابن جرير : القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، و ما خالفه منها فهو باطل . و عن الوالبي عن ابن عباس : ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي : شهيداً . و كذا قال مجاهد و قتادة و السدي . و قال العوفي عن ابن عباس : ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي حاكماً على ما قبله

من الكتب . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم ، على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله ، آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : **﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** .

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير و عطاء الخراساني و ابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم قالوا : في قوله : **﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾** يعني : محمداً ﷺ أمين على القرآن ، فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظراً ! و في تنزيهه عليه من حيث العربية أيضاً نظراً ! وبالجملة فالصحيح الأول .

وقوله تعالى : **﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** أي : فاحكم يا محمد بين الناس عربهم و عجمهم ، أميهم و كتابيهم ، بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم ، و بما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ، ولم ينسخه في شرعك . هكذا وجهه ابن جرير بمعناه . روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ مخيراً : إن شاء حكم بينهم ، و إن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا .

وقوله : **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** أي : آراءهم التي اصطلحوا عليها ، و تركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ، ولهذا قال تعالى : **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾** أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به ، إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء .

وقوله تعالى : **﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس **﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾** قال : سبيلاً ، **﴿وَمِنْهَاجًا﴾** قال : سنة . و كذا روي عن مجاهد وعكرمة و الحسن البصري و قتادة والضحاك و السدي و أبي إسحق السبيعي أنهم قالوا في قوله : **﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** أي : سبيلاً و سنة . و عن ابن عباس و مجاهد أيضاً و عطاء الخراساني عكسه **﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** أي : سنة و سبيلاً . و الأول أنسب ، فإن الشريعة و هي الشريعة أيضاً ، و هي : ما يبدأ فيه إلى الشيء ، و منه يقال : شرع في كذا ، أي : ابتداء فيه ، و كذا الشريعة و هي ما يشرع فيها إلى الماء . أما المنهاج : فهو الطريق الواضح السهل ، و السنن : الطرائق ، فتفسير قوله : **﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** بالسبيل و السنة أظهر في المناسبة من العكس ، و الله أعلم .

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان ، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام ، المتفقة في التوحيد ، كما ثبت في صحيح البخاري : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد ، الذي بعث الله به كل رسول أرسله ، و ضمته كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** وقال تعالى : **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** الآية ، و أما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى ، و بالعكس ، و خفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه ، و ذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة ، و الحجة الدامغة . قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله : **﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** يقول : سبيلاً و سنة ، و السنن

مختلفة: هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد، والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقيل: المخاطب بهذه الآية هذه الأمة. ومعناه: لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجاً، أي: هو لكم كلكم تقتدون به. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب وشريعة واحدة، لا يُنسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمد ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾** أي: أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته، بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. وقال عبد الله بن كثير **﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾** يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إليها، فقال: **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** وهي طاعة الله، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: **﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾** أي: معادكم أيها الناس، ومصيركم إليه يوم القيامة **﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة. والحجج البالغة والأدلة الدامغة، وقال الضحاك **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** يعني أمة محمد ﷺ، والأول أظهر.

٤٩- وقوله: **﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه، ثم قال: **﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾** أي: واحذر أعداءك اليهود أن يبدلوا عليك الحق، فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرية خونة **﴿فَإِنْ قَوْلُوا﴾** أي: عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله **﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾** أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى، لما لهم من الذنوب السالفة، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم **﴿وَإِنْ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾** أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** الآية.

٥٠- وقوله تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتغل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها

عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

وروى ابن أبي حاتم عن الحكم قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية. وروي عن ابن أبي نجيح قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدي في النخل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله عز وجل: مَنْ يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه». وروى البخاري نحوه بزيادة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فُصِّبْحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

٥١- ينهى تبارك وتعالى عباده المومنين عن موالاته اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله. قاتلهم الله. ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. روى ابن أبي حاتم: عن عياض: أن عمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك، فعجب عمر وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام، فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

ثم روى عن محمد بن سيرين عن عبد الله بن عتبة قال: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: كل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وروى عن أبي الزناد نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شبك ورب و نفاق يسارعون فيهم، أي: يبادرون

إلى موالاتهم و مودتهم في الباطن و الظاهر، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أي: يتأولون في مودتهم و موالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمرٌ من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود و النصارى فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدي: يعني فتح مكة. و قال غيره: يعني القضاء و الفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود و النصارى ﴿فِيُصِيبُحُومًا﴾ يعني: الذين والوا اليهود و النصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاة نادمين، أي: على ما كان منهم مما لم يُجد عنهم شيئاً، و لا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا و أظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، و يحلفون على ذلك و يتأولون، فبان كذبهم و افتراؤهم.

٥٣- و لهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ و قد اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ فتقديره: أن يأتي، و أن يقول، و قرأ أهل المدينة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بغير واو، و كذلك هو في مصاحفهم، على ما ذكره ابن جرير عن مجاهد.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تقديره حينئذ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ و اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمت، فذكر السدي: أنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأوي إليه، و أتهود معه، لعله ينفعي إذا وقع أمر أو حدث حادث، و قال الآخر: أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأوي إليه و أنتصر معه، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات. و قال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيد إلى حلقه، أي: إنه الذبح. رواه ابن جرير.

و روى ابن إسحاق: عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم، و مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، و كان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله و تبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و قال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و أتولى الله و رسوله و المؤمنين، و أبرأ من حلف الكفار و ولايتهم، ففيه و في عبد الله بن أبي، نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

٥٤- يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه من تولى عن نصرته دينه، وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خيراً لها منه، وأشدّ منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿أي بممتنع ولا صعب. وقال تعالى ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردّة أيام أبي بكر. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة سمعت أبا بكر بن عياش يقول: هم أهل القادسية. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة من السكون.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه، ووليه، متعزراً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. وقوله عز وجل: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي: لا يردّهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردّهم عن ذلك راد، ولا يصدّهم عن صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عدل عاذل.

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدينون منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأاً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش.

وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمتنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق، إذا رآه أو شهدته، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يُباعد من رزق، أن يقول بحق، أو أن يذكر بعظيم» تفرد به أحمد.

و ثبت في الصحيح: «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَطِيقُ»^(١) «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

٥٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات: من إقام الصلاة، التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين. وأما قوله: ﴿وَهُمْ

(١) الحديث ليس في الصحيح! وإنما رواه الترمذي (٢٣٦٩) وابن ماجه (٤٠١٦) وهو صحيح.

رَاكِعُونَ ﴿ فقد توهّم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال، من قوله: ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه! وليس يصح شيئ منها بالكلية لضعف أسانيدها، وجاهالة رجالها. روى ابن مردويه بإسناده: عن ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ نزلت في المؤمنين، وعلي بن أبي طالب أولهم، وروى ابن جرير: عن عبد الملك عن أبي جعفر قال: سألته عن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا، قلنا: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، قال: علي من الذين آمنوا. وقال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا. رواه ابن جرير.

وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها، أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ . فكل من رضي بولاية الله ورسوله المؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

٥٧- وهذا تنفير من موالات أعداء الإسلام وأهله، من الكفار والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هُزُؤًا يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وأفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى: ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ «من» لبيان الجنس، كقوله: ﴿ فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء. والمراد بالكفار ههنا: المشركون. وكذا وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ . وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: اتقوا الله، أن تتخذوا هؤلاء الأعداء

لكم ولديكم أولياء، إن كنتم مؤمنين بشرع الله، الذي اتخذهُ هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

٥٨- وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة، التي هي أفضل الأعمال، لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أيضاً ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان، الذي «إذا سمع الأذان أدبر وله حُصَّاص، أي: ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوب للصلاة أدبر، فإذا قضى التشويب أقبل، حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدة قبل السلام» متفق عليه. وقال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

روى الإمام أحمد: عن أبي محذورة قال: خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين، مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلهم إليّ، وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني، وقال: «قم فأذن» فقمْتُ ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمْتُ بين يدي رسول الله ﷺ فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله» ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه ثم على كبده، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرّة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك، وبارك عليك» فقلت: يا رسول الله مُرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنتُ معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ.

وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة عن أبي محذورة، واسمه: سمرة بن مغير بن لوذان، أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مؤذن أهل مكة، وامتدت أيامه رضي الله عنه وأرضاه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ

قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) ﴿

٥٩- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمننا بأن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

٦٠- ستم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات، المفسرة بقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف. وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القرده والخنزير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا»، أو قال: «لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقْبًا، وَإِنَّ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ» وقد رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرئ: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على أنه فعل ماضٍ، والطاغوت منصوب به، أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت، أي: خدامه وعبده. وقرئ ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على أنه جمع الجمع، عبد وعبيد وعبُد، مثل ثمار وثمر. وكل هذه القراءات يرجع معناها: إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا، الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر، ولهذا قال: ﴿أَوْلَيْكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله عز وجل ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٦١- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، أنهم يُصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أي: عندك يا محمد بالكفر، أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزيّنوا بما ليس فيهم، فإن عالم الغيب الشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

٦٢- وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ أي: يُبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم، والاعتداء على الناس، وأكلهم أموال الباطل ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أي: لبس العمل كان عملهم، ولبس الاعتداء اعتداؤهم.

٦٣- وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: هلاً كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك. والربانيون: هم العلماء العُمَّال، أرباب الولايات عليهم. والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: من تركهم ذلك، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أنا لا نهى. رواه ابن جرير. وروى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب» تفرد به أحمد. ورواه أبو داود: عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم المعاصي، يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيرون، إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا» وقد رواه ابن ماجه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

٦٤- يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، بأنهم وصفوه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بأن قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: بخيل، يعني أمسك ما عنده بخلاً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وقاتدة والسدي والضحاك وقرأ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يعني: أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، وعبر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾. وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله، وقد تقدم أنه الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة، أمرٌ عظيم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴿الآية﴾، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع

أحوالنا، كما قال: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والآيات في هذه كثيرة.

وقد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ، وَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة، نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً، وعملاً صالحاً، وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون، لك ولأمتك ﴿طُغْيَانًا﴾ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم، بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم النخعي: الخصومات والجدال في الدين. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها، أبطلها الله، ورد كيدهم عليهم، وحق مكرهم السيء بهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته.

٦٤- ثم قال جل و علا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، و اتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور، وأنلناهم المقصود ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، النبات لهم من الأرض. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها. وكذلك قال مجاهد وسعيد ابن جبيرة وقتادة والسدي. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الآية. وقال بعضهم معناه ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني من غير كد ولا تعب، ولا شقاء ولا عناء.

روى الإمام أحمد: عن زياد بن ليبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند ذهاب العلم» قال:

قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفاقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون بما فيهما بشيء». هكذا رواه ابن ماجه نحوه، وهذا إسناد صحيح.

وقوله تعالى: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» كقوله: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» وكقوله عن أتباع عيسى «فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ» الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا» الآية. والصحيح: أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، كلهم يدخلون الجنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧)

٦٧- يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأه بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام. روى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنْ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ» وهو يقول: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الآية، وكذا رواه مسلم.

وفي الصحيحين عنها أيضاً: أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن، لكتم هذه الآية «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

وروى ابن أبي حاتم: عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً، لم يُبده رسول الله ﷺ للناس؟ فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» والله، ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وهذا إسناد جيد.

وهكذا في صحيح البخاري: من رواية أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاري رضي الله عنه: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا:

نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم، ويقول: «اللهم هل بلغت».

وقوله تعالى: **﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالتك﴾** يعني: وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: إن كنت آية مما أنزل إليك من ربك، لم تبلغ رسالته. وقوله تعالى: **﴿والله يعصمك من الناس﴾** أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحدٌ منهم إليك بسوء يؤذيك، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس، كما روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينما أنا على ذلك، إذ سمعتُ صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين. وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة قال: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية **﴿والله يعصمك من الناس﴾** قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة، وقال: «يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي.

ومن عصمة الله لرسوله: حفظه له من أهل مكة، وصناديدها وحُسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته، وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبةً طبيعية لرسول الله ﷺ، لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدرٌ مشتركٌ في الكفر، هابوه واحترموه، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قبض الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب بسوء، كاده الله ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الداء. ولما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به، وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها. فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

روى أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر، تركنا له زعظم شجرة وأظلمها فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف فوضعه، فأنزل الله عز وجل **﴿والله يعصمك من الناس﴾** وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه.

وقوله: **﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾** أي: بلغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، قال تعالى: **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾** وقال: **﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾**.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

٦٨- يقول تعالى: قل يا محمد ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ أي: من الدين، حتى تقيموا التوراة والإنجيل، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها: الإيمان بمحمد، والأمر باتباعه ﷺ والإيمان بمبعثه، والافتداء بشريعته. ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني: القرآن العظيم. وقوله: ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ تقدم تفسيره ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي: فلا تحزن عليهم، ولا يهيبنك ذلك منهم.

٦٩- ثم قال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ وهم المسلمون ﴿والذين هادوا﴾ وهم حملة التوراة ﴿والصابئون﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد. وعنه: من اليهود والمجوس، وقال سعيد بن جبیر: من اليهود والنصارى. وعن الحسن والحكم: إنهم كالمجوس، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقيل غير ذلك (١).

وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل. والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشرعية المحمدية، بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقليين، فمن اتصف بذلك ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ وقد تقدم الكلام على نظيراتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته هنا.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

٧١- يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه، ولهذا قال تعالى: ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحبسوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا، فلا يسمعون حقاً، ولا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم، أي: مما كانوا فيه ﴿ثم عموا وصموا﴾ أي: بعد ذلك ﴿كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ أي: مطلع عليهم، وعلم بمن يستحق الهداية،

(١) وقد سبق تفصيل القول فيهم في سورة البقرة (آية: ٦٢).

ممن يستحق الغواية منهم .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَأَنَّا بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ أَنْظُرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿

٧٢- يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من : الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم : بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزهه وتقدس علواً كبيراً . هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : إني عبد الله ، ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله ، بل قال : ﴿إني عبدُ اللهِ أتاني الكتابُ وجعلني نبياً﴾ إلى أن قال : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته ، أمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي : فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي : فقد أوجب له النار ، وحرّم عليه الجنة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

وفي الصحيحين : أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ﴾ وفي لفظ «مؤمنة» . و تقدم في أول سورة النساء عند قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة : «الدواوين ثلاثة» فذكر منهم : ديواناً لا يغفره الله ، وهو الشرك بالله ، قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ والحديث في مسند أحمد . ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي : وما له عند الله ناصر ولا معين ، ولا منقذ مما هو فيه .

٧٣- وقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد . ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ، ليس هذا موضع بسطه وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق : أن الثلاثة كافرة .

وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدي : وهي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴿٧٦﴾ الآية . وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم . قال الله تعالى :
 ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي : متعدداً، بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات، وسائر الموجودات .
 ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : ﴿وَإِنْ لَمْ يَتَّهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي : من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمْسُنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ أي : في الآخرة من الأغلال والنكال .
 ٧٤- ثم قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده،
 ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة
 والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه .

٧٥- وقوله تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي : له أسوة أمثاله من
 سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبدٌ من عباد الله، ورسول من رسله الكرام، كما قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ
 أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ﴾ وقوله : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي : مؤمنة به مُصدِّقة له، وهذا أعلى
 مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره، ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحق، ونبوة
 أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله : ﴿وَإِذْ نَادَى إِلَى آتَمِ مَوْسَى
 أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور : أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى :
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله :
 الإجماع على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿كَانَآ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي : يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان
 كسائر الناس وليسا بإلهين، كما زعمت فرق النصرى الجهلة - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - ثم
 قال تعالى : ﴿انظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي : نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي : ثم انظر بعد
 هذا البيان والوضوح والجلاء، أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟
 ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا
 عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾

٧٦- يقول تعالى منكرًا على مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً
 من الإلهية، فقال تعالى : ﴿قُلْ﴾ أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله، من سائر فرق بني آدم، ودخل في
 ذلك النصرى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي : لا يقدر على دفع ضرر
 عنكم، ولا إيصال نفع إليكم ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي : السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم
 عدلتم عنه إلى عبادة جمادٍ لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً، لغيره ولا لنفسه .
 ٧٧- ثم قال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق،
 ولا تطروا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة، إلى مقام الإلهية، كما صنعت في
 المسيح، وهو نبيٌّ من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال،

الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً **﴿وَأَضَلُوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٩) ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٠) ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون (٨١) **﴿**

٧٨- يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه **﴿عليه السلام﴾**، على لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على خلقه. قال العوفي عن ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم:

٧٩- فقال تعالى: **﴿كَانُوا لَا يَتَّهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُركب مثل الذي ارتكبه، فقال: **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**. والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام، قد تقدم حديث جابر عند قوله: **﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾** وسيأتي عند قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني، فروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان: أن النبي **﴿ﷺ﴾** قال: «و الذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» ورواه الترمذي.

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعفُ الإيمان» رواه مسلم.

وروى أبو داود: عن العُرس بن عميرة عن النبي **﴿ﷺ﴾** قال: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكْرَهَا - وَقَالَ مَرَّةً: فَأَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا».

وفي حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وروى ابن ماجه: عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله **﴿ﷺ﴾** يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكَرَهُ؟ فَإِذَا لَقِنَ اللَّهُ عَبْدًا حِجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَفَرَقْتُ مِنَ النَّاسِ» تفرد به ابن ماجه، وإسناده لا بأس به.

٨٠- وقوله تعالى: **﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: **﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾** يعني: بذلك مولاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، ولهذا قال: **﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** وفسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر عنهم أنهم **﴿فِي الْعَذَابِ خَالِدُونَ﴾** يعني يوم القيامة.

٨١- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَ﴾ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن، لما ارتكبوا ما ارتكبوه، من موالاته الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤) فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٨٥) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (٨٦)

٨٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا، حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر! لأن هذه الآية مدنية، وقص جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين. وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلثموا.

واختار ابن جرير: أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها. فقله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى، من أتباع المسيح، وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ وفي كتابهم: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ، فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ. وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان جمع راهب، وهو العابد، مشتق من: الرهبة، وهي: الخوف، كراكب وركبان وفارس وفرسان.

فقله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق، واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى

أَعْيَبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ أَي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به. وقد روى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيَبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

٨٥- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له، حيث كان، وأين كان ومع من كان.

٨٦- ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أَي: هم أهلها والداخلون فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

٨٧- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهطٍ من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بستتي فهو مني ومن لم يأخذ بستتي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم.

وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالشوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، أخرجاه.

وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم. وجاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. وعن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فجاء بضرع، فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ادن، فقال: إني

حَرَّمَتْ أَنْ أَكَلَهُ، فقال عبد الله: ادن فاطعم، وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»** الآية. رواه ابن أبي حاتم، وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه. وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا وفيه، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره، إلى أن من حرّم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء، أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»** ولأن الذي حرّم اللحم على نفسه، كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة. وذهب آخرون، منهم الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن من حرّم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً، أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه، إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** ثم قال: **«قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ»** الآية، وكذلك هنا، لما ذكر هذا الحكم، عقبه بالآية المبنية لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزلٌ منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وروى ابن جرير عن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون و عبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله **«وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ»**. وعن عكرمة: أن عثمان بن مظعون و علي بن أبي طالب و ابن مسعود و المقداد بن أسود و سالمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرّموا طيبات الطام واللباس، إلا ما يأكل و يلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخفاء، وجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»**. يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرّموا من النساء و الطعام و اللباس، و ما أجمعوا له من قيام الليل، وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: **«إِنَّ لَأَنْفُسِكُمْ حَقًّا، وَإِنَّ لَأَعْيُنِكُمْ حَقًّا، صُومُوا وَأَطْرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا»** فقالوا: اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، لها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، والله الحمد و المنة.

وقوله تعالى: **«وَلَا تَعْتَدُوا»** يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضيق على أنفسكم، بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم و حاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: **«كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا»** الآية، وقال: **«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»** فشرع الله عدل بين الغالي فيه، والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، ولهذا قال: **«لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»**.

٨٨- ثم قال: **«وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا»** أي: في حال كونه حلالاً طيباً **«وَاتَّقُوا اللَّهَ»** أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته و عصيانه **«وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ»**.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨٩)

٨٩- وقد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، والله الحمد والمنة، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله وبلى والله. وهذا مذهب الشافعي. وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

والصحيح: أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما صمتم عليه منها وقصدتموها ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ يعني: محاويج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من الخبز والزيت. وروى عن ابن عمر في قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم. ورواه ابن جرير، ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود وشريح القاضي ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبي رزين، أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاها ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً.

واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: في القلة والكثرة، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم. قال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين، أكلة واحدة خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً وسمناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً، حتى يشبعوا.

وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة: نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما. فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان. وقال أبو حنيفة: نصف صاع بر، وصاع مما عداه. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: مُدٌّ من بر، يعني لكل مسكين ومعه إدامه. ثم قال: وروى عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء وعكرمة وأبي الشعثاء والقاسم وسالم وأبي سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار والحسن ومحمد بن سيرين والزهري نحو ذلك.

وقال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بحد النبي رسول الله ﷺ لكل مسكين. ولم يتعرض للأدم واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان، بأن يطعم ستين مسكيناً، من مکتل يسع خمسة عشر صاعاً،

لكل واحدٍ منهم مد. وقال أحمد بن حنبل: الواجب مد من بُرٍّ أو مُدَانٍ من غيره، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي رحمه الله: لو دفع كل واحدٍ من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك. واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا على وجهين؟. والصحيح عدم الإجزاء. وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يُدفع إلى كل واحدٍ منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كل بحسبه، والله أعلم. وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت. وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك: ثوب ثوب.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة، وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل، لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: رسول الله، قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله.

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزاء عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدةٍ من هذه الخصال الثلاث، كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالوا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام والإصام، وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه: أنه جائز لمن يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه، ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوت عياله في يومه ذلك، ما يُخرج به كفارة اليمين، واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ قولان: أحدهما: لا يجب، وهذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان، وهو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ونص الشافعي في موضع آخر في الأم: على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره: أنهم كانوا يقرؤونها: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ﴾ وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك. وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل أن يكون خبراً واحداً، أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع.

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَن كَانَ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه: لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴿

٩٠ - يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار، وروى ابن أبي حاتم: عن عطاء ومجاهد و طاوس أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. وروى عن راشد بن سعد و ضمرة بن حبيب مثله، وقالوا: حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان. وعن سعيد بن المسيب قال: كان ميسر أهل الجاهلية: بيع اللحم بالشاة والشاتين. وعن الأعرج قال: الميسر الضرب بالقِداح على الأموال والثمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الميسر. رواه ابن أبي حاتم. وفي صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِيرٍ، فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمِهِ». وفي موطأ مالك و مسند أحمد و سنن أبي داود و ابن ماجه: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وروى موقوفاً على أبي موسى من قوله، فالله أعلم.

و أما الشطرنج: فقد قال عبد الله بن عمر: أنه شر من النرد. ونص على تحريمه مالك و أبو حنيفة و أحمد، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى. و أما الأنصاب: فقال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبیر و الحسن و غير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرايبنهم عندها، و أما الأزلام: فقالوا أيضاً: هي قِداح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبي حاتم، وقوله تعالى: ﴿رَجِسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي سخط من عمل الشيطان. و قال سعيد بن جبیر: إثم، و قال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائذ على الرجس، أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ و هذا ترغيب.

٩١ - ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ و هذا تهديد و ترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدُعي عمر فقرأت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، ، نادى: لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فقرأت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً: فنزلت الآية التي في المائدة فدُعي

عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ قال عمر: انتهينا. وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، و صحح هذا الحديث: علي بن المديني والترمذي.

وقد ثبت في الصحيحين: عن عمر بن الخطاب أنه قال: في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

وروى البخاري: عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة، ما فيها شراب العنب.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: أن عبد الرحمن بن وعله قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دوس - فلقبه يوم الفتح برواية خمر يديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعهها. قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت في البطحاء.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل ابن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين، فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرّمت؟ فقالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس اسكب ما بقي في إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ. أخرجاه في الصحيحين.

وفي رواية قال: كنت ساقى القوم يوم حرّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا نادى ينادي، قال: اخرج فانظر، فإذا نادى ينادي: ألا إن الخمر قد حرّمت، فجرت في سلك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقتها، فقالوا أو قال بعضهم: قتل فلان وفلان وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم على أمتي الخمر والميسر والمزور والكوبة والقنين»^(١) وزادني صلاة الوتر» قال يزيد: القنين البرابط. تفرد به أحمد.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لُعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقبها، وبائعها ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، واكل ثمنها» ورواه أبو داود وابن ماجه.

(حديث آخر): روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث، قال: وَضَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فِدْعَانًا، فشرينا الخمر قبل أن تحرم، حتى انتشينا فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لحي جَزُورٍ فضرب به أنف سعد ففزره، وكانت أنف سعد مفزورة فنزلت ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى:

(١) المزور: شراب مسكر يتخذ من الذرة، والكوبة: هي الطبل، وقيل: النرد. والقنين: البربط وهو العود.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَهَوِّنُونَ﴾ أخرجه مسلم .

(حديث آخر): روى البخاري: عن جابر قال: صَبَّحَ أَنَسُ غَدَاةَ أَحَدِ الْخَمْرِ، فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا .

(حديث آخر): روى أبو داود الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالُوا: كَيْفَ بَمَنْ كَانَ يَشْرِبُهَا قَبْلَ أَنْ تَحْرَمَ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية، ورواه الترمذي .

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً؟ فقال: «أهرقها» قال: أفلا نجعلها خلا؟ قال: «لا» . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي .

(حديث آخر): روى أبو داود عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُخْمَرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِستْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديدُ أهل النار» . ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال» تفرد به أبو داود .

(حديث آخر): روى الشافعي رحمه الله: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِّمَ فِي الْآخِرَةِ» أخرجه البخاري ومسلم . وروى مسلم: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُخْمَرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَشْرِبْهَا فِي الْآخِرَةِ» .

(حديث آخر): روى ابن وهب: عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لَوَالِدِيهِ، وَالْمُدْمِنُ الْخَمْرَ، وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ» . ورواه النسائي .

وعن عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها إننا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً، إلا أوْشك أحدهما أن يُخْرَجَ صَاحِبِهِ . رواه البيهقي، وهذا إسناد صحيح، وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً والموقوف أصح، والله أعلم . وله شاهد في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سارقاً حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بِالْكَعْبَةِ أَوْ

كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

٩٤- قال الوالبي عن ابن عباس قوله: «لَيَبْلُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ» قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شأوا لتناولوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد: «تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ» يعني صغار الصيد و فِراخه «وَرِمَاحُكُمْ» يعني: كباره. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون «لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح، سرا و جهرا، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» وقوله ههنا: «فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ» قال السدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: لمخالفته أمر الله و شرعه.

٩٥- ثم قال تعالى: «وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ» وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهى عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول، ولو ما تولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضا، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين: عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ فواسقٌ يُقتلن في الحِلِّ والحَرَمِ: الغراب والحداة والعقرب والفأرة والكلب العقور» ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله، قال أيوب: فقلت لنافع فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، ولا يختلف في قتلها. ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور: الذئب والسبع والنمر والفهد، لأنها أشد ضررا منه، فالله أعلم. وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهم سلط عليه كلبك بالشام» فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن فداء، كالضبع والشعلب والوبر، ونحو ذلك. قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، و صغار الملحوق بها من السباع العوادي. وقال الشافعي: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل. وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب، لأنه كلب بري، فإن قتل غيرهما فداء، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله، فلا فداء عليه. وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح ابن حي. وقال زفر بن الهذيل: يفدى ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا: الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض، دون الأدرع: وهو الأسود، والأعصم: وهو الأبيض لما رواه النسائي^(١) عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «خمسٌ يقتلن المحرم: الحية والفأرة والحداة والغراب الأبقع والكلب العقور». والجمهور على أن المراد به أعم من

(١) وهو في صحيح مسلم في كتاب الحج (٢/ ٨٥٦).

ذلك ، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه .

وقوله تعالى : **﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾** روى ابن أبي حاتم : عن أيوب قال : ثبت عن طاوس أنه قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً . وهذا مذهب غريب عن طاوس ، وهو متمسك بظاهر الآية . وقال مجاهد بن جبير : المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد ، الناسي لإحرامه ، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه ، فذاك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه . رواه ابن جرير وهو قول غريب أيضاً . والذي عليه الجمهور : أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه . وقال الزهري : دل الكتاب على العامد ، و جرت السنة على الناسي . ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد ، وعلى تأثيمه بقوله : **﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾** وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العمد .

و أيضاً : فإن قتل الصيد إتلاف ، وإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم ، والمخطئ غير ملوم .

وقوله تعالى : **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾** قرأ بعضهم بالإضافة وقرأ آخرون بعطفها **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾** وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ : **﴿فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾** . وفي قوله : **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾** على كل من القراءتين ، دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور ، من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم ، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة ، سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمانه ، وإن شاء اشترى به هدياً . والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدهم مقرر في كتاب الأحكام . وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً ، فقد حكى ابن عباس فيه بثمانه يحمل إلى مكة . رواه البيهقي .

وقوله تعالى : **﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾** يعني : أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة ، في غير المثل : عدلان من المسلمين . واختلف العلماء في القاتل ، هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين : **(أحدهما) : لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه ، وهذا مذهب مالك . (والثاني) : نعم ، لعموم الآية ، وهو مذهب الشافعي وأحمد . واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة ، وروى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال : قتلت صيداً وأنا محرم ، فما ترى علي من الجزاء ؟ فقال أبو بكر ﷺ لأبي بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها ؟ قال : فقال الأعرابي : أتيتك وزنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾** فشاورت صاحبي ، حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، وهذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل ههنا . فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة ، لما رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم .**

روى ابن جرير : عن أبي جرير البجلي قال : أصبت ظبياً وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر ، فقال : ائت

رجلين من إخوانك، فليحكما عليك، فأتيت عبد الرحمن وسعد، فحكما علي بتيسر أعفر. وروى ابن جرير عن طارق قال: أوطأ أريد ظيباً فقتله وهو محرم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر، ثم قال عمر: **«يُحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ»** وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما الله.

و اختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين: فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعله شرعاً مقررراً لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: **«يُحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ»**.

وقوله تعالى: **«هَذَا بَالِغُ الْكَعْبَةِ»** أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد: وصوله إلى الحرم بأن يُذبح هناك، ويُفَرَّقَ لحمه على مساكين الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: **«أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا»** أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام: بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحد قولي الشافعي والمشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر «أو» بأنها للتخيير.

والقول الآخر: أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول، عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يُشترى به طعام فيتصدق به، فيُصرف لكل مسكين مدٌّ منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مدٌّ من خنطة أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً، كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة أصع.

واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: مكانه الحرم. وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه، وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **«هَذَا بَالِغُ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا»** فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظيباً أو نحوه، فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أَيْلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها أطعم

عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزادوا: الطعام مدّ مدّ يشبعهم.

و عن عامر الشعبي و عطاء و مجاهد **﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾** قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. رواه ابن جرير، وكذا روى ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدي: أنها على الترتيب. وقال عطاء وعكرمة مجاهد في رواية الضحاك وإبراهيم النخعي: هي على الخيار وهي رواية عن ابن عباس، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

و قوله: **﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾** أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله، الذي ارتكب فيه المخالفة **﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾** أي: في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام، واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية، ثم قال: **﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾** أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام، وبلوغ الحكم الشرعي إليه **﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾** قال ابن جريج: قلت لعطاء ما **﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾**؟ قال عما كان في الجاهلية، قال قلت: وما **﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾** قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة، قال قلت: فهل في العود من حدّ تعلمه؟ قال: لا، قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنبٌ أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدى. ورواه ابن جرير.

وقيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء، ثم الجمهور من السلف والخلف: على أنه متى قتل المحرم الصيد، وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، وهو محرم، يُحكم عليه فيه كلما قتله، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل. وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وإبراهيم النخعي. رواه ابن جرير، ثم اختار القول الأول. وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري: أن رجلاً أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله: **﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾**.

وقال ابن جرير في قوله: **﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾** يقول عزّ ذكره: والله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأنّ الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة، وقوله: **﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾** يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦) جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأنّ الله بكلّ شيءٍ عليمٌ (٩٧) اعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفورٌ رحيمٌ (٩٨) ما على الرسول إلاّ البلاغُ والله يعلم ما

تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

٩٦- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في رواية عنه ، و سعيد بن المسيب و سعيد بن جبير و غيرهم ، في قوله تعالى : ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني : ما يصطاد منه طرياً ﴿وَوَطَعَامُهُ﴾ ما يتزود منه مليحاً يابساً ، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَوَطَعَامُهُ﴾ ما لفظه ميتاً ، و كذا روي عن أبي بكر الصديق و زيد بن ثابت و عبد الله بن عمرو و أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم و عكرمة و أبي سلمة بن عبد الرحمن و إبراهيم النخعي و الحسن البصري .

و هكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه . و قوله : ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي : منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَوَطَعَامُهُ﴾ و هم جمع سَيَّارٍ ، قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر و السفر . و قال غيره : الطري منه لمن يصطاد من حضرة البحر ، و طعامه ما مات فيه ، أو اصطيده منه و مَلْحٌ و قُدْدٌ ، يكون زاداً للمسافرين ، و النائين عن البحر . و قد روى نحوه عن ابن عباس و مجاهد و السدي و غيرهم .

و قد استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة و بما رواه الإمام مالك : عن جابر بن عبد الله قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل ، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح و هم ثلثمائة و أنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر ، قال : فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر ، فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوتٌ مثل الطَّزْبِ فأكل منه ذلك الجيش ثمانين ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر برحلة فرحلت و مرت تحتها فلم تصبهما . و هذا الحديث مخرج في الصحيحين .

و عن أبي هريرة قال : سألت رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأ به عطشنا ، أفترضاً بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ : «هو الطهور ماؤه و الحل ميتته» . و قد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي و أحمد بن حنبل و أهل السنن الأربع ، و صححه البخاري و الترمذي و ابن خزيمة و ابن حبان و غيرهم ، و قد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه . و قد روى الشافعي عن ابن عباس : أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم .

و قد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء : إلى أنه تؤكل دواب البحر ، و لم يستثن من ذلك شيئاً ، و قد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل ما فيه . و قد استثنى بعضهم الضفادع و أباح ما سواها ، لما رواه الإمام أحمد و أبو داود النسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي : أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع .

و قال آخرون : يؤكل من صيد البحر : السمك ، و لا يؤكل الضفدع . و اختلفوا فيما سواهما ، فقيل : يؤكل سائر ذلك ، و قيل : لا يؤكل ، و قيل : ما أكل شبهه من البر ، أكل مثله في البحر ، و ما لا يؤكل شبهه لا يؤكل . و هذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، و قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يؤكل ما مات في البحر ، كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعموم قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ . و قد ورد

حديث بنحوه ذلك، عن أبي الزبير عن جابر به وهو منكر، وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، و بحديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وقد تقدم أيضاً. وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان: فالحوت و الجراد، و أما الدمان فالكبد و الطحال» و رواه أحمد و ابن ماجه و الدارقطني و البيهقي، و له شواهد، و روى موقوفاً، و الله أعلم.

و قوله: «و حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا» أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاضطهاد، ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اضطاد المحرم الصيد متعمداً أثم و غرم، أو مخطئاً غرم و حرم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، و كذا في حق غيره من المحرمين و المحليين، عند مالك و الشافعي في أحد قوليه، و به يقول عطاء و القاسم و سالم و أبو يوسف و محمد بن الحسن و غيرهم.

فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء ثان؟ فيه قولان للعلماء (أحدهما): نعم، روى عبد الزراق عن عطاء قال: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، و إليه ذهب طائفة. (و الثاني): لا جزاء عليه في أكله، نص عليه مالك ابن أنس، قال أبو عمر بن عبد البر: و على هذا مذاهب فقهاء الأمصار و جمهور العلماء، ثم وجهه أبو عمر: بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يُحد، فإنما عليه حد واحد، و قال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل.

و أما إذا صاد حلالاً صيداً فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، و لم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا؟ حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن: عمر بن الخطاب و أبي هريرة و الزبير ابن العوام، و كعب الأحبار و مجاهد و عطاء في رواية و سعيد بن جبير، و به قال الكوفيون. روى ابن جرير عن أبي هريرة: أنه سئل عن لحم صيد صاده حلالاً، أيأكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. و قال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، و منعوا من ذلك مطلقاً، لعموم هذه الآية الكريمة. و روى عبد الرزاق عن ابن عباس: أنه كره أكل الصيد للمحرم، و قال: هي مبهمة. يعني قوله: «و حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا» و روي عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال ابن عبد البر: و به قال طاوس و جابر بن زيد، و إليه ذهب الثوري و إسحاق بن راهويه في رواية، و قد روى نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير.

و قال مالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه - في رواية - و الجمهور: إن كان الحلال قد قصد المُحرم بذلك الصيد، لم يجوز للمحرم أكله، لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً و حشياً، و هو بالأبواء أو بودان، فردّه عليه فلما رأى ما في وجهه، قال: «إنا لم نرُدّه عليك إلا أنا حُرْمٌ». و هذا الحديث مخرج في الصحيحين، و له ألفاظ كثيرة، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فردّه لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاضطهاد، فإنه يجوز له الأكل منه، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار و حش و كان حلالاً لم يُحرم و كان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله، ثم سألوا رسول الله ﷺ، فقال: «هل كان منكم أحدٌ أشار إليها أو أعان في قتلها؟ قالوا: لا، قال: «فكلوا» و أكل منها رسول الله ﷺ. و هذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

وروى مالك: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم، في يوم صائف، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولا تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيتكم، إنما صيد من أجلي.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا

كافرين (١٠٢)

١٠٠- يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعني: أن القليل الحلال النافع، خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث «ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى»^(١). ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقتنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

١٠١- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور، ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ ورواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي.

وروى ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ الآية قال: فحدثنا أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالا إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» قال: ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائداً بالله، أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لم أر في الخير والشر كالיום قط، صوّرت لي الجنة والنار، حتى رأيتهما دون الحائط» أخرجاه.

وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخاري.

وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها،

(١) حديث صحيح، رواه أبو يعلى (١/ ١٠٥٣) وصححه الضياء المقدسي في المختارة.

وتركها.

وقوله تعالى: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها، حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ، تبين لكم ﴿وذلك على الله يسير﴾، ثم قال: ﴿عفا الله عنها﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك ﴿والله غفورٌ حلِيمٌ﴾. وقيل: المراد بقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضيق، وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»^(١). ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة، فسألتم عن بيانها، بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها ﴿عفا الله عنها﴾ أي: ما لم يذكره في كتابه، فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها، كما سكت عنها.

وفي الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم».

١٠٢ - ثم قال تعالى: ﴿قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم، فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بينت لهم فلم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه الاستهزاء والعناد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كل عام؟ فقال: لا، بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم. ثم قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ إلى قوله: ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ رواه ابن جرير.

وأما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ رواه ابن جرير. يعني عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا: النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً، وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ وقال تعالى: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقلوب أفعدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ (١٠٣) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون (١٠٤) ﴿

١٠٣ - روى البخاري: عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع ذرُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يُسيبونها لألهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ». والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأثني، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل، يَضْرِبُ الضَّرَابَ المَعْدُودَ، فإذا قضى ضرابه ودَعُوهُ للطواغيت، وأغفوه عن الحمل فلم يُحمل عليه شيء، وسموه الحامي. وكذا رواه مسلم والنسائي.

فعمرو وهذا هو ابن لحي بن قمعة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها، والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا هذه بحيرة. وذكر السدي وغيره قريباً من هذا. وأما السائبة: فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد، كانت علي هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم. وقال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد، ليس بينهن ذكر، سيّت فلم تُركب، ولم يجرز وبرها، ولم يحلب لبنها إلا الضيف. وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته، سيّب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته، أو عوفي من مرض، أو كثر ماله، سيّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

أما الوصيلة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً وهو ميت، اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد، استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرّمته علينا. رواه ابن أبي حاتم.

وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب **﴿وَلَا وَصِيلَةَ﴾** قال: فالوصيلة من الإبل: كانت الناقة تبكر من الأنثى، ثم تثنت بأثني فسموها: ويقولون: وضلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم. وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وأما الحام: فالفحل من الإبل، إذا ولد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم: عن مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ لِي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرِّ عَلَيْكَ»، ثُمَّ قَالَ: «تَنْتَجُ إِبِلُكَ وَافِيَةَ آذَانِهَا؟» قَالَ:

قلت: نعم، قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟»، قال: «فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه بحير وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه حرم» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل إن كل ما آتاك الله لك حلٌّ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم، وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم.

١٠٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: إذا دُعوا إلى دين الله وشرعه، وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد، من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

١٠٥- يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين، أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به. وكذا روى الوالبي عنه، وهكذا قال مقاتل بن حيان. فقله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً.

وقد روى الإمام أحمد: عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكن تقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله عز وجل أن يعذبهم بعقابهم» قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان. وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره.

وروى ابن جرير: عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفرّسته، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألوا، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجل من القوم: وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض الشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى لا أبالك أني سأمرك أن تذهب فتقتلهم، عظمهم وانهمهم،

(١) رواه أحمد (٤٧٣/٣) وأبو داود (٤٠٦٣) والنسائي (٤٨١٩)، وهو حديث صحيح.

وإن عصوك فعليكم بنفسك، فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية .
وروى عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ فقال: أكثرهم لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم .
وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضلَّ إذا اهتديت .
رواه ابن جرير . وكذا قال غير واحد من السلف .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ
آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمْنَا
الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْأُولِيَّانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدِينَا إِنَّا إِذَا لَمْنَا الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

١٠٦ - اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ، وقال آخرون: وهم الأكثرون -
فيما قاله ابن جرير - بل هو محكم، ومن ادعى نسخه فعليه البيان . فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر لقوله ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ فقيل: تقديره: شهادة
اثنين، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان، وقوله تعالى:
﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين قاله الجمهور، قال علي
ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال من المسلمين . رواه ابن أبي حاتم، ثم
قال: ورؤي عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدي و قتادة ومقاتل بن
حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك . قال ابن جرير: وقال آخرون غير ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ﴾ أي: من أهل الموصى، وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما .

وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾
قال: من غير المسلمين يعني أهل الكتاب . ثم قال: وروى عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن
سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي و قتادة وأبي مجلز
والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك . وعلى ما حكاه ابن جرير: عن
عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن المراد: من قبيلة الموصى يكون المراد ههنا ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾
أي: من غير قبيلة الموصى . وروى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله .
وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا شرطان
لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك

شريح القاضي . رواه ابن جرير . وروى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وهذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة ، فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً .

وقال ابن جرير : اختلف في قوله : **﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾** هل المراد به أن يُوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين : (أحدهما) : أن يوصي إليهما ، (والقول الثاني) : أنهما يكونان شاهدين ، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصي ثالث معهما ، اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة ، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء كما سيأتي ذكرهما آنفاً إن شاء الله وبه التوفيق ، وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين ، قال : لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد ، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص ، بشهادة خاصة ، في محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرينة الريبة ، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : **﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾** قال العوفي عن ابن عباس : يعني صلاة العصر . وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين ، وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين ، وروي عن ابن عباس يعني : صلاة أهل دينهما . وروي عن عبيدة ، وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد ، والمقصود : أن يُقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم **﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾** أي : فيحلفان بالله **﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾** أي : إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلأ ، فيحلفان حينئذ بالله **﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾** أي : بأيماننا ، قاله مقاتل بن حيان ، **﴿ثَمَنًا﴾** أي : لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة **﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾** أي : ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحايه **﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾** أضافها إلى الله تشريفاً لها ، وتعظيماً لأمرها ، **﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ﴾** أي : إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية .

١٠٧ - ثم قال تعالى : **﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾** أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا ، أو غلأ شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك **﴿فَأَخْرَانِ يَوْمَئِذٍ مَّقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾** هذه قراءة الجمهور ، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أي : متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهم ، فليقم اثنان من المورثة المستحقين للتركة ، وليكونا أولى من يرث ذلك المال **﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾** أي : لقولنا أنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة **﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾** أي : فيما قلنا فيهما من الخيانة **﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** أي : إن كنا قد كنا قد كذبنا عليهما ، وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم ، كما باب القسامة من الأحكام .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه الآية الكريمة : فروى الثرمذي عن ابن عباس قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً

من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناها من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم وفيهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، وكذا رواه أبو داود. وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين، منهم: عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسله: مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً: ما رواه أبو جعفر بن جرير: عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يُشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدا الكوفة فاتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري رضى الله عنه - فأخبراه، وقدا الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا، ولا بدلاً ولا كتماً ولا غيراً، وأنها لوصية الرجل وتركته، قال: فأمضى شهادتهما. رواه عن الشعبي: أن أبا موسى قضى به. وهذا إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري، فقوله: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضى الله عنه كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعى نسخة إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما، استحلها بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، فإن أطلع الأولياء على أن الكافرين كذباً في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَمِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن أطلع على أن الكافرين كذباً ﴿فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد فترد شهادة الكافرين، وتجاوز شهادة الأولياء. وهكذا روى العوفي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

وهكذا قرّر هذا الحكم، على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي، من تحليف الشاهدين الذميين وقد استريب بهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ إِيمَانُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أن يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس، إن ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ إِيمَانُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَ اسْمَعُوا﴾ أي: وأطيعوا ﴿وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته، ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾

١٠٩ - هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة ، عما أجيئوا به من أممهم ، الذين أرسلهم إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ و قال تعالى : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ و قول الرسل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ قال مجاهد و الحسن البصري و السدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . روى عبد الرزاق عن مجاهد ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ . رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم .

و قال أسباط عن السدي : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم . رواه ابن جرير . ثم روى عن ابن جريج قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي : ماذا عملوا بعدكم ، وماذا أحدثوا بعدكم ، قال ، قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يقولون للرب عز وجل : لا علم لنا ، إلا علم أنت أعلم به منا . رواه ابن جرير ، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ، و لا شك أنه قول حسن ، و هو من باب التآدب مع الرب جل جلاله ، أي : لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا قد أجبنا ، و عرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره ، لا علم لنا بباطنه ، و أنت العليم بكل شيء ، المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم ، فإنك ﴿ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

١١٠ - يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، مما أجراه على يديه من المعجزات البهرات ، و خوارق العادات ، فقال : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أي : في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، و جعلي إياك آية ، و دلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً ، على براءتها مما نسبته الظالمون و الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ و هو جبريل عليه السلام ، و جعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك و كبرك ، فأنطقتك في المهدي صغيراً ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، و اعترفت لي بالعبودية ، و أخبرت عن رسالتي إياك ، و دعوت إلى عبادتي ، و لهذا قال : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : تدعو إلى الله الناس في صغرك و كبرك ، و ضمن « تكلم » تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ، ليس بأمر عجيب ، و قوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي : الخط و الفهم ﴿ وَالتَّوْرَةَ ﴾ و هي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ، و قد يرد لفظ التوراة في الحديث ، و يراد به ما هو أعم من ذلك ،

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوّره وتشكّله على هيئة الطائر، بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها، بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً إذا روح، تطير بإذن الله وخلقها.

وقوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله، وقدرته وإرادته ومشيتته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك، حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم، ورفعتك إليّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم، وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتحان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي، دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب، التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ.

١١١ - وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتحان عليه ﷺ، بأن جعل لها أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثم كُلي من كل الثمرات فاسلُكي سبيلَ ربك ذللاً، الآية، وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية أي: ألهموا ذلك، فامثلوا ما ألهموا. قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك. ويحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطة فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

١١٢ - هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة، فيقال: سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة، وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه

قراءة كثيرين ، وقرأ آخرون **«هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ»** أي : هل تستطيع أن تسأل ربك **«أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ»** والمائدة هي : الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم : أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم ، يقتاتون منها ، ويتقوون بها على العبادة **«قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ»** أي : فأجابهم المسيح **«قَالَ لَهُمْ»** اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق ، إن كنتم مؤمنين .

١١٣ - **«قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا»** أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها **«وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا»** إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء **«وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا»** أي : و نزداد إيماناً بك و علماً برسالتك **«وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ»** أي : ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة و حجة على نبوتك ، و صدق ما جئت به .

١١٤ - **«قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا»** قال السدي : أي : نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً ، نعظمه نحن و من بعدنا . و قال سفيان الثوري : يعني يوماً نصلي فيه . و قال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم . و عن سلمان الفارسي : عظة لنا و لمن بعدنا . وقيل : كافية لأولنا و آخرنا **«وَآيَةٌ مِّنكَ»** أي : دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء ، و على إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك **«وَارزُقْنَا»** أي : من عندك رزقاً هنيئاً ، بلا كلفة و لا تعب **«وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»** .

١١٥ - **«قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ»** أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى ، وعاندها **«فإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ»** أي : من عالمي زمانكم ، كقوله تعالى **«وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»** و كقوله **«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»** و قد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، و من كفر من أصحاب المائدة ، و آل فرعون .

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

قال ابن عباس : كانت المائدة سمكة و أرغفة ، و قال مجاهد : هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا . و قال أبو عبد الرحمن السلمي : نزلت المائدة خبزاً و سمكاً . و قال عطية العوفي : المائدة سمك فيه طعم كل شيء . و عن سعيد بن جبير : أنزل عليها كل شيء إلا اللحم . و روى الثوري عن ميسرة قال : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام ، إلا اللحم . و عن عكرمة : كان خبز المائدة من الأرز . رواه ابن أبي حاتم .

و كل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم **«قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ»** الآية .

و قال قائلون : إنها لم تنزل ، فروى ابن جرير عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم . و روى عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم **«فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ»** قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل ، و هذه أسانيد

صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم.

ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق. وهذا القول - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم، وقد ذكر أهل التاريخ: أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هناك مرصعة باللائى وأنواع الجواهر، فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرأها الناس فتعجبوا منها كثيراً، لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: «بل باب التوبة والرحمة». ورواه ابن مردويه والحاكم.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾

١١٦ - هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ، وتقرير على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: (أحدهما) أن الكلام بلفظ الماضي (والثاني) قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿إِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وهذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي، ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ﴾ الآية: التبرئ منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط، لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر،

والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى، و تقريرهم و توبيخهم، على رءوس الأشهاد يوم القيامة.

وقوله: **﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾** هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حخته، و لقاء الله تعالى في قوله: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «فلقاه الله **﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾** إلى آخر الآية.

وقوله: **﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾** أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته و لا أردته في نفسي و لا أضمرته، و لهذا قال: **﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾**.

١١٧ - **﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾** بإبلاغه **﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾** أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، و أمرتني بإبلاغه **﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾** أي: هذا هو الذي قلت لهم، و قوله: **﴿وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾** أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم **﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**.

وروى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾** و إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا و إنه يُجاءُ برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: «أصحابي»، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح **﴿وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** إن تعدبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم، منذ فارقتهم» و رواه البخاري.

وقوله: **﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، و يتضمن التبري من النصارى، الذين كذبوا على الله و رسوله، و جعلوا لله نداً و صاحبة و ولدا. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. و هذه الآية لها شأن عظيم و نبأ عجيب، و قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددتها.

وروى الإمام أحمد: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها، ويسجد بها **﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها و تسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي عز و جل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، و هي نائلة - إن شاء الله - لمن لا يشرك بالله شيئاً».

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول عيسى **﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي» و بكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد - و ربك أعلم - فأسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - و هو

أعلم - فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾

١١٩ - يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي : ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضُوا مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : هذا الفوز الكبير، الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ و كما قال : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ وقوله : ﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه، وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد، ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه .

ترتيبها ٦	سورة الأنعام - مكة	آياتها ١٦٥
--------------	--------------------	---------------

قال العوفي و عكرمة و عطاء عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾
 (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي
 السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴿

١- يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، و حامداً لها على خلقه السموات و الأرض قراراً لعباده،
 وجعل الظلمات و النور منفعة لعباده في ليلهم و نهارهم، فجمع لفظ الظلمات و وحّد لفظ النور، لكونه
 أشرف، كقوله تعالى: ﴿عَنِ اليمين و الشمال﴾ و كما قال في آخر هذه السورة ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
 فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: و مع
 هذا كله كفّر به بعض عباده، و جعلوا له شريكاً و عدلاً، و اتخذوا له صاحبة و ولداً، تعالى الله عز و جل عن
 ذلك علواً كبيراً.

٢- و قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم، و منه خرجوا
 فانتشروا في المشارق و المغرب. و قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال سعيد بن جبیر عن ابن
 عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: الآخرة. و هكذا روي عن مجاهد
 و عكرمة و سعيد ابن جبیر و الحسن و قتادة و الضحاک و زيد بن أسلم و عطية و السدي و مقاتل بن حيان
 و غيرهم.

و قوله الحسن في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ و هو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
 عِنْدَهُ﴾ و هو ما بين أن يموت إلى أن يبعث، و يرجع إلى ما تقدم، و هو تقدير الأجل الخاص. و هو عمر كل
 إنسان، و تقدير الأجل العام: و هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها و انقضائها و زوالها، و انتقالها و المصير إلى
 الدار الآخرة. و عن ابن عباس و مجاهد ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني:
 عمر الإنسان إلى حين موته. و كأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا
 جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ الآية.

و معنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾
 و قوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ فيم أنت من ذكراها ❖ إلى ربك متنهاها و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ
 تَمْتَرُونَ﴾ قال السدي و غيره: يعني تشكّون في أمر الساعة.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه في كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال: أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: بعبده ويوحده ويقرّله بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويُسمونه الله ويدعونه رغباً ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً.

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي): أن المراد أنه: الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سرٍّ وجهر، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم، في السموات وفي الأرض، ويعلم ما تكسبون.

(وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ) أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالكم، خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم كلما أتتهم آية، أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام، فإنهم يُعرضون عنها، فلا ينظرون إليها، ولا يبالون بها.

٥- قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد شديد، على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه وليذوقن وبالها.

٦- ثم قال تعالى واعظاً لهم، ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي، ما حلّ بأشباههم ونظرانهم من القرون السالفة، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، واستعلاء في الأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد، والأعمار والجاه العريض، والسعة والجنود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي: كثرنا عليهم أمطار السماء، ونباييع الأرض، أي: استدراجاً وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها

﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب، وجعلناهم أحاديث ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فأهلكوا كماهلكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب، ومعالجة العقوبة منهم، لو لا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين و عنادهم، و مكابرتهم للحق، و مباهتتهم و منازعتهم فيه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه، و رأوا نزوله و باشروا ذلك، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ و هذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّن السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ و كقوله تعالى ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّن السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

٨- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: ليكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ و قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية.

٩- و قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل، ليتمكنهم مخاطبته و الانتفاع بالأخذ عنه، و لو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، و ليتمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة و السؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية. قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: و لخلطنا عليهم ما يخلطون. و قال الوالبي عنه: و لشبهنا عليهم.

١٠- و قوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، و وعدله و للمؤمنين به بالنصرة، و العافية الحسنة في الدنيا و الآخرة.

١١- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله وعاندوه، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا، مع ما أدخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾

١٢- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما، وأنه كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدِّقُونَ بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقها، وتحت قهره وتصرفه وتدييره، لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

١٤- ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزاق لخلقها، من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية، وقرأ بعضهم ههنا ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: لا يأكل.

وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يُطْعَمُ، وَمَنْ عَلَيْنَا فهدانا، وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وكل بلاءٍ حَسَنَ أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافئ ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»^(١).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١) حديث حسن، رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠١) وابن السني (٤٨٦) وابن حبان (٥٢١٩) والحاكم (١/٥٤٦) وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

١٥- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة .

١٦- ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ و الفوز حصول الریح و نفي الخسارة .

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا

أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴿

١٧- يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه،

ولا راد لقضائه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ و في الصحيح:

أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيت، و لا معطي لما منعت، و لا ينفع ذا الجد منك الجد» .

١٨- و لهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، و ذلت له

الجبابرة، و غنت له الوجوه، و قهر كل شيء، و دانت له الخلائق، و تواضعت لعظمة جلاله و كبريائه،

و عظمته و علوه، و قدرته على الأشياء، و استكانت و تضاءلت بين يديه، و تحت قهره و حكمه ﴿وَهُوَ

الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع أفعاله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء و محالها، فلا يعطى إلا من يستحق، و لا يمنع إلا

من يستحق .

١٩- ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

أي: هو العالم بما جثتكم به، و ما أنتم قائلون لي ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: و هو

نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ و قال الربيع بن أنس: حق على

من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، و أن يُنذر بالذي أنذر .

و قوله: ﴿أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون، أي: ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كقوله:

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

٢٠- ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب، أنهم يعرفون هذا الذي جثتهم به، كما يعرفون أبناءهم بما

عندهم من الأخبار و الأنباء، عن المرسلين المتقدمين و الأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرُوا بوجود محمد ﷺ،

و نعتة و صفته و بلده و مهاجره، و صفة أمته، و لهذا قال بعده: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل

الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر، الذي بشرت به الأنبياء، و نوهت به في قديم الزمان

و حديثه .

٢١- ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله، وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا، ولا هذا، لا الممقري ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢٤) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين (٢٥) وهم ينهون عنه وينثون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢٦) ﴿

٢٢- يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ يٰنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حججهم إلا أن قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال عطاء الخراساني عنه: أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جريج عن ابن عباس أي: قيلهم. وكذا قال الضحاك، وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتننا إياهم، اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عباس سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجد، فيجدون فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفيه نظر! فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين: آية المجادلة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ الآية، وكذا قال في حق هؤلاء:

٢٤- ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الآية.

٢٥- وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: يجيئون ليستمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله ﴿جَعَلَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صما عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ الآية. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات، والحجج البينات والبراهين، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا

إنصاف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به، إلا مأخوذ من كتب الأوائل، و منقول عنهم.

٢٦- وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ﴾ في معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان: (أحدهما): أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن ﴿وَيَنْأُونَ عَنْهُ﴾ أي: ويبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا يتتبعون، ولا يدعون أحداً يتتبع. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ، وينهون عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد، وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. (و القول الثاني): روي عن ابن عباس يقول: في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذي. وكذا قال القاسم بن مخيمرة و حبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار وغيره، أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر، رواه ابن أبي حاتم، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن قتله.

وقوله: ﴿وَيَنْأُونَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون منه ﴿وَأَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم، وهم لا يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٢٨) وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (٢٩) ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٠)﴾

٢٧- يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يُردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونون من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم، من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ انظر كيف كذبوا على أنفسهم.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية، وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس، ويبطنون

الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي: العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

٢٨- وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان، ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو رُدُّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نُهُوا عنه، من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٩- ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: لعادوا لما نُهُوا عنه، وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، لا معاد بعدها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

٣٠- ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾ أي: أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾

٣١- يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلى، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبح الفعل، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة، وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون.

٣٢- وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَأِ المرسلين (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا

فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

٣٣- يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: ﴿فَلَا تَنْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وقوله: ﴿فَيَأْتِيهِمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: لا يهتمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم.

٣٤- وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، وتعزية له، فيمن كذبه من قومه، وأمره بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعده بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم، والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من خبرهم، كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: النفق: السرب، فنذهب فيه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ﴾ أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل. وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن، إلا من قد سبق له من الله السعادة، في الذكر الأول.

٣٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد، من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني بذلك: الكفار، لأنهم موتى القلوب، فشبهم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم، والازدراء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ

إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ
يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

٣٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون: لولا نزل عليه آية من ربه، أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، و مما يتعتنون، كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا، ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

٣٨- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقال السدي: ﴿إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: خلق أمثالك. وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: مُفَصَّحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمِظَانِهَا، وَحَاصِرٌ لِحَرَكَاتِهَا وَسُكُنَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: حَشَرُهَا الْمَوْتُ. روى ابن أبي حاتم عن مجاهد والضحاك مثله. (و القول الثاني) أن حشرها بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ وروى الإمام أحمد: عن أبي ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقرب طائر جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً. وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْبَهَائِمُ وَالِدَوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ: أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقِرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تَرَابًا، فَلِذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ وقد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور.

٣٩- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم: وهو الذي لا يسمع، أبكم: وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ صُمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ

تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴿

٤٠- يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحدٌ على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سُئِلَ يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغِيرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلكم أنه لا يقدر أحدٌ على رفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه.

٤١- ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية.

٤٢- وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ يعني الفقر والضييق في العيش ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ وهي: الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.

٤٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا، وتمسكوا لدينا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: مارقت ولا خشعت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي.

٤٤- ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراجٌ منه تعالى، وإملاءٌ لهم، عياداً بالله من مكره، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، قال الوالبي عن ابن عباس: المبلس: الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر به، فلا رأي له، ومن قتر عليه، فلم ير أنه يُنظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط، إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقد روى الإمام أحمد: عن عقبه بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴿٤٦﴾ - يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ الآية. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع الشرعي، ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. وقوله: ﴿مَنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾

أي: نبينها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان، يصدفون، أي: يُعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه.

٤٧- وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بفتكم وفجأكم ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

٤٨- وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشرين عياداً بالله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به، وصلاح عمله باتباعه إياهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة لما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم، وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

٤٩- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه، وانتهاك حرماته.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾

إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ الَّذِينَ عَلَّمَهُم مِمَّنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

٥٠- يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لست أملكها، ولا أتصرف فيها ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي: ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب، إنما ذلك من علم الله عز وجل، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إلي من الله عز وجل، شرفني بذلك وأنعم علي به، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق، وهُدِّي إليه، ومن ضل عنه، فلم ينقله ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

٥١- وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب لهم، ولا شفيع فيهم من عذابه، إن أراد بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً، ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْقَابِنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سنعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة: المراد به: الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أتقبل منكم. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقول نوح ﷺ في جواب الذين ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

عن المقداد بن شريح عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم: ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه، ونسمع منه، فقالت قريش: تُدني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ رواه الحاكم وابن حبان (١).

٥٣- وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحننا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهْوَآءٍ مِّنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته، ضعفاء الناس، من الرجال والنساء، والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ﴾ الآية، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل.

والغرض: أن مشركي قريش كانوا بمن آمن من ضعفاتهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِيًّا﴾ وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْوَآءٍ مِّنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوقفهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢).

٥٤- وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقال عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجاه في الصحيحين. وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً: قوله ﷺ لمعاذ ابن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله، إذا هم فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم»، وقد رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾

(١) هو في صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨)!

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴿

٥٥- يقول تعالى و كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج و الدلائل ، على طريق الهداية و الرشاد ، و ذم المجادلة و العناد ﴿كذلك تفصل الآيات﴾ أي : التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : و لتظهر طريق المجرمين ، المخالفين للرسول ، و قرئ ﴿وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : و ليستين يا محمد ، أو يا مخاطب ، سبيل المجرمين .

٥٧- و قوله : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي : على بصيرة من شريعة الله ، التي أوحاها الله إلي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي : بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي : من العذاب ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، و إن شاء أنظركم و أجلكم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، و لهذا قال : ﴿يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي : و هو خير من فصل القضايا ، و خير الفاتحين في الحكم بين عباده .

٥٨- و قوله : ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي : لو كان ذلك إلي ، لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، و بين ما ثبت في الصحيحين : عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أحد؟ فقال : «لقد لقيت من قومك ، و كان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت و أنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ﷺ فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، و ما ردوا عليك ، و قد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال و سلم علي ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، و قد بعثني ريك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً» و هذا لفظ مسلم .

فقد عرض عليه عذابهم و استئصالهم فاستأنى بهم ، و سأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً ، فما الجمع بين هذا ، و بين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ؟ فالجواب : و الله أعلم ، أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له ، لأوقعه بهم ، و أما الحديث ، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - و هما جبلا مكة اللذان يكتفانها جنوباً و شمالاً - فلماذا استأنى بهم و سأل الرفق لهم .

٥٩- و قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن

أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» .

وفي حديث عمر : أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي ، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان ، فقال له النبي ﷺ فيما قال له : «خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية .

وقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي : يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات ، برّيتها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم ، من جهنم وإنسهم ، كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

٦٠- يقول تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقال تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِكِّ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى ، فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ، وهذه جملة معترضة ، دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه ، في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحال حركتهم ، كما قال : ﴿سِوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ و كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي : في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : في النهار ، كما قال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي : ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي : في النهار ، قاله مجاهد وقتادة والسدي ، وقال عبد الله ابن كثير : أي في المنام . والأول أظهر .

وقوله : ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي : فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : ويجزيكم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٦١- وقوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي : وهو الذي قهر كل شيء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كقوله : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحفظة يحفظون عمله ويحصونه ، كقوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الآية ، وكقوله : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وقوله :

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾ الآية، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: احتضر و حان أجله ﴿تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يُخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَفْرَطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياداً بالله من ذلك.

٦٢- وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ قال ابن جرير ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾. ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ قَالُوا: أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرِجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ وَغَضْبَانٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مِنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فَلَانٌ، فَيُقَالُ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوِّءَ قَالُوا: أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرِجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخِرُ مَنْ شَكَلَهُ أَزْوَاجٌ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مِنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فَلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحَ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السَّوِّءَ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي» هذا حديث غريب ^(١).

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وقال: ﴿وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمَّ نُفَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ الْأَلَهُ الْحَكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

٦٣- يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائهم المضطرين منهم، من ظلمات البر والبحر، أي: الحائرين الواقعين في المهامة البرية، وفي اللجج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يُفردون الدعاء له، وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ

(١) المسند (٢/ ٣٦٤-٣٦٥) وإسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

في البرِّ والبحرِ حتى إذا كُنتُمْ في الفُلِّكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعَّ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهراً و سراً ﴿لَئِنِ أَنْجَانَا﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: بعدها.

٦٤- قال الله ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

٦٥- وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أي: بعد إنجائه إياكم، كقوله في سورة سبحان ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أم أمتم أن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾. روى ابن أبي حاتم تعليقا عن الحسن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: لأمة محمد ﷺ و عفى عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار، وباللغة المستعان و عليه التكلان وبه الثقة:

قال البخاري رحمه الله تعالى في هذه الآية: يلبسكم: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقا. عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُلْدِقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون أو أيسر».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فضلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: «سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمي بالفرق، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمي بالسنة^(١) فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها» انفراد بإخراجه مسلم.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن شداد بن أوس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاريها، وأن ملك أمي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني قد أعطيت الكثرين الأبيض والأحمر، وإني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمي بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة، وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنني قد أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً» قال: وقال النبي ﷺ: «إنني لا أخاف على أمي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضع السيف في أمي لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس

(١) السنة: القحط والجذب.

في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وقد رواه ابن مردويه بنحوه، والله أعلم.
وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن في قوله: **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ﴾** الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها، أرسلت عقوبتها. وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد في قوله: **﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾** يعني الرّجم **﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾** يعني: الخسف، وهذا هو اختيار ابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾** يعني: أمراءكم **﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾** يعني: عبيدكم وسفلتكم، وحكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان وعمرو بن هانئ نحو ذلك. قال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجهٌ صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله، ويشهد له بالصحة: قوله تعالى: **﴿أَمِئْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾** أم أميتم من في السماء أن يُرسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قذفٌ وخسفٌ ومسحٌ»^(١).
وذلك المذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها، وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: **﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾** يعني: يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين. قال الوالبي عن ابن عباس: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه **﴿اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»**.

وقوله تعالى: **﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾** قال ابن عباس وغير واحد يعني: يُسلِّطَ بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله تعالى: **﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾** أي: نبينها ونوضحها ونفسرها **﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾** أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦) لكل نبياً مُستقراً وسوف تعلمون (٦٧)
وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨) وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكروا لعلهم يتقون (٦٩)

٦٦- يقول تعالى: **﴿وَكَذَّبَ بِهٖ﴾** أي: بالقرآن الذين جنتهم به والهدى والبيان **﴿قَوْمُكَ﴾** يعني: قريشاً **﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾** أي: الذي ليس وراءه حق **﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾** أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بوكيل بكم، كقوله: **﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾** أي: إنما علي البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة.

٦٧- ولهذا قال: **﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾** قال ابن عباس وغير واحد: أي: لكل نبياً حقيقة، أي: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: **﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾** وقال: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيد ولهذا قال بعده: **﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**.

(١) حديث صحيح لطرقه، رواه أحمد (١٦٣ / ٢) عن ابن عمرو، ورواه عن أبي أمامة (٢٥٩ / ٥) والترمذي (٢٣٢٣) عن عمران بن حصين وغيرهم.

٦٨ - و قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر، غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وَأَمَّا يُنْسِينَكُ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بذلك: كل فردٍ فردٍ من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يُحرفون آيات الله، ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولهذا ورد في الحديث «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وقال السدي عن أبي مالك و سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَمَّا يُنْسِينَكُ الشَّيْطَانُ﴾ قال: إن نسيتَ فذكرتَ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ الآية، أي: إنكم إذا جلستم معهم، وأقرتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برؤوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

٧٠ - يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: دَعُوهُمْ وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ، وأمهلهم قليلاً، فإنهم صاثرون إلى عذابٍ عظيم، ولهذا قال: ﴿وَذَكَرَ بِهِ﴾ أي: ذكر بهذا القرآن، وحذرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لتلا تبسَل. قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي ﴿تُبْسَلُ﴾: تُسَلِّم. وقال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح. وقال قتادة: تحبس، وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ.

وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها: الإسلام للهلاكه، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إلا أصحاب اليمين، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا﴾ أي: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ الآية، وكذا قال ههنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)

(١) الحديث صحيح بلفظ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ...» رواه ابن ماجه وغيره.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

٧١- قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا و اتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل:

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضلَّ الطريق فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإننا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. وقال قتادة: استهوته ﴿الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أضلته في الأرض، يعني استهوته سيرته، كقوله ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في قوله: ﴿لَنْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله للآلهة، و من يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثل رجل ضلَّ عن الطريق تائهاً، إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يُلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعو إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء، حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة.

وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ هم الغيلان ﴿يَدْعُونَهُ﴾ باسمه و اسم أبيه وجده فيتبعها، وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد رمته في هلكة، وربما أكلته، أو تلقى في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل، رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد، ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من ضلَّ بعد أن هدى.

وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه ولردَّ به إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِتُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نخلص له العبادة، وحده لا شريك له.

٧٢- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبر لهما ولمن فيهما، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: «كن» فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محلهاما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين، واختلف المفسرون في قوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور هنا جمع صورة، أي: يوم ينفخ فيها فتحيًا. والصحيح: أن المراد بالصور: «القرن» الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. قال ابن جرير: والصواب عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ

إسرافيل قد التقم الصُّور، و حَنَى جبهته، ينتظر متى يُؤمر فينفخ» رواه مسلم في صحيحه.
وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ما الصُّور؟ قال: «قرنٌ يُنفخُ فيه».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

٧٤- روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ يعني بأزر الصنم. وأبو إبراهيم اسمه: تارح وأمه اسمها شاني، وامراته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سرية إبراهيم (١).

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب، أن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: أزر اسم صنم. قلت: كأنه غلب عليه أزر، لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه أزر. ثم أورد على نفسه قول النسائيين أن اسمه «تارح» ثم أجاب بأنه: قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم. والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي: أتتاله لصنم تعبد من دون الله ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة و جهل، وأمركم في الجهالة والضللال بين واضح، لكل ذي عقل سليم، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إذ قال لأبيه يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لئن لَمْ تَتَّهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عسى أن لا أكون بدعاء ربِّي شقيًّا﴾، فكان إبراهيم ﷺ يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

وثبت في الصحيح: أن إبراهيم يلقى أباه أزر يوم القيامة، فيقول له أزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعدني أنك لا تخزني يوم الدين، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم:

(١) وفي سنده: شبيب بن بشر البجلي، قال أبو حاتم: لين الحديث، حديثه حديث الشيوخ. (الجرح: ٣٥٧ / ٤).

انظر ما وراءك ، فإذا هو بذيخ^(١) متلطّخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

٧٥- و قوله : **﴿وَكُلِّلِكَ نُورِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي : نُبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه و خلقه ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله : **﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** و قوله : **﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** وقال : **﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءَ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ﴾** . فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره ، حتى رأى ذلك عياناً ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته ، حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه ، و علم ما في ذلك من الحكم الباهرة ، والدلالات القاطعة ، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه : عن معاذ بن جبل في حديث المنام : «أتاني ربي في أحسن صورة فقال : يا محمد ، فيم يختصم المملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أدري يا رب ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلّى لي كل شيء وعرفت ذلك» وذكر الحديث . و قوله : **﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** قيل : الواو زائدة ، تقديره : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : **﴿وَكُلِّلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾** وقيل : هي على بابها ، أي : نرى ذلك ليكون عالماً وموقناً .

و قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾** أي : تغشاه وستره **﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾** أي : نجماً **﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾** أي : غاب ، قال محمد بن إسحاق : الأفل الزهاب .
قال : **﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول .

٧٧- **﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾** أي : طالماً **﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾** .

٧٨- **﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾** أي : هذا المنير الطالع ربي **﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾** أي : جرماً من النجم ومن القمر ، وأكثر إضاءة **﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾** أي : غابت **﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾** .

٧٩- **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي **﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** أي : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق **﴿حَنِيفًا﴾** أي : في حال كوني حنيفاً ، أي : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : **﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** .

قد اختلف المفسرون في هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله : **﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾** الآية .

والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . و بين في هذا المقام خطأهم و ضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي : القمر و عطارد

(١) الذبيح : ذكر الضباع .

والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدره بسير معين، لا تزيع عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب، حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع **﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾** أي: أنا بريء من عبادتهن ومولاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون.

٧٩- **﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** أي: إنما أعبد

خالق هذه الأشياء، ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾** إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون **﴿الآيات﴾**

وقال تعالى: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** شاكراً لأنعمه اجتناباً وهداه إلى صراطٍ مستقيم **﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين **﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**.

وقد ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله إني خلقت عبادي حنفاء». وقال الله في كتابه العزيز **﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدْتُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ الَّتِي بَرَّيْتُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾** ومعناه على أحد القولين: كقوله **﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً، لقومه فيما كانوا فيه من الشرك، لا ناظراً، قوله تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون **﴿(٨١)﴾** الذين آمنوا ولم

يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول، أنه قال: ﴿أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: تجدلونني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرتني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، وشبهكم الباطلة. وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أبايها، فإن كان لها كيدٌ فكيدوني بها ولا تنظرون، بل عاجلونني بذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا يخفى عليه خافية ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينت لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتتجزروا عن عبادتها، وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إن تقولوا إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء قال إنني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تُشْرِكُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الآية.

٨١- وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فاي الطائفتين أصوب. الذي عبَد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبَد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

٨٢- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

روى البخاري: عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: و أيننا لم يظلم نفسه؟ فنزلت ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وروى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله أيننا لم يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك».

وروى ابن أبي حاتم نحوه، ثم قال: وروى عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو بن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلمي ومجاهد وعكرمة والنخعي

والضحك وقتادة والسدي وغير واحد نحو ذلك .

٨٣- وقوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي : وجَّهنا حجته عليهم ، قال مجاهد وغيره : يعني بذلك قوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ الآية ، وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية ، فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة كما في سورة يوسف ، وكلاهما قريب في المعنى .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي : حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم ، أي : بمن يهديه ومن يضلّه ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين ، كما قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾

٨٤-٨٦- يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، بعد أن طعن في السن ، وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى : ﴿وَبَشِّرْنَا هَٰذَا بِسِحْقٍ نَّبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة ، وقال : ﴿فَبَشِّرْنَا هَٰذَا بِسِحْقٍ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به ، كما قررت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه ، وتركهم ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته ، بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وقال ههنا : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ .

وقوله : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي : من قبله هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية سالحة ، وكل منهما

له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾** وقال تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾** وقوله في هذه الآية الكريمة **﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾** أي: وهدينا من ذريته داود وسليمان الآية، وعود الضمير إلى نوح، لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى إبراهيم لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يُشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه هاران بن أزر، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليبا، كما في قوله: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** فإسماعيل عمه، دخل في آباءه تغليبا، وكما قال في قوله: **﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾** إلا إبليس **﴿فَدَخَلَ إِبْلِيسَ﴾** فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة، لأنه كان قد تشبه بهم فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار، والملائكة من التور.

وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بُنُونَا بَنُو أَبْنَانِنَا وَبَنَاتِنَا
بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال للحسن ابن علي: **﴿إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**. فسماه ابناً فدل على دخوله في الأبناء. وقال آخرون: هذا تجوز.

٨٧- وقوله: **﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾** ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: **﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**.

٨٨- ثم قال تعالى: **﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله، وهدايته إياهم **﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** تشديداً لأمر الشرك، وتغليظاً لشأنه، وتعظيم لملاسته، كقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾** الآية، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكْدٌ فَاَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾** وكقوله: **﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّآتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** وكقوله: **﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**.

٨٩- وقوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾** أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخليقة **﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾** أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه

الأشياء الثلاثة: الكتاب والحكم والنبوة، وقوله: ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي، وغير واحد ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفرَ بها من قريش وغيرهم، من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وملتئين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً آخرين، أي: المهاجرين والأنصار، وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردُّون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجمعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه وإحسانه.

٩٠- ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أولئك﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه ﴿الذين هدى الله﴾ أي: هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فبهدهم اقتده﴾ أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به. وروى البخاري عند هذه الآية عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ - إلى قوله - ﴿فبهدهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم، زاد في رواية عن مجاهد، قلت لابن عباس فقال: نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم، على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً، أي: أجره ولا أريد منكم شيئاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

٩١- يقول تعالى وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله ابن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود. والأول أصح، لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ، لأنه من البشر، كما قال: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وهو التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد

أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات، وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ أي: تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديكم، وتُحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله، ولهذا قال: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خير ما سبق، ونبا ما يأتي، ما لم تكونوا تعلمون ذلك، لا أنتم ولا آباؤكم، وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين. وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: قل الله أنزله، وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة «الله» وهذا الذي قاله هذا القائل، يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة، لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. وقوله: ﴿ثُمَّ فَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون أنهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟

٩٢- وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وقال: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

و ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر منهن «وكان النبي ﷺ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعْثَ إِلَى النَّاسِ عَامَةً». ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر، يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما فرض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣) ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم ترغمون (٩٤)﴾

٩٣- يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله،

فجعل له شركاء أو ولداء، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال عكرمة و قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يَعَارِضُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْوَحْيِ، مِمَّا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الآية. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته و غمراته و كرباته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب، كقوله: ﴿لَئِن بَسَطْتُ إِلَيْكَ يَدِي لِتَقْتُلَنِي﴾ الآية، و قوله: ﴿يَسْأَلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالْأَسْتِثْمُ بِالسُّوءِ﴾ الآية، و قال الضحاك و أبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَازَهُمْ﴾ و لهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، و لهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ و ذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب و النكال، و الأغلال و السلاسل، و الجحيم و الحميم، و غضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، و تعصي و تأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الآية، أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، و تستكبرون على اتباع آياته، و الانقياد لرسوله.

و قد وردت الأحاديث المتواترة، في كيفية احتضار المؤمن و الكافر عند الموت، و هي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ﴾.

٩٤- و قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يُقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما بدأناكم أعدناكم، و قد كنتم تُنكرون ذلك و تستبعدونه، فهذا يوم البعث، و قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: من النعم و الأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا، وراء ظهوركم، و ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، و ما سوى ذلك فذاهب و تاركة للناس».

و قوله: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تفرغ لهم و تويخ، على ما كانوا اتخذوا في الدنيا، من الأنداد و الأصنام و الأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم و معادهم، إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، و انزاح الضلال، و ضل عنهم ما كانوا يفترون، و يناديهم الربُّ جلَّ جلاله على رءوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ و قيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ و لهذا قال ههنا: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسطن في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع، أي: شملكم، و بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب، و الوصلات و الوسائل ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: ذهب عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجوى الأصنام و الأنداد، كقوله تعالى: ﴿إِذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ و قال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَأْكُرَهُ فَنتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ

مِنَ النَّارِ ﴿٩٥﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴿

٩٥- يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت منه الزروع، على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطوعها من النوى، ولهذا فسره قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، كقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

ثم قال تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تُصرفون عن الحق، وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره.

٩٦- وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي: فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضياءه وإشراقه، كقوله: ﴿يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ﴾ وَقَالَ: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وَقَالَ صَهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل

لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية، وكما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جارٍ بتقدير ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يمانع ولا يخالف، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ و﴿الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة «حم السجدة»، قال: ﴿وَزِينَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٩٧- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ، وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد بيناها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعقلون ويعرفون الحق، ويتجنبون الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨) وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

٩٨- يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اختلفوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي وقيس بن أبي حازم ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وعطاء الخراساني وغيرهم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام، قالوا: أو أكثرهم ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب، وعن ابن مسعود وطائفة عكسه، وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا، مستودع حيث يموت، وقال سعيد بن جبير: فمستقر في الأرحام، وعلى ظهر الأرض وحيث يموت، وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله، وعن ابن مسعود: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الدار الآخرة، والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه.

٩٩- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: بقدر مباركاً ورزقاً للعباد، وإحياء وغيثاً للخلائق، رحمة من الله بخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والتمر، ولهذا قال تعالى:

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل ونحوها ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع «قنو» وهي عذوق الرطب ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس «قِنْوَانٌ ذَاتِيَّةٌ» يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل، اللاصقة عذوقها بالأرض. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده، في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالزُّبُونُ وَالرَّهْمَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَهَا﴾ قال قتادة وغيره: متشابهة في الورق والشكل، قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً.

وقوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي وقاتدة وغيرهم، أي: فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى، من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأَكْلِ﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء، وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يصفون (١٠٠)

١٠٠- هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك، كقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿وَأَضَلُّنَّهُمْ وَأَلَمْنِيئُهُمْ وَأَمْرُهُمْ فُلَيْبَتِكُنْ أَذَانَ الأَنْعَامِ وَأَمْرُهُمْ فُلْيَغْيِيرُنْ خَلَقَ اللهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿اقتنحذونه وذريته أولياء من دوني﴾ الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ وكقوله: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ وأن عبدوني هذا صراط مستقيم﴾ وتقول الملائكة يوم القيامة ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره؟! كقول إبراهيم ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ والله خلقكم وما تعملون﴾ ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُنبئه به تعالى على ضلال من ضلَّ في وصفه تعالى، بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزير، ومن قال من النصارى في عيسى، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾ ومعنى ﴿حَرِّقُوا﴾ أي: اختلفوا واثتفكوا وتخرَّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَحَرِّقُوا﴾ يعني: تخرَّصوا، وقال العوفي عنه: كذبوا، وكذا قال الحسن، وقال الضحاك: وضعوا، وقال السدي: قطعوا.

قال ابن جرير: وتأويله إذا: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات، ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك. ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعظم، عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون، من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ (١٠١) ﴿

١٠١ - ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي، ومنه سُميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبيّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ

الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴿

١٠٢ - يقول تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء، ولا ولده ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عديل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب، يدبّر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار.

١٠٣ - وقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف (أحدها): لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد

والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: مَنْ زَعَمَ أَنْ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ بِهِ فَقَدْ كَذَبَ، وفي رواية: على الله، فإن الله تعالى قال: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾** رواه ابن أبي حاتم. وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه، وخالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، وعنه: أنه رآه بفؤاده مرتين، والمسئلة تُذكر في أول سورة النجم إن شاء الله، وأقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم بسنده عن إسماعيل بن عُلَيَّة في قول الله **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾** قال: هذا في الدنيا، قال: وذكر أبي عن هشام بن عبد الله أنه قال نحو ذلك.

وقال آخرون: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾** أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة! فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب فقوله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** وقال تعالى عن الكافرين **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَخْجُوتُونَ﴾** قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال، وغير واحد من الصحابة، عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه، أمين.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ماهو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر، فإنه لا يدركه حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، وهو الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من إحاطة العلم، عدم العلم، قال تعالى: **﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** وفي صحيح مسلم: **﴿لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ﴾**. ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قيل له: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾** قال: أأنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في الآية **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾**: هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

وروى ابن جرير عن عطية العوفي في قوله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم، وبصره محيط بهم، فذلك قوله: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**.

وقال آخرون في الآية: بما رواه الترمذي وابن أبي عاصم عن عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمدٌ ربه تبارك وتعالى، فقلت: أليس الله يقول: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** الآية؟ فقال لي: لا أم لك، ذلك نوره الذي هو نوره، إذا تجلَّى بنوره لا يدركه شيء. وفي رواية: لا يقوم له شيء، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين: من حديث

أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القِسطَ ويرفعه، يُرفع إليه عملُ النهار قبل الليل، وعملُ الليل قبل النهار، حجابُه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، أي: تدعثر، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص، لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنزه، فلا تدركه الأبصار، ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤية في الدار الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذي نفته الإدراك، الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يُحيط بها، وَيَعْلَمُهَا على ما هي عليه، لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد يكون عبراً بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قال: اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، والله أعلم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (١٠٤) وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴿١٠٥﴾

١٠٤ - البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كقوله: ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لما ذكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يعود وباله عليه، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: بحافظ ولا رقيب، بل إنما أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

١٠٥ - وقوله: ﴿وَكُلِّلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن، لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: درست يا محمد، من قبلك من أهل الكتاب، وقارأتهم وتعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم. وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها الآية، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ كَانَ قَدَرَ﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ كَانَ قَدَرَ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ

البشر

وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، فله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ الآية، وكقوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقال: ﴿وَنَنْزَلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْوَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مَن مَّكَانَ بَعِيدٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء، ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ نُنصِّفُ الْآيَاتِ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ قال التميمي عن ابن عباس ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرأت وتعلمت، وكذا قال مجاهد والسدي والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد. وروى عبد الرزاق عن الحسن ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ يقول: تقادمت وانمحت. وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير يقول: إن صبيانا يقرأون ههنا: ﴿دَرَسْتَ﴾ وإنما هي: ﴿دَرَسْتَ﴾ وقال شعبة حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال: هي في قراءة ابن مسعود، قال ابن جرير: ومعناه: انمحت وتقادمت، أي: أن هذا الذي تتلوه علينا، قد مررنا قديماً، وتناولت مدته. وعن قتادة أنه قرأها: ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرئت وتعلمت.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾

١٠٦- يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: اقتد به واقتب أثره، واعمل به، فإن ما أُوْحِيَ إليك من ربك، هو الحق الذي لا مربة فيه، لأنه لا إله إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ولو شاء لجمعهم على الهدى.

١٠٧- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ، كما قال تعالى: ﴿فَذَكَرْنَاكُمْ أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ

إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾

١٠٨ - يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين، عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين، وهو «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أو ثانهم «فيسبوا الله عدواً بغير علم» روى عبد الرزاق عن قتادة نحوه. ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سبَّ والديه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسبُّ الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه» أو كما قال ﷺ.

وقوله: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ» أي: وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، والمحاماة لها والانتصار، كذلك زيننا لكل أمة، أي: من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة، فيما يشاؤه ويختاره «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ» أي: معادهم ومصيرهم «فَيَسْبُتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾

١٠٩ - يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة «لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ» أي: معجزة و خارق «لِيُؤْمِنُوا بِهَا» أي: ليصدقنها «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات، تعنتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، وإن شاء ترككم.

وقال الله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ» الآية. وقوله تعالى: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» قيل المخاطب بما يشعركم: المشركون، وإليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقهم في هذه الأيمان التي تُقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة «إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» بكسر «إِنَّ» على أنها على استئناف الخبر عنهم، بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقرأ بعضهم «إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» بالتاء المثناة من فوق، وقيل المخاطب بقوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» المؤمنون، يقول: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في قوله: «إِنَّهَا» الكسر كالأول، والفتح على أنها معمول يشعركم، وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: «إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» صلة، كقوله: «مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» وقوله: «وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون، وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

١١٠ - وقوله تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدَّت عن كل أمر. وقال

مجاهد في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يُبْتَلِكُ مِثْلُ خَسِيرٍ﴾ جل وعلا، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله سبحانه: أنهم لو ردوا لم يقدرُوا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾ قال: ولوردوا إلى الدنيا، لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس والسدي: في كفرهم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس و قتادة: في ضلالهم ﴿بِعَمَاهُونَ﴾ قال الأعمش: يلعبون، وقال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره: في كفرهم يترددون.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١)

١١١ - يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم، لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، فنزلنا عليهم الملائكة، تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوها فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالِهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نُنزِّلَ لَكَ مِثْلَ مَا أَنْزَلْنَا لِرُسُلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَمْ أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ بعضهم: قبلاً بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة والمعانية، وقرأ آخرون بضمهما، قيل معناه: من المقابلة والمعانية أيضاً، كما رواه علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس، وبه قال قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد ﴿قَبِيلاً﴾: أي: أفواجاً، قبيلاً قبيلاً، أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢)

١١٢ - يقول تعالى: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء، فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَا يَقَالَ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو

عِقَابِ أَيْمٍ و قال تعالى : **﴿وَكذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾** الآية . و قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت به ، إلا عُودِي . و قوله : **﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾** بدل من **﴿عَدُوًّا﴾** أي : لهم أعداء من شياطين الإنس و الجن ، و الشياطين : كل من خرج عن نظيره بالشر ، و لا يعادى الرسل إلا الشياطين ، من هؤلاء و هؤلاء ، قبحهم الله و لعنهم . روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله : **﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾** قال : من الجن شياطين ، و من الإنس شياطين ، يُوحى بعضهم إلى بعض ، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : أتيت النبي ﷺ و هو في المسجد فجلست ، فقال : «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت : لا ، قال : «قم فصل» قال : فقامت فصليت ، ثم جلست فقال : «يا أبا ذر ، تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال : قلت : يا رسول الله و للإنس شياطين؟ فقال : «نعم» و ذكر تمام الحديث بطوله ، و كذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه و ابن جرير من طريق أخرى ، و ابن أبي حاتم عن أبي أمامة . فهذه طرق لهذا الحديث و مجموعها يفيد قوته و صحته ، و الله أعلم . و عن عكرمة في قوله : **﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾** . أما شياطين الإنس : فالشياطين التي تُضِلُّ الْإِنْسَ ، و شياطين الجن : التي تضل الجن ، يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه : أني أضللت صاحبي بكذا و كذا ، فأضل أنت صاحبك بكذا و كذا ، فيعلم بعضهم بعضاً ، فهم ابن جرير من هذا : أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة و السدي : الشياطين الجن الذين يضلون الناس ، لأن المراد منه شياطين الإنس منهم ، و لا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة ، و أما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى و هو محتمل . و قد روى ابن أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه ، و على كل حال ، فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر : إن للإنس شياطين منهم ، و شياطين كل شيء مآرده ، و لهذا جاء في صحيح مسلم : عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : «الكلبُ الأسودُ شيطانٌ» و معناه . و الله أعلم . شيطان في الكلاب .

و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت علي المختار فأكرمني و أنزلني ، حتى كاد يتعاهد مبيني بالليل ، قال فقال لي : اخرج إلى الناس فحدثهم ، قال فخرجت فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي؟ فقلت : الوحي وحيان ، قال الله تعالى **﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾** و قال تعالى : **﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾** قال : فهموا بي أن يأخذوني ، فقلت لهم : مالكم ذاك إنني مفتيكم و ضيفكم ، فتركوني . و إنما عرض عكرمة بالمختار ، و هو ابن أبي عبيد قبحه الله ، و كان يزعم أنه يأتيه الوحي ، و قد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر ، و كانت من الصالحات ، و لما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يُوحى إليه ، قال : صدق ، قال الله تعالى : **﴿وَإِنَّ الشَّاطِئِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾** .

و قوله تعالى : **﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾** أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، و هو : المزوَّق ، الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾** أي : و ذلك كله بقدر الله و قضائه ، و إرادته و مشيئته ، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء **﴿فَلَدَرَهُمْ﴾** أي : فدعهم **﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾** أي : يكذبون ، أي دع أذاهم ، و توكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك و ناصرك عليهم .

١١٣ - و قوله تعالى : **﴿وَلِتَصْنَعِيَ إِلَيْهِ﴾** و لتسميل إليه . قاله ابن عباس : **﴿أَفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أي : قلوبهم و عقولهم و أسماعهم . و قال السدي : قلوب الكافرين **﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾** أي : يحبوه ويريدوه ، و إنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى **﴿فإنكم و ما تعبّدون﴾** ما أنتم عليه

بِفَاتِنِينَ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿يُوقَفُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ .
وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون. وقال السدي وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿وَلَتَصْغِي إِلَيْهِ أَفئدة الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفْغِيرَ اللَّهِ أَبْتغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾

١١٤- يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره ﴿أَفْغِيرَ اللَّهِ أَبْتغِي حَكْمًا﴾ أي: بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيناً ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بما عندهم من البشارات بك، من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ كقوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل» (١).

١١٥- وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقاً فيما قال، وعدلاً فيما حكم: يقول صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبره به فحق، لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهاه إلا عن مفسده، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إلى آخر الآية ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾
﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾

١١٦- يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم، أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة، وحسبان باطل ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فإن الخرص: هو الحرز، ومنه خرص النخل: وهو حرز ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته.
١١٧- و ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيسره لذلك، وكلُّ ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ

(١) رواه ابن جرير (٢٠٢ / ١٥) عن قتادة مرسلًا، وانظر الدرر المنثور (٤ / ٣٨٩). ورواه عن سعيد بن جبير بلفظ: ما شك وما سأل. ونحوه عن الحسن.

عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

١١٨ - هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش، من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها.

١١٩ - ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضّحه، وقرأ بعضهم ﴿فَصَّلْ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

١٢٠ - قال مجاهد ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ معصيته في السر والعلانية. وفي رواية عنه: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادة: أي: سره وعلانيته، قليلة وكثيرة، وقال السدي: ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه الزنا مع الخليفة والصدائق والأخدان. وقال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم. والصحيح: أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه. وروى ابن أبي حاتم: عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٢١﴾

١٢١ - استدل بهذه الآية الكريمة: من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يُذكر اسم الله عليها، وإن كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولاة و عامر الشعبي ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح من متأخري الشافعية.

واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح

لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك» وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه» وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه» رواه مسلم. وعن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سمُّوا عليه أنتم وكلوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر، رواه البخاري. ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا أن لا تكون وُجدت من أولئك لحدائث إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لم تكن وُجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم. وحمل الشافعي الآية الكريمة «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: «أَوْ فَسْقًا لِّأَهْلِ الْغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» وقال ابن جريج عن عطاء «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس. وهذا المسلك الذي طرقة الإمام الشافعي قوي. وروى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله، فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله». واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية، يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه، أم لا؟ فقال: «سمُّوا أنتم وكلوا» قالوا: فلو كان وجود التسمية شرطاً، لم يُرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحق بن راهويه، وهو محكي عن علي و ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء و طاوس والحسن البصري وأبي مالك و عبد الرحمن بن أبي ليلى و جعفر بن محمد و ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: مَنْ حَرَّمَ ذَبِيحَةَ النَّاسِي، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ جَمِيعِ الْحُجَّةِ، وَخَالَفَ الْخَبْرَ الثَّابِتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ. يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يُسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكل» وهذا الحديث رفعه خطأ، (والموقوف) أصح، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ. ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما: كرها متروك التسمية نسياناً. والسلف يُطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، والله أعلم، إلا أن من قاعدة ابن جرير، أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين، مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليعلم هذا، والله الموفق.

واحتج لهذا المذهب، بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه: عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر

وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو: عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَن أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسِيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا إِلَيْهِ» وفيه نظر، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم يُنسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عنيت به، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم، وروي عن الحسن البصري وعكرمة قالا: قال الله: «فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُتُمُ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ» وقال: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» فنسخ واستثنى من ذلك، فقال: «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ». وروي ابن أبي حاتم: عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» ثم نسخها الرب، ورحم المسلمين، فقال: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ» فنسخها بذلك، وأحل طعام أهل الكتاب، ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه.

وهذا الذي قاله صحيح، ومن أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» روى ابن أبي حاتم: عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه! قال: صدق، وتلا هذه الآية «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ». وقوله: «لِيُجَادِلُوكُمْ» روى أبو داود: عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» الآية، وكذا رواه ابن جرير، ورواه البزار، وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: (أحدها): أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. (الثاني): أن الآية من الأنعام، وهي مكية (الثالث): أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ: أتى ناس النبي ﷺ فذكره. وقال: حسن غريب^(١). وروي (أبو داود) وابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية، واليهود لا يحبون الميتة. وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضات الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ إِنْ كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ» وهذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف.

وقوله تعالى: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ» أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه، إلى قول غيره، فقدّمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: «اتَّخِذُوا أٰخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ» الآية. وقد روى الترمذي في تفسيرها: عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال: «بلى، إنهم أحلّوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

(١) وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٤٥): صحيح، لكن ذكر اليهود فيه منكر، والمحفوظ: المشركين.

١٢٢ - هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن، الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياء الله، أي: أحياء قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به، والنور: هو القرآن. كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه.

وفي مسند الإمام أحمد: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ». كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٤﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات، ما تقدم في أول السورة ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾.

وزعم بعضهم: أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياءه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: حسناً لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدراً من الله، وحكمة بالغة، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسلُ الله اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ سيصيبُ الذين أجرموا صغاراً عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٢٣ - يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، وكذلك كانت الرسل من قبلك يُبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الآية، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعة فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قديراً، كما قال ههنا ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا﴾: عظماءها. قلت: وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن

نذيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿١٢٣﴾ والمراد بالمكر ههنا: دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كِبَارًا﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم: عن سفيان قال: كل مكر في القرآن، فهو عمل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك، وإضلالهم من أضلوهم، إلا على أنفسهم، كما قال تعالى ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتِّقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا جَاءَنَّهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان، و حجة قاطعة، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ الآية، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ الآية، يعنون: لولا نزل هذا القرآن، على رجل عظيم كبير، جليل مجبل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أي: من مكة والطائف، وذلك أنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان، حين سأله «هرقل» ملك الروم: وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا - الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بظاهر صفاته ﷺ، على صدق نبوته، وصحة ما جاء به.

وروى الإمام أحمد: عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشَ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَنْفَرِدَ يَأْخُرَاجَهُ مُسْلِمًا مِنْ حَدِيثِ الْأَوْزَاعِيِّ، وَهُوَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو إِمَامُ أَهْلِ الشَّامِ بِهِ نَحْوَهُ.

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ، قُرْنَا فِقْرْنَا، حَتَّىٰ بُعِثْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ

خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً، فهو عند الله سيء. وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: **«اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»**.

وقوله تعالى: **«سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ»** الآية، هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله، والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صَغَارٌ، وهو: الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا، أعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة، لَمَّا استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: **«إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»** أي: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله تعالى: **«وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ»** لَمَّا كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء وفاقاً **«وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا»** كما قال تعالى: **«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»** أي: تظهر المستورات والمكنونات والضمائر.

وجاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** فيقال: هذه غُدْرَةُ فلان بن فلان. والحكمة في هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾

١٢٥ - يقول تعالى: فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، أي: ييسره له وينشطه، ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: **«أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ»** الآية، وقال تعالى **«وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ»** وقال ابن عباس **«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»**: يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذا قال أبو مالك وغير واحد، وهو ظاهر.

وقوله تعالى: **«وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا»** قرئ: بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثر **«ضَيِّقًا»** بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان كهين وهين، وقرأ بعضهم **«حَرَجًا»** بفتح الحاء وكسر الراء، قيل بمعنى: أثم، قاله السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى **«حَرَجًا»** بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه. وقد سأل عمر بن الخطاب **«رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج، عن الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية، ولا وحشية ولا شيء»**، فقال عمر **«فقال: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير»**. وقال مجاهد والسدي: **«ضَيِّقًا حَرَجًا»**: شاكاً. وقال ابن المبارك عن ابن جريج: ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه وقال السدي:

من ضيق صدره .

و عن عكرمة عن ابن عباس **﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾** يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه. وقال الأوزاعي: **﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾** كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً، أن يكون مسلماً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان و ضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال في قوله: **﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلط الله الشيطان عليه، وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدره عن سبيل الله. وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: **﴿الرَّجْسُ﴾** الشيطان. وقال مجاهد: **﴿الرَّجْسُ﴾** كل ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿الرَّجْسُ﴾** العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾

١٢٦- لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: **﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾** منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد، بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراط الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم» رواه أحمد والترمذي بطوله. **﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾** أي: وضحناها وبيناها وفسرناها **﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾** أي: لمن له فهم ووعي، يعقل عن الله ورسوله.

١٢٧- **﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾** وهي الجنة **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** أي: يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتضي أثر الأنبياء و طرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج، أفضوا إلى دار السلام **﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾** أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم **﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم، وأثابهم الجنة بمه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾

١٢٨- يقول تعالى: واذكريا محمد فيما تقصه عليهم وتذريهم به **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾** يعني: الجن وأولياءهم من الإنس، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويؤحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾** أي: ثم يقول: يا معشر الجن، و سياق

الكلام يدل على المحذوف، ومعنى قوله: ﴿قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ من إغوائهم وإضلالهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني: أضللتهم منهم كثيراً. وكذا قال مجاهد والحسن و قتادة. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس، قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. روى ابن أبي حاتم عن الحسن في هذه الآية، قال: استكثرتهم أهل النار يوم القيامة، فقال: أليائهم من الإنس ربنا استمتع بعضهم ببعض، قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس. وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة، وأما استمتاع الجن بالإنس: فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس، من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون قد سُدْنَا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ قال السدي: يعني الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أي: ماواكم و منزلكم، أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كثر فيها مكثاً مخلداً، إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ، وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، وقيل غير ذلك من الأقوال، التي سيأتي تقريرها عند قوله تعالى في سورة هود ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)

١٢٩- قال قتادة في تفسيرها: إنما يؤلّي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن، أين كان و حيث كان، والكافر ولي الكافر، أينما كان و حيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. واختاره ابن جرير، وقال قتادة في تفسير الآية: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في النار، يتبع بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمي الجن و ظالمي الإنس، وقرأ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ عَشْرَ ذَنْبٍ يَخُذْهُ الرَّحْمَنُ نُقْبَضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قال: ونُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الْجِنِّ عَلَى ظَلَمَةِ الْإِنْسِ.

و معنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس، تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نعمل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، و ننتقم من بعضهم ببعض، جزاءً على ظلمهم و بغيهم.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

١٣٠ - وهذا أيضاً: مما يُقرَع الله به كافر الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر! لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِجَانِ ﴿١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان، إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، وهذا واضح ولله الحمد، وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير.

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: أن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد جاء في الحديث: الذي رواه الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: ﴿سَتَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا، وزينتها وشهواتها ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي: يوم القيامة ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

١٣١ - يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي: إنما أعذرنا إلى

الثقلين بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لئلا يؤخذ أحداً بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ والآيات في هذا كثيرة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين: (أحدهما): ذلك من أجل ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أهلها بالشرك ونحوه ﴿وَهُمْ غَافِلُونَ﴾ يقول: أن لم يكن يعالجهم بالعقوبة، حتى يبعث إليهم رسولا ينبههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤخذهم غفلة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. (و الوجه الثاني): لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه، والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجع الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم.

قال: وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته، مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، ويشبهه بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. (قلت): ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: من كافرين الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي: وكل ذلك من عملهم يا محمد، بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه، ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾

١٣٣- يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الغني﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذو الرحمة﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفت أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى، وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ وروى محمد بن إسحاق عن أبان بن عثمان قال في هذه الآية: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الذرية: الأصل، والذرية: النسل.

١٣٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون

به، من أمر المعاد، كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ولا تعجزون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

١٣٥- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم، إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أتكون لي، أو لكم.

وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، فإنه تعالى مكّنه في البلاد، وحكّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته، في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَأَنَّا لَنَنْصُرَنَّ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿١٣٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وقال تعالى إخباراً عن رسوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُدْخِلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية، وله الحمد والمنة، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

١٣٦- هذا ذمٌ وتوبيخ من الله، للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبرا ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزرع والثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءاً وقسماً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً، وللوثن منه جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمِّي للصِّمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير، ولم يردّوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمِّي للوثن، تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام،

فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهِ مِنْ ذَرَأٍ مِنَ الْحَرْثِ
وَالْأَنْعَامِ نَصِيْبًا﴾ الآية. وهكذا قال مجاهد و قتادة و السدي و غير واحد.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً
حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، و ما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، و قرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطأوا أولاً القسم، لأن الله تعالى هو رب كل شيء و مليكه
وخالقه، و له الملك، و كل شيء له، و في تصرفه و تحت قدرته و مشيئته، لا إله غيره و لا رب سواه، ثم لما
قسموا - فيما زعموا - القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل و علا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾، و قال
تعالى: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَ لَهُ الْأَثَى﴾ و قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٧)

١٣٧ - يقول تعالى: و كما زينت الشياطين لهؤلاء، أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث و الأنعام نصيباً،
كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، و أاد البنات خشية العار، قال علي بن أبي طلحة عن ابن
عباس: زينوا لهم قتل أولادهم. و قال مجاهد: شركاؤهم: شياطينهم، يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خشية
العيلة. و قال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات، و أما ليردوهم فيهلكوهم، و أما ليلبسوا عليهم
دينهم، أي: فيخلطون عليهم دينهم و نحو ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قتادة: و هذا كقوله
تعالى: ﴿وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ﴾ يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ بِهِ الآية،
و كقوله: ﴿وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ و قد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، و هو الفقر،
أو خشية الإملاق، أن يحصل لهم في تلف المال، و قد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك و إنما كانوا هذا كله من
تزيين الشياطين و شرعهم ذلك، قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: كان هذا واقع بمشيئته تعالى
و إرادته و اختباره لذلك كونا، و له الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل و هم يستلون ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم و اجتنبهم و ما هم فيه، فسيحكم الله بينك و بينهم.

﴿وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرَتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مِنْ نَشَاءِ بَزْعِمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا
يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨)

١٣٨ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الحجر الحرام، حرما من الوصيلة و تحريم ما حرما،
و كذلك قال مجاهد و الضحاك و السدي و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهما. و قال قتادة
﴿وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرَتْ حِجْرٌ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم؛ و قال السدي: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مِنْ نَشَاءِ بَزْعِمِهِمْ﴾
يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا، و هذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ و كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا
سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَامٍ وَ لَكِنَّ الدِّينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقال السدي: أما الأنعام التي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فهي: البخيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها، لا إذا ولدوها، ولا إن نحروها. وعن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل: أتدري ما في قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا، قال: هي البخيرة، كانوا لا يحجون عليها، وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها، ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئاً ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي: على الله، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه، فإنه لم يأذن لهم في ذلك، ولا رضيهم منهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: عليه، ويسندون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩)

١٣٩ - عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس وقالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية، قال: اللين. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فهو اللين، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكراهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك. وكذا قال السدي، وقال الشعبي: البخيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد: هي السائبة والبخيرة.

وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قول الله ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ﴾ أي: قولهم الكذب في ذلك، يعني كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ متاع الآية، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم عليها أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

١٤٠ - يقول تعالى: قد خسروا الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة: فيصيرون إلى أسوأ المنازل، بكذبهم على الله وافتراءهم، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وهكذا رواه البخاري منفرداً، في كتاب مناقب قريش من صحيحه.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ﴾

١٤١ - يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام، التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة، وقسموها وجزؤوها، فجعلوها منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: معروشات مسموكات، وفي رواية: فالمعروشات: ما عرش الناس، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات، وقال ابن جريج: متشابهاً وغير متشابه، قال: متشابهاً في المنظر، وغير متشابه في المطعم، وقال محمد بن كعب ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قال: من رطبه وعنبه.

وقوله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم هي الزكاة المفروضة، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم يكال ويعلم كيله، وكذا قال سعيد بن المسيب، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يخرج مما حصد شيئاً، فقال الله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد، وما يلقط الناس من سنبله، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه: عن جابر بن عبد الله: «أن النبي ﷺ أمر من كل جناد عشرة أوسق من التمر، بقتن يعلق في المسجد للمساكين»^(١)، وهذا إسناد جيد قوي، وقال طاوس وأبو الشعثاء وقاتادة والحسن والضحاك وابن جريج: هي الزكاة.

وقال الحسن البصري هي: الصدقة من الحب والثمار، وكذا قال ابن زيد بن أسلم. وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة. روى عبد الله بن المبارك وغيره عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال: يُعْطَى مَنْ حَضَرَهُ يَوْمَئِذٍ مَا تيسر، وليس بالزكاة. وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين، طرحت لهم منه. وروى عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال: عند الزرع يُعْطَى القبضة وعند الصرام يعطي القبضة، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام، وروى الثوري عن إبراهيم النخعي قال: يعطي مثل الضغث.

وقال آخرون: هذا شيء كان واجباً، ثم نسخه الله بالعشر، أو نصف العشر. حكاه ابن جرير: عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي والحسن والسدي وعطية العوفي وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمه الله، قلت: وفي تسمية هذا نسخاً نظراً! لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته، قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن» ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ وَلَا يَسْتُونَ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿

(١) - (جاء عشرة أوسق) قال الحربي: يريد قدرًا من النخل يجذ منه عشرة أوسق، وتقديره: مجذوذ. وأراد بالقنو: العذق بما عليه من الرطب والبسر، يعلق للمساكين يأكلونه، وهذا من صدقة المعروف، دون الصدقة التي هي فرض واجب (خطابي).

أي: كالليل المدلهم، سوداء محترقة ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ﴾ **﴿أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ **﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِنٌ﴾** **﴿وَأَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾** أي: قوة و جلد و همّة ﴿قَادِرِينَ﴾ **﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾** **﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾** **﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾** **﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** **﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾** **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾** **﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾** **﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** قيل معناه: لا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله **﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾** وقال ابن جريج عن عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال السدي: لا تعطوا أموالكم، فتقعدها فقراء. وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب في قوله: **﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾** قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم، ثم اختار ابن جرير قول عطاء، أنه نهى عن الإسراف في كل شيء، ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا﴾** أن يكون عائداً على الأكل، أي: لا تسرفوا في الأكل، لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى: **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾** الآية، وفي صحيح البخاري تعليقا: **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا﴾**، من غير إسراف ولا مَخِيلَة، وهذا من هذا، والله أعلم.

١٤٢ - وقوله عز وجل: **﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾** أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة، وما هو فرش. قيل: المراد بالحمولة: ما يُحْمَل عليه من الإبل، والفرش: الصغار منها، كما روى الثوري عن عبد الله. ورواه الحاكم، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وكذا قال ابن عباس ومجاهد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾** أما الحمولة: فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش: فالغنم، واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سُمِّيَ فرشاً لبدنوه من الأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها، وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً. وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن، يشهد له قوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾** **﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾** إلى أن قال: **﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَانًا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾** وقال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ لِتُرَكَّبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾** **﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾** أي: من الثمار والزرع والأنعام، فكلها خلقها الله، وجعلها رزقاً لكم **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾** أي: طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أي من الثمار والزرع افتراء على الله **﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾** أي: إن الشيطان أيها الناس لكم **﴿عدو مبين﴾** أي: مبين ظاهر العداوة، كما قال: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ**

السعير»، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَفْتَتَخِدُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُؤُنِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

١٤٣- هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعاً، بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزرور والثمار، فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم، وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك، ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً وركوباً، وحمولة وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿وَآتَزَلْ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ رد عليهم في قولهم ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿نَبُؤُنِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بن لحي بن قمعة، لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سب السنائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)﴾

١٤٥- يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله، افتراء على الله ﴿لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: أكل يأكله، قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة، وفي الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية، ومن الناس من يسمي هذا: نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً، لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله

أعلم.

وقال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية، لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود، وعن عمران بن حدير قال: سألت أبا مجلز عن الدم وما يتلطح من الذبيح من الرأس، وعن القدر يرى فيها الحمرة؟ فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح. وقال قتادة: حرّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به.

وروى الحميدي، عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله ﷺ ولكن أبي ذلك البحر يعني ابن عباس وقرأ ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، وكذا رواه البخاري.

وروى أبو بكر بن مردويه والحاكم: عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، ويتركون أشياء تقدراً، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرّم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وقرأ هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة، تعنى: الشاة، قال: «فلم لا أخذتم مسكها؟» قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ﴾ وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه فتنتفعوا به» فأرسلت فسكخت مسكها فاتخذت منه قرية، حتى تخرقت عندها، رواه أحمد ورواه البخاري والنسائي.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿فَإِنْ رَبُّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم، بأرائهم الفاسدة، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم: أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه، أن ذلك محرم، وإنما حرّم ما ذكر في هذه الآية من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام؟ ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية، ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤٦)

١٤٦ - قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرّمنا على اليهود كل ذي ظفر، وهو البهائم والطيور، مالم يكن

مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وهو البعير والنعام، وكذا قال مجاهد والسدي في رواية، وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس منفرج الأصابع، وفي رواية عنه: كل مفترق الأصابع، ومنه الديك. وقال قتادة: وكان يقال البعير والنعام، وأشياء من الطير والحيتان، وفي رواية: البعير والنعام، وحرّم عليهم من الطير: البط وشبهه، وكل ليس بمشقوق الأصابع.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قال السدي: يعني الثرب وشحم الكليتين، وكانت اليهود تقول: إنه حرّمه إسرائيل، فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد، وقال قتادة: الثرب، وكل شحم كان كذلك ليس في عظم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم، وقال السدي وأبو صالح: الآية مما حملت ظهورهما. وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: الحوايا جمع واحدا حوايا وحوية، وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي المباعر، وتسمى المرابض وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، وما حملت الحوايا. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ وهي المباعر. وقال مجاهد: الحوايا المبعر والمربض، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وقاتة وأبو مالك والسدي، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد، الحوايا: المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تدعى المرابض.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحلناه لهم، وقال ابن جريج: شحم الألية ما اختلط بالعُصْعُصُ، فهو حلال، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين، وما اختلط بعظم فهو حلال. ونحوه قال السدي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم، وأزمناهم به، مجازاة على بغْيِهِمْ، ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبَطَلْنَا مِنْ الدِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْتِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جزيناكم به، وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد، من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرّمه على نفسه، والله أعلم.

وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمرا، فقال: قاتل الله. سمرة، ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لعن الله اليهود، حرّمت عليهم الشحوم، فجملوها فباعوها» أخرجاه.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول - عام الفتح - : «إن الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقليل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها يُدهن بها الجلود، وتطلى بها السفن، ويستصبح بها الناس، فقال: «لا، هو حرام» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرّم عليهم شحومها جمّلوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه» رواه الجماعة.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر

إلى السماء فضحك، فقال: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا، وَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكَلَ شَيْءٍ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ» ورواه أبو داود.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾

١٤٧- يقول تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ مَخَالِفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَالْيَهُودَ وَمَنْ شَابَهُمْ، فَقُلْ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُعِيدُ﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾

١٤٨- هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم، وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه، من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الآية، وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتظهِروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وقال ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، فقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا

محمد ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة، في هداية من هدى، وإضلال من ضل ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته، ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين، ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين. قال الضحاك: لاجحة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَسْأَلُكُمْ أَيُّ شَهِدَاءِكُمْ﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرمتموه، وكذبتهم وافتريتم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه، كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

١٥١ - قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وأما تفسيرها: فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بأرائهم، وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقص عليكم، وأخبركم بما حرّم ربكم عليكم حقاً، لا تخرساً ولا ظناً، بل وحيًا منه، وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم.

وفي الصحيحين: من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتاني جبريل فبشّرني: أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمته، دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: «وإن زنى وإن سرق» فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «وإن زنى وإن سرق».

وفي بعض المسانيد والسنن: عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة، أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك». ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وفي صحيح مسلم: عن ابن مسعود «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ». والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قُطِّعتم أو صُلِّبتم أو حُرِّقتم» ورواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ وقرأ بعضهم «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً» أي: أحسنوا إليهم، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فأمَرَ بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصلوة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزداني.

وروى ابن مردويه بسنده: عن أبي الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم «أطع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل» ولكن في إسنادهما ضعف^(١) والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نُرْزِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم، كما سوت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وقد خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيره: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، لهذا قال هناك: ﴿نَحْنُ نُرْزِقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿نَحْنُ نُرْزِقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

(١) وقد قواه الشيخ الألباني رحمه الله في «الترغيب» بشواهد (٥٦٧-٥٦٨).

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال سعد بن عباد: لو رأيتُ مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفَح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟! فوالله، لأنا أغيرُ من سعد، واللهُ أغيرُ مني، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»، أخرجاه.

وروى الترمذي: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، النفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وفي لفظ لمسلم «والذي لا إله غيره، لا يحل دم رجل مسلم».

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال - وهو محصور - : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس» فوالله ما زنتُ في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إهدائي الله، ولا قتلتُ نفساً، فبم تقتلونني؟! رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد، وهو: المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ مرفوعاً: «من قتلَ معاهداً، له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفرَ بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً» رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا مما وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)

١٥٢ - عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، فانطلق من كان عنده يتيماً، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بغيرهم، وشرابهم بغيرهم. رواه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما

توعد على تركه في قوله تعالى: **﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وُزِنُوا يَخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾** وقد أهلك الله أمة من الأمم، كانوا يبخسون المكيال والميزان. وفي الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم ولئيم أمراً، هلكت في الأمم السابقة قبلكم» ثم قال لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين وهو ضعيف في الحديث. وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه، وبذل جهده، فلا حرج عليه.

وقوله: **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾** كقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾** الآية، وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال، وقوله: **﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾** قال ابن جرير: يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك بأن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعلموا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله **﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأكد عليكم فيه **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** أي: تتعظون وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد الذال، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣)

١٥٣ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** وفي قوله: **﴿أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، أخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد. وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُلُ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** وكذا رواه النسائي والحاكم، وروى موقوفاً عليه: فروى ابن جرير أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مَرَبِّهم، فمن أخذ في تلك الجواد، انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط، انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** الآية.

وقد روي من حديث النواس بن سميان نحوه، فروى الإمام أحمد: عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتح، فإنك إن

تَفْتَحُهُ تَلْجَهُ، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم، ورواه الترمذي والنسائي.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ إنما وَحَدَّ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، ولهذا جمع السبل لتفرقتها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بَلِّغُوا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحموا (١٥٥) ﴿

١٥٤- قال ابن جرير ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل يا محمد مخبراً عننا بأنا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ قلت: وفي هذا نظر، و«ثم» ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا.

وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله أول هذه السورة ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ الآية، وبعدها ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية، وقال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِيَتْهُ بِمِثْلِ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال تعالى: ﴿أولم يكفروا بما أوتيت موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرين﴾ وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتينا الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً، جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله: ﴿وَكُتِّبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ وكقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وقال الربيع بن أنس: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا، تَمَّ لَهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ. واختار ابن جرير أن تقديره ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه، فكأنه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَوَخَّضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: كخوضهم.

وقال آخرون: «الذي» ههنا بمعنى «الذين» قال ابن جرير: وذكر عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأها: «تماماً على الذي أحسنوا»، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة، وقال البغوي: المحسنون الأنبياء والمؤمنون، يعني أظهرنا فضله عليهم. قلت: كقوله تعالى: ﴿قَالَ

يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴿١٥٦﴾ ، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء، والخليل عليهما السلام، لأدلة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحموا ﴿فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يُرَغَّبُ سبحانه عباده في كتابه، ويأمرهم بتدبره، والعمل به، والدعوة إليه، ووصفه بالبركة لمن اتبعه، وعمل به في الدنيا والآخرة، لأنه حَبْلُ الله المتين.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

١٥٦ - قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاث طائفتين من قبيلنا ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني: لينقطع عذركم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم اليهود والنصارى، وكذا قال مجاهد والسدي وقاتدة وغير واحد. وقوله: ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه. وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا: لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم، لكننا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَعْمَى﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه، ويقتفون ما فيه. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، أي: صرّف الناس وصدّهم عن ذلك، قاله السدي، وعن ابن عباس ومجاهد وقاتدة ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض عنها، وقول السدي ههنا فيه قوة، لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقاتدة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ ولكن كذب وتولى، وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر - والله أعلم - لأن الله قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

١٥٨ - يقول تعالى متوعداً للكافرين به ، و المخالفين لرسوله ، و المكذبين آياته ، و الصادقين عن سبيله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ ﴾ و ذلك كائن يوم القيامة ﴿ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴾ و ذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة و أشراطها ، كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها » فذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

و روى أيضاً « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها » و في لفظ « فإذا طلعت و رآها الناس آمنوا أجمعون ، و ذلك حين لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ » ثم قرأ هذه الآية . و رواه مسلم .

(حديث آخر) عن أبي ذر الغفاري في الصحيحين و غيرهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت : لا أدري ! قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخرساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت » و ذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

(حديث آخر) عن حذيفة بن أسيد بن أسيد بن أبي شريحة الغفاري رضي الله عنه : روى الإمام أحمد بن حنبل : عنه قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة و نحن نتذاكر الساعة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، و الدخان ، و الدابة ، و خروج يأجوج ماجوج ، و خروج عيسى ابن مريم ، و خروج الدجال ، و ثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، و خسفٌ بالمغرب ، و خسفٌ بجزيرة العرب ، و نارٌ تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، و تقيل معهم حيث قالوا ! » و هكذا رواه مسلم و أهل السنن الأربعة .

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو : روى الإمام أحمد بن حنبل : عنه قال : جلس ثلاثة من المسلمين إلى مروان بالمدينة ، فسمعوه و هو يحدث عن الآيات ، يقول : إن أولها خروج الدجال ، قال : فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئاً ، حفظت من رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، و خروج الدابة ضحى ، فأيتها كانت قبل صاحبها ، فالأخرى على أثرها » ثم قال عبد الله : و كان يقرأ الكتب ، و أظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، و ذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش و سجدت ، و استأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع ، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل : أتت تحت العرش فسجدت و استأذنت في الرجوع ، فلم يرد عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، و عرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق ، قالت : رب ما أبعد

المشرق! مَنْ لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي، فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية. وأخرجه مسلم في صحيحه و أبو داود و ابن ماجه.

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو و عبد الرحمن بن عوف و معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين: روى الإمام أحمد عن ابن السعدي: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يُقاتل» فقال معاوية و عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، و الأخرى تُهاجر إلى الله و رسوله، و لا تنقطع ما تُقبِلت التوبة، و لا تزال التوبة تُقبل حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه، و كفي الناس العمل» هذا الحديث حسن الإسناد، و لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، و الله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ، لا يُقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، و إن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تُقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، و عليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: و لا يقبل منها كسبُ عملٍ صالح، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

و قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُتَنظِرُونَ﴾ تهديدٌ شديدٌ للكافرين، و وعيدٌ أكيد، لمن سوف يآمنه و توبته، إلى وقت لا ينفعه ذلك، و إنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لا اقتراب الساعة، و ظهور أشراطها، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾، و قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩)

١٥٩- قال مجاهد و قتادة و الضحاك و السدي: نزلت هذه الآية في اليهود و النصارى، و قال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا﴾ و ذلك أن اليهود و النصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ ففرقوا، فلما بُعث محمد ﷺ، أنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية، و قال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله: ﴿وَ كَانُوا شِيَعًا﴾ قال: هم الخوارج، و روي عنه مرفوعاً و لا يصح.

و الظاهر أن الآية عامة في كل مَنْ فارق دين الله، و كان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى و دين الحق ليُظهره على الدين كله، و شرعه واحد لا اختلاف فيه و لا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَ كَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملل و النحل، و الأهواء و الضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه، و هذه الآية كقوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية.

و في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(١) فهذا هو الصراط المستقيم، و هو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، و التمسك بشريعة الرسول المتأخر، و ما خالف ذلك

فضلالات وجهالات، وآراء وأهواء، والرسل برآء منها، كما قال الله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْنُوا وَالدِّينَ
هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالدِّينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

١٦٠- وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ

مِنْهَا﴾ وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «إِنَّ رَيْكُم عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أضعاف كثيرة. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ» ورواه البخاري ومسلم والنسائي.

وروى أحمد أيضاً: عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ عَمَلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفَرَ، وَمَنْ عَمَلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، ثُمَّ لَقِينِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرُولَةً» ورواه مسلم.

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية، ولهذا جاء: أنه يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْقَاطِطِ الصَّحِيحِ: «فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي» أي: من أجلي، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه، لأنه لم ينو خيراً، ولا فعل شراً، وتارة: يتركها عجزاً وكسلاً عنها، بعد السعي في أسبابها، والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ؟ فَمَا بِالْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وروى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: عن النبي ﷺ قال: «يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةٌ نُفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو فَهُوَ حِظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِدَعَاءٍ، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِانْصَاتٍ وَسُكُونٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رِقَبَةً مُسْلِمًا، وَلَمْ يُوْذَ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَزِيَادَةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» وذلك لأن الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» رواه الإمام أحمد وهذا لفظه، والنسائي وابن ماجه والترمذي، وزاد: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام. وقال ابن مسعود ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ من جاء بلا إله إلا الله، ومن جاء بالسَيِّئَةِ، يقول: بالشرك. وهكذا جاء عن جماعة من السلف رضي الله عنهم أجمعين.

و الأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
 (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
 وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴿

١٦١ - يقول تعالى أمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين، أن يخبر بما أنعم به عليه، من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴿وَاتَّيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفة، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام.

وقد روى ابن مردويه: عن ابن أزي عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين».

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة».

وروى أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذِقْنِي عَلَى مَنْكِبِهِ، لِأَنْظُرَ إِلَى زَفْنِ الْحَبْشَةِ حَتَّى كُنْتُ التِّي مَلَلْتُ فَانصرفت عنه. قال عروة إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لَتَعْلَمَ يَهُودُ أَنْ فِي دِينِنَا فُسْحَةٌ، إِنِّي أُرْسَلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ» أصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

١٦٣ - وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإنَّ صَلَاتِهِ لِلَّهِ وَنُسُكِهِ عَلَى اسْمِهِ وَحْدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي والضحاك.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٦٤﴾ ، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ يُوسُفُ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ، وقال موسى ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٩﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فأخبر تعالى أنه بعث رسوله بالإسلام ، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة ، التي ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تُنسخ أبداً الأبدية ، ولا تزال قائمة منصوراً ، وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة .

ولهذا قال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» . فإن أولاد العلات : هم الأخوة من أب واحد وأمها شتى ، فالدين واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والأخوة الأعيان : الأشقاء : من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ، ثم قال : «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي ، فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَاتِي لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَاتِي إِلَّا أَنْتَ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد ، وقد رواه مسلم في صحيحه .

﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤)

١٦٤ - يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، في إخلاص العبادة له ، والتوكل عليه : ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِي رَبًّا﴾ أي : أطلب رباً سواه ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّبُنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكْلُونِي ، ويدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، لأنه ربُّ كل شيء ومليكه ، وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً في القرآن ، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وقوله :

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ وأشبه ذلك من الآيات .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَازِدَةً وَلَا تَزِدُ أَخْرَى﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَأَنْ تَدْعُ مَتَلَةً إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال علماء التفسير: أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيء، إلا أصحاب اليمين، فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ألحقناهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما ألتناهم، أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً، حتى ساويناهم، وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء، ببركة أعمالهم، بفضلهم ومنتهم، ثم قال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: من شر .

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنْ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥)

١٦٥ - يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، وقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: فاوت بينكم في الأرزاق، والأخلاق والمحاسن، والمساوي والمناظر، والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، وامتحنكم به، ليختبر الغنى في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وفي صحيح مسلم: من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها

فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء، فإن أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». . .
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترهيبٌ وترغيبٌ، أن حسابه و عقابه سريع
 فيمن عصاه، و خالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه، و اتبع رسله فيما جاؤا به من خبر و طلب. و قال
 محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم.

و كثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و قوله: ﴿تَبَتُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ و أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ
 الْأَلِيمُ، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب و الترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة، و صفة
 الجنة و الترغيب فيما لديه، و تارة يدعوهم إليه بالرهبة، و ذكر النار و أنكالها و عذابها، و القيامة و أهوالها،
 و تارة بهما لينجع في كلِّ بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، و ترك ما عنه نهى و زجر، و صدقه فيما
 أخبر، إنه قريب مجيب، سميع الدعاء، جواد كريم و هاب.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من
 العقوبة، ما طمع بجنته أحدٌ، و لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط أحدٌ من الجنة، خلق الله مائة
 رحمة، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، و عند الله تسعة و تسعون» و رواه مسلم و الترمذي.

و عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن
 رحمتي تغلب غضبي». و عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك
 عنده تسعة و تسعين جزءاً، و أنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة
 حافرها عن ولدها، خشية من أن تُصيبه» رواه مسلم.

ترتيبها ٧	سورة الأعراف مكية	آياتها ٢٠٦
--------------	-------------------	---------------

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصْرَ (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

١- قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه.

٢- قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي، الذي

جاءكم بكتاب أنزل إليكم، من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما

جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا

أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية،

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾ فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ

بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)﴾

٤- يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي

الدنيا، موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وكقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِشْرٍ مُّعْتَلَّةٍ

وَقَصْرِ مُّشِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبِتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَم تَسْكُنْ مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا

قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾. وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله

وبأسه ونقمة ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين

وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

بَأْسُنَا ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وقال: ﴿أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَلَابُ

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ

رَحِيمٌ﴾.

٥- وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند

مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً - إِلَى قَوْلِهِ - حَامِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة، عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: عما بلغوا. قال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة، بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير وجليل وحقيق، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩)

٨، ٩ - يقول تعالى: ﴿وَالْوِزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحداً كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال وإن كانت أعرافاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف. ومن ذلك في الصحيح (١) قصة القرآن، وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك. وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول أنا عمك الصالح» وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتْ السُّجُلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ» رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه.

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله

(١) الحديث ليس في الصحيح! وإنما رواه ابن ماجه في سننه (٣٧٨١).

جناح بعوضة» ثم قرأ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده، لهما في الميزان أثقل من أحد». وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار، بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة تُوزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

١٠- يقول تعالى ممتناً على عبده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها زواصي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، أباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها «معايش»، أي: مكاسب وأسباباً، يكسبون بها ويتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقد قرأ الجميع: «معايش» بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرم الأعرج، فإنه همزها، والصواب الذي عليه الأكثر: بلا همز، لأن «معايش» جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، والياء أصلية في الكلمة، بخلاف مدائن وصحائف، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

١١- ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام، على شرف أبيهم آدم، وبيّن لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿١٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ بيده، من طين لازب، وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدّم الكلام على إبليس في أول سورة البقرة، وهذا الذي قرناه، هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم ﷺ.

وروى الثوري عن ابن عباس «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» قال: خلُقوا في أصلاب الرجال، وصوِّروا في أرحام النساء، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي و قتادة والضحاك في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر! لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع، لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ والمراد بالآباء آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منةً على الآباء، الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة، وذريته

مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد في خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، والله أعلم.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (١٢)

١٢ - قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: «مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» لا هنا زائدة، وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر: «ما إن رأيت ولا سمعت بمثله» فأدخل «إن» وهي للنفي على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا وكذا هنا «مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ» مع تقدم قوله: «لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» حكاهما ابن جرير وردهما، واختار أن «منعك» مضمن معنى فعل آخر، تقديره: ما أخرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو هذا. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ» من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا ألبس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة، فأخطأ - قبحه الله - في قياسه ودعواه: أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والأناة والتثبت، والطين محل النبات، والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق، والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة، والاستكانة والالتقياد، والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي صحيح مسلم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ». وروى ابن جرير: عن الحسن في قوله: «خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. وروى عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، إِلَّا بِالْمَقَائِسِ. إسناده صحيح أيضاً.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى

يَوْمٍ يُعْتَبُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

١٣ - يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني «فَاهْبِطْ مِنْهَا» أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا» و. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها، في الملكوت الأعلى «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» أي: الدليلين الحقيرين معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمزاده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين، وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال:

١٤ - «أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعْتَبُونَ» قال إنك من المنظرين» أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من

الحكمة والإرادة والمشئمة، التي لا تخالف ولا تمنع، ولا معقب لحكمه «وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

١٦- يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إلى يوم يُعْثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكني، لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم، من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه، على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق، وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك، بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي، لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: يعني: الحق، وقال عون بن عبد الله: يعني طريق مكة، قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

(قلت) لما روى الإمام أحمد: عن سيرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرْقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، قَالَ: فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ، قَالَ: وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مِثْلُ الْمُهَاجِرِينَ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ، فَعَصَاهُ وَهَاجِرٌ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَقَالَ: تَقَاتِلُ فَتَقْتُلُ فَتَنْكِحُ الْمَرْأَةَ وَيَقْسِمُ الْمَالَ، قَالَ: فَعَصَاهُ وَجَاهِدٌ» وقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غُرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ».

وقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي. وقال ابن أبي طلحة في رواية، والعوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم، فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم.

وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم، فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزيتها لهم، ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها، آتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وكذا روى عن إبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة والسدي وابن جريج، إلا أنهم قالوا: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة، وقال مجاهد: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾، من حيث يبصرون، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم. وقال عكرمة عن ابن عباس: لم يقل: من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين، و قول إبليس هذا إنما هو ظنُّ منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لِنَعْلَمَ من يؤمنُ بالآخرة ممن هو منها في شكٍ وربك على كلِّ شيءٍ حَفِيظٌ﴾ ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان، من جهاته كلها. كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدعُ هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية، في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية، في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» قال وكيع: من تحتي: الخسف. ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨)

١٨- أكد تعالى عليه اللعنة والطرده والإبعاد والنفي، عن محل الملاء الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا﴾ قال ابن جرير: أما المذعوم فهو المعيب، والذام غير مشدد العيب، يقال ذامه ذاماً فهو مذعوم، ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيماً و ذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المقصي وهو المبعد المطرود. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذعوم والمذموم إلا واحداً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صغيراً مقيتاً، وقال السدي: مقيتاً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً، وقال مجاهد: منفيماً مطروداً.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم مما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكفى بربك وكيلاً﴾.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فوسوس لهما الشيطان ليؤدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿٢٠﴾ وقاسمهما إني لكما لمن

الناصحين ﴿٢١﴾

١٩، ٢٠- يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ ولزوجته حواء الجنة، أن يأكلا منها من جميع ثمارها، إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وقال﴾ كذباً وافتراء ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَين﴾ أي: لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ أي: لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: لئلا تضلوا ﴿وَألقى في الأرض رواسي أن تُمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد

بكم، و كان ابن عباس و يحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَين﴾ بكسر اللام، و قرأه الجمهور بفتحها.
 ٢١- ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فإني من قبلكما ههنا، و أعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، و المراد أحد الطرفين. أي: حلف لهما بالله على ذلك، حتى خدعهما، و قد يُخدع المؤمن بالله. و قال قتادة في الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما، و أنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. و كان بعض أهل العلم يقول: مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ.

﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

٢٢- عن الحسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك، و كان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم، أمني تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك. و قد رواه ابن جرير و ابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً، و الموقوف أصح إسناداً.

و روى الثوري: عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ﴿و طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين. صحيح إليه. و قال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب. و قال وهب بن منبه: كان لباس آدم و حواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما. رواه ابن جرير بسند صحيح إليه. و روى عبد الرزاق: عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أريت إن تبت و استغفرت؟ قال: إذا أدخلك الجنة، و أما إبليس فلم يسأله التوبة، و سأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله. و روى ابن جرير: عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، و لا تضع إلا كرهاً، قال: فرئت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك و على ولدك.

و قال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هي: الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

٢٤- قيل المراد بالخطاب في ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم و حواء و إبليس و الحية، و منهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. و العمدة في العداوة: آدم و إبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ الآية، و حواء تبع لآدم، و الحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس، و قد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، و يرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، و الله أعلم بصحتها، و لو كان في تعيين تلك البقاع

فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسوله ﷺ.
 وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار وأعمار مضروبة، إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول. وقال ابن عباس ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور، وعنه قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فوق الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم.
 وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم و قبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلأ بعمله.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مَنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦)

٢٦- يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس: ستر العورات، وهي: السوات، والرياش والريش: ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث، وما ظهر من الثياب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وحكاة البخاري عنه: الريش المال. وهكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدي والضحاك وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ بعضهم: ولباس التقوى بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم، وقال زيد بن علي والسدي و قتادة وابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان، وقال العوفي عن ابن عباس: العمل الصالح، وعن عروة بن الزبير: خشية الله، وكلها متقاربة.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

٢٧- يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم ﷺ، في سعيه في إخراجه من الجنة، التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

٢٨- قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع
المرأة على قُبْلِهَا النَّسْعَةَ أو الشيء، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب - ما
عدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك: أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله
فيها! وكانت قريش - وهم الحُمس - يطوفون بالبيت في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه
ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف
عريانياً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستتره بعض الستر، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه
آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع! فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا
فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن ادعى
ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته؟!

٢٩- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ
مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين
المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله، وما جاءوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه
تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من
الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إلى قوله ﴿الضَّلَالَةَ﴾ اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ
تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبي نجیح عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن
البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال قتادة: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً،
ثم ذهبوا ثم يعيدهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً. واختار هذا
القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة
فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَا، كما بدأنا أول خلقٍ نُعِيدُهُ، وعداً علينا إنا كنا
فاعلين» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وعن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً. وقال أبو العالية ﴿كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جبیر: كما كُتِبَ عليكم تكونون. وفي رواية: كما

كنتم عليه تكونون . و قال محمد بن كعب القرظي : مَنْ ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه ، وإن عمل بأعمال أهل السعادة ، و من ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه ، و إن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ، ثم صاروا إلى ما ابتدؤا عليه .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً و كافراً ، كما قال : **«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَ مُؤْمِنًا»** ثم يعيدهم يوم القيامة ، كما بدأ خلقهم مؤمناً و كافراً .

(قلت) : و يتأيد هذا القول : بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري : «فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة» . و روى أبو القاسم البغوي : عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل الجنة ، و إنه من أهل النار ، و إنه ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل النار ، و هو من الجنة ، و إنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث البخاري في قصة قزمان يوم أحد . و روى ابن جرير : عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : «تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ» و هذا الحديث رواه مسلم و ابن ماجه و لفظه : «يبعث كل عبد على ما مات عليه» و عن ابن عباس مثله . **(قلت) :** و يتأيد بحديث ابن مسعود .

(قلت) : و لا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - و بين قوله تعالى : **«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»** و ما جاء في الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه» . و في صحيح مسلم : عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : «إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث . و وجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن ، و كافر في ثاني الحال ، و إن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته و توحيده ، و العلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، و جعله في غرائزهم و فطرتهم ، و مع هذا قدر أن منهم شقياً و منهم سعيداً **«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَ مُؤْمِنًا»** . و في الحديث : «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» . و قدر الله نافذ في بريته ، فإنه هو **«الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»** و **«الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»** . و في الصحيحين : «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، و أما من كان من أهل الشقاوة ، فسييسر لعمل أهل الشقاوة» .

٣٠- و لهذا قال تعالى : **«فَرِيقًا هَدَى وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ»** ثم علل ذلك ، فقال : **«إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا**

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» .

قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها ، لأنه لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة - الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد - و فريق الهدى فرق ، و قد فرق الله تعالى بين أسمائهما و أحكامهما في هذه الآية .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

المُسْرِفِينَ (٣١) ﴿

٣١- هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُرَاة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عُرَاة الرجال والنساء والرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عُرَاة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس، وهو ما يُؤاري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأَمَرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ. وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة وقتادة والسدي والضحاك ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عُرَاة، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجميل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب: لأنه من الزينة، والسواك: لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أحوالكم الأثمد، فإنه يجلو البصر، ويثبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. وروى الطبراني بسند صحيح: أن تميم الداري اشترى رداءً بألف، وكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كُلُّ مَا شِئْتَ، وَالْبَسَ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأْتَكَ خَصْلَتَانِ: سَرْفٌ وَمَخِيلَةٌ. وروى ابن جرير: عن ابن عباس قال: «أحلَّ الله الأكل والشرب، ما لم يكن سَرْفًا أَوْ مَخِيلَةً» إسناده صحيح، وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا والبسوا وتصدقوا، من غير مخيلة ولا سرف، فإنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ» ورواه النسائي وابن ماجه. وروى الإمام أحمد: عن المقدم بن معديكرب العبدي قال: سمعت رسول الله يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاءَ شراً من بطنه، حسبُ ابن آدم أَكْلَاتٍ يُقْمِنُ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مُحَالَةَ، فَثُلُثٌ لَطْعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشْرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ» ورواه النسائي والترمذي.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عُرَاة، يحرمون عليهم الودك، ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرّم، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يجب أن يُحَلَّلَ

ما أحل، ويُحرّم ما حرّم، وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٢)

٣٢- يقول تعالى رداً على من حرّم شيئاً من المأكّل أو المشارب أو الملابس، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله، قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله، وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار، حبّاً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحدٌ من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣)

٣٣- روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدٌ أغيرُ من الله، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدٌ أحبُّ إليه المدح من الله» أخرجاه في الصحيحين . وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام . وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدي: أما الإثم: فالمعصية، والبغي: أن تبغي على الناس بغير الحق . وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه . وحاصل ما فسّر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي: هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا . وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب، من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الآية .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

٣٤- يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: قرن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

٣٥- ثم أندر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشر وحثر، فقال: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون فيها مكثاً مخلداً .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا

جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

٣٧- يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآياته المنزلة ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي: ينالهم ما كتب لمن كذب على الله، أن وجهه مسوداً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نصيبهم من الأعمال: من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به. وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر. وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾. ويصير المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، وقوله: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾ نمتعهم قليلاً الآية.

وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ الآية، يخبر تعالى: أن الملائكة إذا توفت المشركين تقررهم عند الموت، وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه، قالوا ﴿ضلوا عنا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي: أقرروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ (٣٨) وقالت أولاهم لأخرجهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿٣٩﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: من أمثالكم، وعلى صفاتكم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿من الجن والإنس في النار﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿في أمم﴾ ويحتمل أن يكون ﴿في أمم﴾ أي: مع أمم. وقوله ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار. وقوله: ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قالت أخرجهم لأولاهم﴾ أي: أخرجهم دخولاً، وهم: الأتباع لأولاهم، وهم: المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿ربنا هؤلاء

الذين أضلونا فأتيتهم عذاباً ضعفاً من النار» أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ الْعَذَابِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: قد فعلنا ذلك، وجازينا كلا بحسبه، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية.

٣٩- ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للاتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قال السدي: قد ضللتم كما ضللنا ﴿فَلذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمم مجرمين ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

٤٠- قوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقاله السدي وغير واحد. ويؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء: أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، فيصلدون بها فلا تمر على ملائكة من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية، هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

وقد رواه الإمام أحمد بطوله عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كان على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى

يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك ووجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: مَنْ ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقته، فينادي مناد من السماء: أَنْ صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله و غضب، قال: فتفرق في جسده فيتنزعها، كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأن تن ریح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتح فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلأعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وقد قال ابن جريج في قوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه: البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى

يدخل البعير في خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية والضحاك، وكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرؤها «يلج الجمل في سم الخياط» بضم الجيم وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية: يعني قلوب السفن، وهي الحبال الغلاظ.

٤١- وقوله: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» قال محمد بن كعب القرظي «مهاد» قال: الفرش «وَمِنْ قَوْعِهِمْ غَوَاشٌ» قال: اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي «وَكذلكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

٤٢- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء فقال «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: آمنت قلوبهم، و عملوا الصالحات بجوارحهم، ضد «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا» وينبه تعالى: على أن الإيمان والعمل به سهل، لأنه تعالى قال: «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ» أي: من حسد و بغض، كما جاء في صحيح البخاري: من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَاقْتَصَّ لَهُمْ مِظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنَقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ، أَدَلَّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

وقال قتادة: قال علي رضي الله عنه: «إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعِثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ». رواه ابن جرير. وروى عبد الرزاق عن الحسن يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ»^(١).

وروى النسائي وابن مردويه واللفظ له: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ».

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة، نودوا أن تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة، فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين: عنه ﷺ أنه قال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل».

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾

(١) الأثران رجالهما ثقات، لكن في سماع قتادة والحسن عن علي رضي الله عنه نظر، والله أعلم.

حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

٤٤- يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة به أهل النار، على وجه التقرير والتوبيخ، إذا استقروا في منازلهم، ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، كما أخبر تعالى في سورة الصافات، عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال تالله إن كذبت لتردين ❖ ولو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين ❖ أفما نحن بميتين ❖ إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعدين ❖ أي: يُنكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، و يقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقررهم الملائكة يقولون لهم ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾ ❖ أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون ❖ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون.

و كذلك قرع رسول الله ﷺ قلب القليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيئوا! فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» (١).

و قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم، و نادى مناد ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم.

٤٥- ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، و ما جاءت به الأنبياء، و يبغون أن يكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم بقاء الله في الدار الآخرة ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه و لا يؤمنون به، فهذا لا يباليون بما يأتون من منكر من القول والعمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه و لا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً و أعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

٤٦- لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، تبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثم روى بإسناده: عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ هو: السور، وهو الأعراف، و قال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار، سور له باب، قال ابن جرير: والأعراف جمع

(١) الحديث في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما.

عُرْف، و كل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرْفًا، وإنما قيل لعرف الديك عُرْفًا: لارتفاعه (ثم روى) عن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: الأعراف هو الشيء المشرف. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: الأعراف: تلٌ بين الجنة والنار، حُبس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار، وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافًا، لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف: من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو: أنهم قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم، نصَّ عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

وروى ابن جرير: عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف؟ فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيْمَاهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك عنه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم في ذلك يُحيئون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطعمون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. وقال معمر عن الحسن أنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

٤٧- وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار، وعرفوهم، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدي: وإذا مروا بهم - يعني بأصحاب الأعراف - بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة، ذهب ذلك عنهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقه ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيْمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم

تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

٤٨- يقول الله تعالى إخباراً عن تقرير أهل الأعراف، لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتمكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتمكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال.

٤٩- ﴿أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَتَمَّتُمْ لِيَنَالَهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾

٥٠- يخبر تعالى عن ذلة أهل النار، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: الطعام. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وعن سعيد بن جبير في هذه الآية، قال: يُنادي الرجل أباه أو أخاه، فيقول له: قد احترقت فأفرض علي من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنة وشرابها.

٥١- ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا، باتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها، عما أمروا به من العمل للأخرة، وقوله ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء، ولا ينساه، كما قال تعالى ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَغْفِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ أَمَّتْ آيَاتُنَا فَنَسِيَّتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ وقال تعالى ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي الصحيحين: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأساً وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك مُلاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فالיום أنساك كما نسيتني^(١).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾

٥٢- يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين، بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كقوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للعالمين، أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صُدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ﴾ الآية، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية، وهذا الذي قاله فيه نظر! فإنه قد طال الفصل، ولا دليل عليه، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عليلهم في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال، والجنة والنار، قاله

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمرٌ، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

وقوله: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** أي: يوم القيامة. قاله ابن عباس **﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾** أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا **﴿قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾** أي: في خلاصنا مما صرنا إليه، ومما نحن فيه **﴿أو نرد﴾** إلى الدنيا **﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾** كقوله: **﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾** بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** كما قال مهنا: **﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار، وخلودهم فيها **﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا يشفعون فيهم، ولا ينصرونهم، ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

العالمين (٥٤)

٥٤- يخبر تعالى أنه خالق العالم، سمواته وأرضه، وما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة أيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم **﴿عليه السلام﴾**. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس. فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو: القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** بيدي، فقال: **﴿خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل﴾** فقد رواه مسلم في صحيحه والنسائي من غير وجه. وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: **﴿في ستة أيام﴾** ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم^(١).

وأما قوله تعالى: **﴿ثم استوى على العرش﴾** فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله

(١) الحديث صحيح لا مطعن فيه، ولا يخالف القرآن، لأن الحديث يبين كيفية الخلق على الأرض وحدها، ونص القرآن في خلق السماوات والأرض وما بينهما. وراجع تعليق العلامة الألباني على المشكاة (٥٧٣٤) والصحيحة (١٨٣٣).

لا يُشبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي - شيخ البخاري - قال: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه.

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وعكسه، كقوله: ﴿وَأَيُّ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴿فقوله: ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيطته، ولهذا قال منبهاً ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الملك والتصرف ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الآية.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

٥٥- أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه تذلاً واستكانة، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآية، وفي الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب» الحديث، وقال عطاء الخراساني^(١) عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قال: السر. وقال: ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلاً واستكانة لطاعته، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته، فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ولا مراعاة. وعن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته، وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانيته أبداً، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً، رضي فعله، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

وقال ابن جرير: يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءِ وَالصِّيَاحِ فِي الدَّعَاءِ، وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ. ثم

(١) روايته عن ابن عباس مرسلة.

روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء، ولا في غيره، وقال أبو مجلز ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء.

وروى أحمد: عن مولى لسعد: أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء» وفي لفظ «يعتدون في الطهور والدعاء» وقرأ هذه الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً﴾ الآية، وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل. ورواه أبو داود.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل نحوه. وهكذا رواه ابن ماجه وأبو داود، وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

٥٦- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضرمه بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرم ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه، والتذلل لديه، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية. وقال: قريب، ولم يقل: قريبة، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾

٥٧- لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر، نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا﴾ أي: منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة.

وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة، يُنزل الله سبحانه وتعالى ماءً من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾. ﴿وَالَّذِي حَبَّتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره: كالسِّبَاخِ ونحوها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وروى البخاري: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيةً قبلت الماء، فأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه مسلم والنسائي.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾

٥٩- لما ذكر الله تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح ﷺ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم ﷺ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبثت الأصنام، أو قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوّروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان، جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين: ودّاً وسواعاً ويعقوباً ويعوقاً ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة- رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به.

٦٠- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام، التي وجدنا آباءنا عليها، وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٦١ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء ومليكه.

٦٢ - ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً، ناصحاً عالمياً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة: وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً - «أيها الناس، إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم، ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ (٦٤) ٦٣ - يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب، أن يُوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لينذركم ولتتقوا نعمة الله، ولا تشركوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٦٤ - قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضع آخر ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة: أن العاقبة فيها للمتقين، والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوماً، إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض، إلا ولها مالك وحائز.

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

٦٥ - يقول تعالى: و كما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم، الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ

ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد» وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل^(١). هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هوداً عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

٦٦ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملاهم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملا من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الآية.

٦٧ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله، الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

٦٨ - ﴿أَبْلَغْكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي وَإِنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة.

٦٩ - ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم، لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾. ﴿وَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ أي: نعمته ومنتته عليكم ﴿فَلَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ والآء جمع ألى، وقيل: إلى^(٢).

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (٧١) فَانجِنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴿

٧٠ - يخبر تعالى عن تمردهم وطفيانهم وعنادهم، وإنكارهم على هوداً عليه السلام ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ الآية، كقول الكفار من قريش ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره، أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صنداء، وآخر يقال له: صنموداء، وآخر يقال له: الهنا، ولهذا قال هوداً عليه السلام ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس، قيل: هو مقلوب من: رجز، وعن ابن عباس معناه: سخط و غضب ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتجاجوني في هذه

(١) جبال بالحاء جمع جبل، وهو الرمل المستطيل. (القاموس).

(٢) انظر ضبطها في تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٧).

الأصنام التي سميتموها أنتم و آباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنْظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله:

٧١- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه، حتى تبينه من جسده، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عُمان و حضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض، وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة، واتبعه منهم ناس وهم يسير، يكتمون إيمانهم، فلما عتت عادٌ على الله، وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَوْلَهُ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ مَعَنَا عَلَىٰ مَا تَدْعُونَ﴾ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين يما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، فروى الإمام أحمد: عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالريذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مُبْلِغِي إِلَيْهِ؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال: فجلست، قال: فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت وسلمت، فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحَمِيت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟

قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها» حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، قال لي: «وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم أسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحبات سود فَنُودِي منها: اختر، فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمُداً، لا تُبقي من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق، قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم، قالوا: لاتكن كوافد عاد. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير.

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴿

٧٣- قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجرجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يُصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

وروى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعدنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يُصيبكم مثل ما أصابهم». وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قومٌ صالحٌ فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» فقالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «أبورغال، فلما خرج من الحرم، أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

قوله تعالى: **﴿وإلى ثمود﴾** أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً **﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ﴾** فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** وقال: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**.

وقوله: **﴿قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾** أي: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم - وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر يقال لها: الكاتبة - فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عُشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم، ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح ﷺ إلى صلاته، ودعا الله عزوجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبها بين جنبها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو، ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا، فصددهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم...

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة، تشرب من بشرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملئون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيتهم، كما قال في الآية الأخرى: **﴿ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شربٍ مُحْتَضَرٍ﴾** وقال تعالى: **﴿هذه ناقة لها شربٌ ولكم شربٌ يوم معلوم﴾** وكانت تسرح في بعض تلك الأدوية، ترد من فج وتصدر من غيره، ليسعها، لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ، عزموا على قتلها ليسأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان. قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: **﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾** وقال: **﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾** وقال: **﴿فَعَقَرُوا الناقَةَ﴾** فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك، وفرغوا من عقْر الناقة، وبلغ الخبر صالحاً ﷺ، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: **﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾** الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا إن كان صادقاً عاجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته **﴿قالوا﴾**

تَقاسمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ ﴿٨١﴾ الْآيَةَ فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَىٰ ذَٰلِكَ، وَتَوَاطَوْا عَلَيْهِ، وَجَاؤَا مِنَ اللَّيْلِ لِيَفْتَكُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ - عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ فَضَخْتَهُمْ سَلْفًا وَتَعْجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ، وَأَصْبَحَ ثَمُودُ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظْرَةِ وَوُجُوهُهُمْ مَصْفُرَةٌ، كَمَا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ عليه السلام، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّاجِيلِ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُحْمَرَةٌ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ أَيَّامِ الْمَتَاعِ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ وَوُجُوهُهُمْ مَسْوَدَةٌ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ وَقَدْ تَحَنَطُوا وَقَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ - عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَٰلِكَ - لَا يَدْرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ، وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، فَفَاضَتْ الْأَرْوَاحُ، وَزَهَقَتِ النَّفُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ أَي: صَرَعَى لَا أَرْوَاحَ فِيهِمْ، وَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، لَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، وَلَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى . . .

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال، كان لما وقعت النقمة بقومه، مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحِلِّ، جاءه حَجْرٌ مِنَ السَّمَاءِ فقتله، وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك. وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف، الذين كانوا يسكنون الطائف.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ﴾

النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴿٧٩﴾

٧٩- هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك، بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإحلاله فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب «بدر» فجعل يقول: «يا أبا جهل ابن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جئقوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وفي السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة النبي كتمت لنيبكم. كذبتُموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كتمت لنيبكم».

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين: أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة، والله أعلم.

﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾

الرِّجَالِ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

٨٠، ٨١- يقول تعالى ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ أو تقديره ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ إذ قال لقومه ﴿ و لوط هو ابن هاران بن أزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿آتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ريبكم منهن إلى الرجال، وهو إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون: أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

٨٢- أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه، ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورؤي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

٨٣- يقول تعالى فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، ثم ألتم عليهم عليه، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه، بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتمهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي: الباقيين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللائم.

٨٤- وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ مسومة عند ريك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ ولهذا قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي: انظريا محمد، كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل، ويكذب رسله. وقد ذهب الإمام أبو حنيفة

رحمه الله: إلى أن اللائط يُلقى من شاقق، ويُتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب آخرون من العلماء: إلى أنه يرمم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ». وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعي.

وأما إتيان النساء في الأدبار: فهو اللوطية الصغرى وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

٨٥- قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه بالسريانية: يثرون. (قلت): مدين تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: قد أقام الله الحجج والبيئات على صدق ما جئتمكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس، بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ - إلى قوله - لرب العالمين ﴿ وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

٨٦- ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه، والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلقتكم، فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال،

باجترائهم على معاصي الله ، و تكذيب رسله .

٨٧- و قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ أي : قد اختلفتم عليّ ﴿ فاصبروا ﴾ أي : انتظروا ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ و بينكم ، أي : يفصل ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، و الدمار على الكافرين .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (٨٨) قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿ (٨٩) ﴾

٨٨- هذا خبر من الله تعالى ، عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ، و من معه من المؤمنين ، في توعدهم إياه و من معه بالنفي عن القرية ، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم ، و الدخول معهم فيما هم فيه ، و هذا خطاب مع الرسول و المراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، و قوله : ﴿ أولو كانوا كارهين ﴾ يقول : أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه ، فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ، و دخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمتنا القرية على الله ، في جعل الشركاء معه أنداداً ، و هذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ و هذا رد إلى الله المسبب ، فإنه يعلم كل شيء ، و قد أحاط بكل شيء .

٨٩- ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي : في أمورنا ما نأتي منها و ما نذر ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي : احكم بيننا و بين قومنا ، و انصبرنا عليهم ﴿ و أنت خير الفاتحين ﴾ أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴿٩٠﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿٩١﴾ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴿٩٢﴾ ﴾

٩٠- يخبر تعالى عن شدة كفرهم و تمردهم و عتوهم ، و ما هم فيه من الضلال ، و ما جُبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، و لهذا أقسموا ، و قالوا ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

٩١- فلهذا عقبه بقوله : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة ، و ذلك كما أرجفوا شعيباً و أصحابه ، و توعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود ، فقال : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً و الذين آمنوا معه برحمة منا و أخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ و المناسبة هناك - و الله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ الآية ، فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، و قال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ و ما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ الآية ، فأخبر

أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله **﴿أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾** وهي سحابة أظلتهم، فيها شررٌ من نارٍ ولهبٌ وهجٌ عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام **﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾**.

٩٢- ثم قال تعالى: **﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾** أي: كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم، التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلمهم: **﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾**.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾

كافرين (٩٣)

٩٣- أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام، بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مقررًا لهم وموبخًا: **﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** أي: قد أدت إليكم ما أرسلت به، فلا أسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتكم به، فهذا قال: **﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾**.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا

يشعرون (٩٥)

٩٤- يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء **﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾** يعني بالبأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء: ما يصيبهم من فقر وحاجة، ونحو ذلك **﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾** أي: يدعون ويخشعون، ويتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء، ليختبرهم فيه.

٩٥- ولهذا قال: **﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾** أي: حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا، وقوله: **﴿حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾** أي: كثروا، وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، **﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا، وينبوا إلى الله، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، وقالوا قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين، الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء.

كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»^(١). فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا جاء في الحديث «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل

(١) الحديث في مسلم فقط بنحوه، رواه في الزهد (٤ / ٢٢٩٥)، ونبه عليه الألباني رحمه الله في السلسلة (١٤٨).

الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه» أو كما قال^(١).
ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: «فَأَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة و عدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة، كما في الحديث «موتُ الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذةُ أسف للكافر»^(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

٩٦- يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى، الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٩٦﴾ فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٧﴾ وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴿٩٨﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا» أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، و صدقت به واتبعوه، و اتقوا بفعل الطاعات، و ترك المحرمات «لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أي: قطر السماء و نبات الأرض، قال تعالى: «وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم و المحارم، ثم قال تعالى مخوفاً و محذراً من مخالفة أوامره، و التجرؤ على زواجه.

٩٧، ٩٨- «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ» أي: الكافرة «أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا» أي: عذابنا و نكالنا «بَيَاتًا» أي: ليلاً «وَهُمْ نَائِمُونَ» أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى و هم يلعبون» أي: في حال شغلهم و غفلتهم.
٩٩- «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ» أي: بأسه و نعمته و قدرته عليهم، و أخذه إياهم في حال سهوهم و غفلتهم «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» و لهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات و هو مشفق و جل خائف، و الفاجر يعمل بالمعاصي و هو آمن.

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

١٠٠- قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله «أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا» أولم يتبين لهم، أن

(١) أما أوله فهو نحو حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة في نفسه و ولده و ماله، حتى يلقي الله و ما عليه خطيئة» رواه الترمذي (٢٥٢٣) و قال حسن صحيح، و هو كما قال. و أما الشطر الثاني «و المناقق مثله كمثل الحمار...» فقد روى أبو داود (٣٠٨٩) حديث عامر الرام مرفوعاً: «إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه، كان كفارة لما مضى من ذنوبه، و موعظة له فيما يستقبل، و إن المناقق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقله، و لم يدر لم أرسلوه» وفيه أبو منظور مجهول، و ضعفه الألباني في المشكاة (١٥٧١).

(٢) ضعيف بهذا اللفظ، و قد روى أحمد (٤٢٤ / ٣) و أبو داود (٣١١٠) عن عبيد بن خالد مرفوعاً: «موت الفجأة أخذة أسف» و هو صحيح.

لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها : أولم يتبين للذين يستخلفون في الأرض ، من بعد إهلاك آخرين قبلهم ، كانوا أهلها فساروا سيرتهم و عملوا أعمالهم ، و عتوا على ربهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم ، كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ ونطبعُ على قلوبهم ﴾ يقول و نختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة و لا تذكراً .

(قلت) : و هكذا قال تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ و قال : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ و سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ، و قال تعالى : ﴿ و كم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي : هل ترى لهم شخصاً ، أو تسمع لهم صوتاً ، و قال تعالى : ﴿ أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم و أرسلنا السماء عليهم مدراراً و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم و أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ و قال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ و لقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه و جعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله و حاق بهم ما كانوا به يستهزون ﴾ و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى و صرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ و قال تعالى : ﴿ و كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ و قال تعالى : ﴿ و لقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ و قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها و هي ظالمة فهي خاوية على عروشها و بشر معطلة و قصر مشيد ﴾ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ و قال تعالى : ﴿ و لقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، و حصول نعمه لأوليائه ، و لهذا عقب ذلك بقوله ، و هو أصدق القائلين ، و رب العالمين :

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها و لقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١) و ما وجدنا لأكثرهم من عهد إن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢) ﴾

١٠١ ، ١٠٢ - لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب ، و ما كان من إهلاك الكافرين ، و إنجائه المؤمنين ، و أنه تعالى أعذر إليهم ، بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ تلك القرى نقص عليك ﴾ أي : يا محمد ﴿ من أنبائها ﴾ أي : من أخبارها ﴿ و لقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالى ﴿ و ما كنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولا ﴾ و قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم و حصيد ﴾ و ما ظلمناهم و لكن ظلموا أنفسهم ﴾ و قوله تعالى : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن كقوله : ﴿ و ما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ و نُقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا

به أول مرة» الآية، ولهذا قال هنا «كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» وما وجدنا لأكثرهم» أي: لأكثر الأمم الماضية «من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه: هو ما جبلهم عليه، وفطروهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث. وقال تعالى في كتابه العزيز: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»، وقوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ أَنْ عَابِدُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى» وقال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» إلى غير ذلك من الآيات. وقد قيل في تفسير قوله تعالى: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» ما روي عن أبي بن كعب في قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا، لعلم الله منهم ذلك. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال السدي: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً، وقال مجاهد في قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» هذا كقوله: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا» الآية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣)

١٠٣- يقول تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين «مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا» أي: بحججنا ودلائلنا البينة إلى فرعون، وهو ملك مصر في زمن موسى «وَمَلَئِهِ» أي: قومه «فَظَلَمُوا بِهَا» أي: جحدوا وكفروا بها، ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» أي: الذين صدوا عن سبيل الله، وكذبوا رسوله، أي: انظروا يا محمد كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٦)

١٠٤- يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإجماعه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات، بحضرة

فرعون و قومه من قبط مصر ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه و مليكه .

١٠٥ - ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ فقال بعضهم معناه : حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي : جديرٌ بذلك و حري به ، قالوا : و «الباء» و «على» يتعاقبان ، يقال : رميت بالقوس و على القوس ، و جاء على حال حسنة و بحال حسنة ، و قال بعض المفسرين معناه : و حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق ، و قرأ آخرون من أهل المدينة : «حقيق عليّ» بمعنى واجب و حق علي ذلك ، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق و صدق ، لما أعلم من عزّ جلاله ، و عظيم شأنه ﴿ قَدْ جِئْتَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : بحجة قاطعة من الله ، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : أطلقهم من أسرك و قهرك ، و دعهم و عبادة ربك و ربهم ، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل ، و هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن .

١٠٦ - ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جئتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ ﴾ أي : قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ، و لا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة ، فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿ (١٠٨)

١٠٧ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ الحية الذكر ، و كذا قال السدي والضحاك . و قال السدي : الثعبان الذكر من الحيات ، فاتحة فاهها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ، و الآخر على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها و وثب و أحدث ، ولم يكن يحدث قبل ذلك ، و صاح : يا موسى خذها و أنا أو من بك ، و أرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى ﷺ فعادت عصا ، و روي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا .

١٠٨ - و قوله : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي : أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص و لا مرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ الآية ، و قال ابن عباس - في حديث الفتون - من غير سوء يعني : من غير برص ، ثم أعادها إلى كفه فعادت إلى لونها الأول ، و كذا قال مجاهد و غير واحد .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا

تَأْمُرُونَ ﴿ (١١٠)

١٠٩ ، ١١٠ - أي : قال الملأ ، و هم : الجمهور و السادة من قوم فرعون ، موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه ، و استقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته ، و تشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ، و كيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره ، و إخماد كلمته و ظهور كذبه و افتراءه ، و تخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم ، و إخراجهم إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه و قعوا فيه ، كما قال تعالى ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْتَرُونَ ﴾ فلما تشاوروا في شأنه و ائتمروا فيه ، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

١١١، ١١٢ - قال ابن عباس: ﴿أرجه﴾ أخره. وقال قتادة: احبسه ﴿وأرسل﴾ أي: ابعث ﴿في المدائن﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حاشرين﴾ أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد، ويجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً، كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى به ﷺ من قبيل ما تُشعبده سحرتهم، فلماذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرِكَ يا موسى﴾ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى، وقال تعالى ههنا:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾

١١٣، ١١٤ - يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة، الذين استدعاهم لمعارضة موسى ﷺ، إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

١١٥ - هذه مبارزة من السحرة لموسى ﷺ في قولهم ﴿إمّا أن تلقى وإمّا أن نكون نحن الملقين﴾ أي: قبلك، كما قال في الآية الأخرى ﴿وإمّا أن نكون أول من ألقى﴾.

١١٦ - فقال لهم ﷺ: ألقوا، أي أنتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي، بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى.

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً، وخبشاً طوالاً، قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى ﷺ معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع إشراف أهل مملكته ثم قال السحرة: ﴿يا موسى إمّا أن تلقى وإمّا أن نكون أول من ألقى﴾ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيتهم فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصى، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾

١١٧-١٢٠- يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى ﷺ في ذلك الموقف العظيم، الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فإذا هي تلقف﴾ أي: تاكل ﴿ما يافكون﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخرّوا سجداً.

١٢١، ١٢٢- وقالوا ﴿آمنّا بربّ العالمين﴾ ربّ موسى وهارون، وقال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنَ بِكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لِأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾

١٢٣- يخبر تعالى عما توعد به فرعون - لعنه الله - السحرة لما آمنوا بموسى ﷺ، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا، إنما كان عن تشاور منكم، ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهو يعلم و كل من له لب، أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى ﷺ بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك، والتقدم عند فرعون. وموسى ﷺ لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتديساً على رعا دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي: ما أصنع بكم.

١٢٤- ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى، أو بالعكس ﴿ولأصلبكنم أجمعين﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿في جذوع النخل﴾ أي: على

الجدوع . قال ابن عباس : و كان أول من صلبَ و أول من قطعَ الأيدي و الأرجل من خلاف : فرعون .
١٢٥- و قول السحرة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُقَبِلُونَ﴾ أي : قد تحققنا أنا إليه راجعون و عذابه أشد من عذابك ،
ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم و ما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبر اليوم على عذابك ،
لنخلص من عذاب الله .

١٢٦- و لهذا قالوا : ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا﴾ أي : عمنا بالصبر على دينك ، و الثبات عليه ﴿و توفنا
مُسْلِمِينَ﴾ أي : متابعين لنبيك موسى ﷺ . و قالوا لفرعون ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة
الدُّنْيَا ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا و ما أكرهتنا عليه من السَّحْرِ و الله خيرٌ و أبهى ﴾ إنه من ياتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ
لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا و لَا يَحْيَى ﴾ و من ياتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ فكانوا
في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء برة ، قاله ابن عباس و عبيد بن عمير و قتادة و ابن جريج .

﴿و قال المَلَأُ من قومِ فرعونِ أَتذُرُ موسى و قومَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ و يَذُرَكَ و آلِهَتِكَ قال سَنَقْتَلُ
أبناءَهُم و نَسْتَحْيِي نساءَهُم و إِنَّا فوقَهُم قاهرونَ (١٢٧) قال موسى لِقومِهِ استعِينُوا باللهِ و اصْبِرُوا إِنَّ
الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا من يَشَاءُ من عبادِهِ و العاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالوا أُوذِينا من قَبْلِ أن تَأْتِينا و من بَعْدِ
ما جِئْتَنَا قال عسى رَبُّكُمْ أن يُهْلِكَ عِدوَكُمْ و يَسْتَخْلِفَكُم فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾

١٢٧- يخبر تعالى عما تمألا عليه فرعون و ملاءه ، و ما أضمره لموسى ﷺ و قومه من الأذى و البغضة
﴿و قال المَلَأُ من قومِ فرعون﴾ أي : لفرعون ﴿أتذُرُ موسى و قومَهُ﴾ أي : أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي :
يفسدوا أهل رعيتك ، و يدعوهم إلى عبادة ربهم دونك . يا الله العجب ! صار هؤلاء يُشفقون من إفساد موسى
و قومه ! ألا إن فرعون و قومه هم المفسدون ، و لكن لا يشعرون ، و لهذا قالوا : ﴿و يذُرَكَ و آلِهَتِكَ﴾ قال
بعضهم : «الواو» هاهنا حالية ، أي : أتذره و قومه يفسدون في الأرض و قد ترك عبادتك ؟ و قرأ ذلك أبي بن
كعب «و قد تركوك أن تعبد و آلِهَتِكَ» حكاه ابن جرير . و قال آخرون : هي عاطفة ، أي : أتدعهم يصنعون من
الفساد ، ما قد أقررت عليه و على ترك آلِهَتِكَ . و قرأ بعضهم «إلاهتك» أي : عبادتك ، و روي ذلك عن ابن
عباس و مجاهد وغيره . و على القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده ، قال الحسن البصري :
كان لفرعون إله يعبده في السر ، فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله ﴿سَنَقْتَلُ أبناءَهُم و نَسْتَحْيِي نساءَهُم﴾ و هذا
أمر ثان بهذا الصنيع ، و قد كان نكل بهم قبل ولادة موسى ﷺ ، حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه ، و ضد
ما قصده فرعون . و هكذا عومل في صنيعه أيضاً ، لما أراد إذلال بني إسرائيل و قهرهم ، فجاء الأمر على
خلاف ما أراد ؛ أعزهم الله ، و أذله و أرغم أنفه ، و أغرقه و جنوده .

١٢٨- و لما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قال موسى لِقومِهِ استعِينُوا باللهِ
و اصْبِرُوا﴾ و وعدهم بالعاقبة ، و أن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا من يَشَاءُ من عبادِهِ
و العاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قالوا أُوذِينا من قَبْلِ أن تَأْتِينا و من بَعْدِ ما جِئْتَنَا﴾ أي : قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان
و الإذلال ، من قبل ما جئت يا موسى و من بعد ذلك .

١٢٩- فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر ، و ما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿عسى رَبُّكُمْ أن يُهْلِكَ

عدوكم﴾ الآية، هذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

١٣٠ - يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي سني الجوع، بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك، وقال رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

١٣١ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جذب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ هذا بسببهم وما جاؤا به ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن جريج عن ابن عباس قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من قبل الله.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ

يَنْكُثُونَ﴾ (١٣٥)

١٣٢ - هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون، وعتوهم وعنادهم للحق، وإصرارهم على الباطل، في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أي: آية جئتنا بها، ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المفارقة المتلفة للزروع والشمار. وبنو قال الضحاک بن مزاحم، وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت، وكذا قال عطاء، وقال مجاهد: الطوفان: الماء والطاعون على كل حال. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

وأما الجراد: فمعروف مشهور، وهو مأكول، لما ثبت في الصحيحين: عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه: عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ وَدِمَانٌ: الحوت والجراد، والكبد والطحال». وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وأما القمل: فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من

الحنطة، وعنه: أنه الدبا، وهو الجراد الصفار الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: القمل: دواب سود صفار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القمل البراغيث. وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات.

فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركذ لا يقدر على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك **﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بشروانهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٣٦- يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة، واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه، ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله، وتغافلهم عنها.

١٣٧- وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى: **﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾** ونمکن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون **﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ﴾** وزروع ومقام كريم **﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِين﴾** كذلك وأورثناها قوماً آخرين **﴿وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقتادة في قوله: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** يعني: الشام، وقوله: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾** قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وَنُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْكُمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ﴾ أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه، من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿يعرشون﴾: يبنون.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾

١٣٨ - يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى ﷺ، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه، من الشريك والمثيل.

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدْرَةٌ يعكفون عندها، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يقال لها: ذات أنواط، قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال فقلنا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، فقال: «قلتم والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبِّعون ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون». ورواه الإمام أحمد ولفظه: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم» أورده ابن جرير.

﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾

١٤٠، ١٤١ - يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى ﷺ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾

١٤٢ - يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ﷺ، وإعطائه

التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى ﷺ وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين. وقد اختلف المفسرون في هذه العشرة ماهي؟ فالأكثر على أن الثلاثين: هي ذو القعدة، والعشر عشري الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج، ورؤي عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فلما تم الميقات، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية، فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصّاه بالإصلاح وعدم الإفساد. هذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون ﷺ نبي شريف، كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي قَالَ رَبِّ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾

١٤٣- يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ وقد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّخُجُونَ﴾ وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام، كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك في الأنعام. وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى ﷺ «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده». ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

روى أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: «ووضع الإبهام قريباً من طرف خنصره» قال: «فساخ الجبل» قال حميد لثابت يقول: هكذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس وأنا أكتمه؟. وهذا رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه، حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه أبو محمد الخلال وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وعن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال: مغشياً عليه، رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال: ميتاً. وقال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض

حتى وقع في البحر فهو يذهب معه . وقال الربيع بن أنس **«فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»** وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك . وقال مجاهد في قوله : **«وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي»** فإنه أكبر منك وأشد خلقاً **«فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ»** فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً . وقال عكرمة **«جعل دكاً»** قال : نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً . وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء ، واختارها ابن جرير .

والمعروف أن الصعق : هو الغشي ههنا ، كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت ، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة ، كقوله تعالى : **«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»** فإن هناك قرينة تدل على الموت ، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي ، وهي قوله : **«فَلَمَّا أَفَاقَ»** والإفاقة لا تكون إلا عن غشي **«قَالَ سُبْحَانكَ»** تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً ، أن يراه أحد في الدنيا إلا مات ، وقوله : **«تَبَّتْ يُرْتَابُ»** قال مجاهد : أن أسألك الرؤية **«وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ»** قال ابن عباس ومجاهد : من بني إسرائيل ، واختاره ابن جرير . وفي رواية أخرى عن ابن عباس **«وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ»** أنه لا يراك أحد . وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه ، وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب ، عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم . وقوله : **«وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»** فيه أبو سعيد وأبو هريرة : عن النبي ﷺ ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا ، قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه ، وقال : يا محمد ، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي ، قال : ادعوه ، فدعوه ، قال : «لم لطمت وجهه؟» قال : يا رسول الله ، إنني مررت باليهود فسمعتهم يقولون : والذي اصطفى موسى على البشر ، فقلت : وعلى محمد؟! وأخذتني غضبة فلطمته ، قال : «لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُثيق ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أم جُوزي بصعقة الطور» وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه .

وأما حديث أبي هريرة : فروى الإمام أحمد عنه قال : استب رجلان ، رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره ، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك فقال رسول الله ﷺ فذكر نحو الحديث السابق ، أخرجاه في الصحيحين .

والكلام في قوله ﷺ «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله : «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب ، وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم . وقوله «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عَرَصات القيامة ، يحصل أمرٌ يصعقون منه ، والله أعلم به ، وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلي للخلائق الملك الديان ، كما صعق

موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ، ولهذا قال ﷺ «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور» .

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾

١٤٤ - يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته و كلامه ، و لا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين و الآخرين ، و لهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء و المرسلين ، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، و أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم ، و بعده في الشرف و الفضل إبراهيم الخليل ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ ، و لهذا قال الله تعالى له : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أي : من الكلام و المناجاة ﴿ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي : على ذلك و لا تطلب ما لا طاقة لك به .

١٤٥ - ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلاً لكل شيء . قيل : كانت الألواح من جوهر ، و أن الله تعالى كتب له فيها مواعظ و أحكاماً ، مفصلة مبينة للحلال و الحرام ، و كانت هذه الألواح مشتملة على التوراة ، التي قال الله تعالى : ﴿ وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ . و قيل : الألواح أُعطِيها موسى قبل التوراة ، فالله أعلم ، و على كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا و منع منها ، و الله أعلم . و قوله : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بعزم على الطاعة ﴿ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ روي عن ابن عباس قال : أمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه . و قوله : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة من خالف أمري و خرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك و الدمار و التباب .

قال ابن جرير : و إنما قال : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري ، على وجه التهديد و الوعيد ، لمن عصاه و خالف أمره ، نقل معنى ذلك عن مجاهد و الحسن البصري . و قيل : معناه : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي : من أهل الشام ، و أعطيكم إياها . و قيل : منازل قوم فرعون . و الأول أولى ، و الله أعلم ، لأن هذا كان بعد انفصال موسى و قومه عن بلاد مصر ، و هو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، و الله أعلم .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

١٤٦ - يقول تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : سأمنع فهم الحُجَج ، و الأدلة الدالة على عظمتي و شريعتي و أحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ، و يتكبرون على الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق ، أذلهم الله بالجهل ، كما قال تعالى : ﴿ وَ تَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ

وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَىٰ مَرَّةً ﴿١٤٨﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال بعض السلف: لا ينال العلم حبي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان ابن عيينة في قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي، قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. (قلت): ليس هذا بلازم، لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشd، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها.

١٤٧- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾

١٤٨- يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب، التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار: صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحمًا ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله، وافتتنوا به وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال.

١٤٩- وقوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم ﴿لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿رَبَّنَا﴾ منادى ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين. وهذا اعتراف منهم بذنبهم، والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

١٥١ - يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى ، وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء : الأسف أشد الغضب ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول : بشس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم ، وقوله : ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم ، وهو مقدر من الله تعالى . وقوله : ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث : «ليس الخبير كالمعينة»^(١) . ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، وروى ابن جرير : عن قتادة في هذا قولاً غريباً ، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون وضاعون وأفاكون وزنادقة .

وقوله : ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم ، قال في الآية الأخرى : ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَتَّبَعْتَهُمْ سَلُّوا الْأَتَّبَعْتُمْ أَمْرِي﴾ قال يا ابن أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَمْ تَرَاقِبُ قَوْلِي﴾ وقال ههنا : ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا تسوقني سياقهم وتجعلني معهم ، وإنما قال : ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «يرحم الله موسى ، ليس المغاين كالمخبر ، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعانينهم ، ألقى الألواح» .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

١٥٢ - أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة ، حتى قتل بعضهم بعضاً ، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتَوَّأُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . وأما الذلة فاعقبهم ذلك ذلة وصغاراً في الحياة الدنيا . وقوله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد ، متصلة

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (٢٧١ / ١) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

من قبله على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : إنَّ ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات ، وطققت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية ﴿وَكذَلِكَ نَجْزِي الْمُقْتِرِينَ﴾ فقال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل .

١٥٣ - ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ، ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي : يا محمد يا رسول التوبة ، ونبى الرحمة ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي : من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود : أنه سُئِلَ عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ، ولم ينههم عنها .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

يرهبون (١٥٤)

١٥٤ - يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي : غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرة لله و غضباً له ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ، ثم جمعها بعد ذلك ، ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع ، ولهذا عداها باللام .

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا

إِلَيْكَ

١٥٥ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً فبرزهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا ، ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ الآية ، وقال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، و وعدهم موعداً ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يا موسى ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فإنك قد كلمته فأرناهُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم ، وقد أهلكت

خيارهم ﴿رَبُّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّاي﴾ .

وقال ابن عباس و قتادة و مجاهد و ابن جريج : إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يُزابلوا قومهم في عبادتهم العجل ، و لا نهوهم ، و يتوجه هذا القول بقول موسى ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ . و قوله : ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي : ابتلاؤك و اختبارك و امتحانك ، قاله ابن عباس و سعيد بن جبير و أبو العالية و ربيع بن أنس و غير واحد من علماء السلف و الخلف ، و لا معنى له غير ذلك ، يقول : إن الأمر إلا أمرك ، و إن الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تُضل من تشاء و تهدي من تشاء ، و لا هادي لمن أضللت ، و لا مضل لمن هديت ، و لا معطي لما منعت ، و لا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، و الحكم كله لك ، لك الخلق و الأمر . و قوله : ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الغفر : هو الستر ، و ترك المؤاخذه بالذنب . و الرحمة إذا قرنت مع الغفر ، يُراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أن لا يغفر الذنوب إلا أنت .

١٥٦ - ﴿وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ﴾ هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور ، و هذا لتحصيل المقصود ﴿وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي : أوجب لنا و أثبت لنا فيهما حسنة ، و قد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة . ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ أي : تبنا و رجعنا و أنبنا إليك ، قاله ابن عباس و سعيد ابن جبير و مجاهد و أبو العالية و الضحاك و إبراهيم التيمي و السدي و قتادة و غير واحد ، و هو كذلك لغة .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٦)

١٥٦ - يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله : ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية ، قال ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي : أفعل ما أشاء و أحكم ما أريد ، ولي الحكمة و العدل في كل ذلك ، سبحانه لا إله إلا هو ، و قوله تعالى : ﴿وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول و العموم ، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ، و من حوله أنهم يقولون : ﴿رَبِّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا﴾ . و روى أحمد : عن سلمان عن النبي ﷺ قال : «إِنَّ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلِّ مِائَةِ رَحْمَةٍ ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاخَمُ بِهَا الْخَلْقُ ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا ، وَ أُخْرُ تِسْعَةٌ وَ تِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» تفرد بإخراجه مسلم . و قوله : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية ، يعني : فسأوجب حصول رحمتي ، مِنَّةً مِنِّي ، و إحساناً إليهم ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ و قوله : ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي : سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، و هم أمة محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي : الشرك و العظائم من الذنوب .

قوله : ﴿وَ يُوْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل : زكاة النفوس ، و قيل : الأموال ، و يحتمل أن تكون عامة لهما ، فإن الآية مكية ﴿وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : يُصدِّقُونَ .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٧- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، وبشروا أممهم ببعثه، وأمرهم بمتابعتهم، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماءهم وأخبارهم. كما روى الإمام أحمد: عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي، قلت: لألقين هذا الرجل فلا سمع منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فبعثهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرأها، يُعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفته والصلاة عليه.

هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

ورى ابن جرير: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة، كصفته في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً، وأذاناً صمماً، وأعيناً عمياً. قال عطاء ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً، إلا أن كعباً قال: بلغته قال: قلوباً غلوفياً، وأذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً. وقد رواه البخاري نحوه. ويقع في كلام كثير من السلف، إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه: ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. وروى الإمام أحمد: عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» رواه الإمام أحمد ﷺ بإسناد جيد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب.

وروى الإمام أحمد: عن علي بن أبي طالب قال: إذا سمعتم رسول الله ﷺ حدثنا، فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنأ والذي هو أتقى.

وقوله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم،

من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المأكَل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلى أن المرجع في حل المأكَل التي لم يُنص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته، وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** أي: أنه جاء باليسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق: عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»**. وقال ﷺ لأُميريه معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: **«بَشْرًا وَلَا تَنْفَرًا، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلَفًا»**^(١). وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ»**^(٢). وقال: **«رُفِعَ عَنِّ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»**^(٣).

ولهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: **«رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الدِّينِ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَالًا طَاقَةً لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»**. وثبت في صحيح مسلم: أن الله تعالى قال بعد كل سؤالٍ من هذه: **«قد فعلت»**.

وقوله: **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾** أي: عظموه ووقروه، وقوله: **﴿وَاتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾** أي: القرآن والوحي، الذي جاء به مبلغاً إلى الناس **﴿أولئك هم المفلحون﴾** أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تهتدون ﴿١٥٨﴾

١٥٨ - يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ **﴿قُلْ﴾** يا محمد **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي **﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾** أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: **﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾** وقال تعالى: **﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾** والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة، أنه صلوات الله

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه. (٣) سبق تخريجه في الجزء الأول.

وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روى البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوراة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي: غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت» انفرد به البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا: فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها، كانوا يخرقونها، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يُعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بيعتهم وكنائسهم، والخامسة هي ما هي، قيل لي: سأل فإن كل نبي قد سأل، فأخرت مسألتني إلى يوم القيامة، فهي لكم، ولمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوي أيضاً، ولم يخرجوه.

وروى أيضاً: «مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِي أَوْ نَصْرَانِي، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر. وقوله: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» صفة الله تعالى، في قوله: «رَسُولُ اللَّهِ» أي: الذي أرسلني: هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم. وقوله: «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به «النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» أي: الذي وعدتم به، وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال: «النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ».

وقوله: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ» أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه «وَاتَّبِعُوهُ» أي: اسلكوا طريقه، واقتفوا أثره «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» أي: الصراط المستقيم.

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٩)

١٥٩ - يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل، إن منهم طائفة يتبعون الحق، ويعدلون به، كما قال تعالى: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» وقال تعالى: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» وقال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الآية،

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ويقولون سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ فِيهِمْ خُشوعًا﴾.

﴿وَقَطَعْنَا لَهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ الْوَادِيَ الْأَخْضَرَ الْيَسْرَةَ وَاللَّذِينَ فِي الْأَيْمَانِ أُولَئِكَ لَا كَلَائِمَ فِيهَا سَأَلَ بِالسُّعْيِ وَالْغُلْمَةِ الْأَعْمَىٰ﴾ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦٠) وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون (١٦٢) ﴿

١٦٠ - ١٦٢ - تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، وهذا السياق مكى، ونبها على الفرق بين هذا السياق، وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣) ﴿

١٦٣ - هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية، يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَسْأَلُهُمْ﴾ أي: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك، عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم، واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي «أيلة» وهي على شاطئ بحر القزم، روي عن ابن عباس وكذا قال عن عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي. وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه، ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، وقال العوفي عن ابن عباس: شُرْعًا من كل مكان.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ أي: نخبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده وإخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ نخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة، التي معناها في الباطن تعاطى الحرام.

وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل» وهذا إسناد جيد.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً

خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴿

١٦٦- يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا، واستحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكهم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفع ذلك ﴿مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما أخذنا علينا من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه، ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

١٦٧- قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً، فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين، أو من الناجين؟ على قولين.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً، في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرها عليها، فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النّهاء: تعلمون أن هؤلاء قوم حقّ عليهم العذاب ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، والذين قالوا معذرة إلى ربكم، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة، وروى العوفي عن ابن عباس عنه قريباً من هذا. وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، ولله الحمد والمنة.

و (القول الثاني) أن الساكتين كانوا من الهالكين.

قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نهبوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهبوا وهلك سائرهم، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول

عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَنَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قرأت كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية: أليم، وقال قتادة: موجه. والكل متقارب والله أعلم، وقوله ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾

١٦٧- ﴿تَأَذَّنَ﴾ تفعل من الأذان، أي: أعلم، قاله مجاهد، وقال غيره: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبع باللام في قوله: ﴿لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى ﷺ ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته، يؤدون الخراج والجزية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الجزية، والذي يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقاتدة، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم ﷺ، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف شرعه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّماً مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٩) والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين (١٧٠)﴾

١٦٨- يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَّماً، أي: طوائف وفرقا، كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾
﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَا مَنَا

الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا. ﴿١٦٧﴾ وَيَلُونَاهُمْ ﴿١٦٨﴾ أي: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرغبة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١٦٩- ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب، وهو التوراة. وقال مجاهد: هم النصارى. وقد يكون أعم من ذلك ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يشرف لهم شيء من الدنيا، إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وقال قتادة في الآية: أي والله لخلف سوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بعد أنبيائهم ورسولهم أورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تمنوا على الله أمانى، وغرة يغترون بها ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يباليون حلالاً كان أو حراماً.

وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرون عرض الدنيا يأخذوه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية، يقول تعالى منكرأ عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم الميثاق، ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ الآية، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم، التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها، وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي، عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير.

١٧٠- ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُنْصِفُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

١٧١ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وروى الثوري عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾.

وروي عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى ﷺ إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقرأوا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله^(١).

وروي عن الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

١٧٢ - يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» وفي رواية: «على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

وفي صحيح مسلم: عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وروي الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا وُلدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها» قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، وقد رواه الإمام أحمد والنسائي.

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ﷺ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب

(١) وهو حديث الفتون وفي سننه ضعف.

الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم: روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ للرجل من أهل النار يوم القيامة: أَرَأَيْتَ لو كَانَ لك مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مَفْتَدِيًا بِهِ؟» قال: فيقول نعم، فيقول: قد أردت منك أهونَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه في الصحيحين.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللّهَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام بِنِعْمَانِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذَرِيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿ أَوْ تَقُولُوا - إِلَى قَوْلِهِ - المُبْطِلُونَ ﴾».

وقد روى هذا الحديث النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إِنَّ اللّهَ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذَرِيَّةً، قَالَ: خَلَقْتَ هؤُلاءِ للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خَلَقْتَ هؤُلاءِ للنار وبعمل أهل النار يعملون» فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَقَ اللّهُ العَبْدَ للجنة اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الجنة، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجنة، فَيَدْخُلُهُ بِهِ الجنة، وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ للنار اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النار، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النار، فَيَدْخُلُهُ بِهِ النار» وهكذا رواه أبو داود والنسائي والترمذي.

(حديث آخر): روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسْمَةٍ هِيَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضاً مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مِنْ هؤُلاءِ؟ قَالَ: هؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبَيَّضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عَمْرَهُ؟ قَالَ: سَتِينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عَمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلِكُ المَوْتِ قَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تَعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ، قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءُ آدَمَ فَخَطِيءَتْ ذُرِّيَّتُهُ» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وابن أبي حاتم.

وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقتادة والسدي، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسّر الحسن الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿ وَلَمْ يَقُلْ : مِنْ آدَمَ ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ أي : جعل نسلهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أي : أوجدتهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً وقالاً ، والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالاً ، كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴾ أي : حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده . فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

١٧٢ - ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أي : لثلاث قولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا ﴾ أي : التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾ أو تقولوا إنما أشركنا آبوانا الآية .

﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأفصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧) ﴿

١٧٥ - روى عبد الرزاق : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا ﴾ الآية ، قال : هو رجل من بني إسرائيل ، يقال له : بلعم بن باعوراء . وروى سفيان بن عيينة عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : هو بلعام ، وقالت ثقيف : هو أمية بن أبي الصلت .

وعن عبد الله بن عمرو في قوله : ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ الآية ، قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت . وقد روى من غير وجه عنه ، وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة ، قبحه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه ، فإن له أشعاراً ربانية ، وحكماً وفصاحة ، ولكنه

لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعهم جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: استحوذ عليه وعلى أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائسين. وقد ورد في معنى هذه الآية حديث، رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: عن حذيفة يعني بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أخاف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه، وكان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك» قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»، هذا إسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا، بالآيات التي آتيناها إياها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من أولي البصائر والنهي.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثُ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر: أن بلغاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبهه بالكلب في لهيئه في كلتي حالتيه، إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم ارتفاعه بالدعاء إلى الإيمان، وعدم الدعاء، كالكلب في لهيئه في حالتيه: إن حملت عليه، وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان، ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ونحو ذلك: وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال: ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقِصُّ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاتَّقِصُّ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه، وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه، في تعليمه الاسم الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كلهم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون

أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة وموازرتة، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه، وكتبه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا، موصولاً بذل الآخرة. ١٧٧- وقوله: «سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب، التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله. ولهذا ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

وقوله: «وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ» أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات، وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

١٧٨- يقول تعالى: مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنُسْتَهْدِيهِ وَنُسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» الحديث بتمامه، رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

١٧٩- يقول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ» أي: خلقنا وجعلنا لجهنم «كثيراً من الجن والإنس» أي: هيأناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

وفي صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصفير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أوغير ذلك يا عائشة؟ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَهَمَّ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَهَمَّ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».

وفي الصحيحين: من حديث ابن مسعود «ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد». وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا» يعني

(١) لفظه عند مسلم: «كتب الله مقادير الخلائق... الخ، في القدر (٤/ ٢٠٤٤).

ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولم يكونوا صمّاً ولا بكماً ولا عمياً، إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ❖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعرفونه، ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة، التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها من ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً﴾ أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان: كمثل الأنعام إذا دعا راعيها، لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أفس بها^(١)، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له، إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به.

ولهذا من أطاع الله من البشر، كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴿

١٨٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعاً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ تَرْيُحُ الْوَتْرِ» أخرجاه في الصحيحين، وأخرجه الترمذي في جامعه مثله وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام... الحديث. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجه مرفوعاً، فسر الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان، والذي عول عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الله بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم، أنهم قالوا: ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، والله أعلم.

ثم ليُعلم أن الأسماء الحسنی غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن

(١) هو قول الراعي لها: بس بس (مثلثة الباء).

العظيم ربيع قلبي، و نور صدري، و جلاء حزني، و ذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه و همه و أبدل مكانه فرحاً فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» و قد أخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان البستي في صحيحه بمثله.

و ذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوزي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب و السنة، من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

و قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، و قال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، و العزى من العزيز؛ و قال قتادة: يلحدون يشركون في أسمائه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد التكذيب، و أصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، و الميل و الجور و الانحراف، و منه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾

١٨١ - يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: بعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق قولاً و عملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه و يدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون و يقضون، و قد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي: هذه الأمة المحمدية، و في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» و في رواية «حتى يأتي أمر الله و هم على ذلك» و في رواية «وهم بالشام».

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾
١٨٢، ١٨٣ - يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و معناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق، و وجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، و يعتقدون أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ففُتِحَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ و لهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وسأملِي لهم، أي: أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أُولَٰئِكَ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مَّبِينٌ (١٨٤)﴾

١٨٤ - يقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّنْ جَنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مَّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان لباً و قلب يعقل به، و يعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ و قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشئِي و فُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب و لا عناد، مشئى و فرادى، أي: مجتمعين و متفرقين، ثم تفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله، أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك،

بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿أُولَٰم يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ

اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

١٨٥- يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا، في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيهه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله، وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب، بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله، في أي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث، الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟

ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

١٨٦- يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة، فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْعاً﴾ وكما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

١٨٧- يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قيل: نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، الأول أشبه، لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكديباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: منتهاها، أي: متى محطها، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي ﴿يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾ أي: يعلم جليلة أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله: **«ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»** قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، أنهم لا يعلمون. وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: **«ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»** قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، وقال ابن جريج: إذا جاءت: انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها. واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة، وهو كما قاله، كقوله: **«لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَفْئَةٍ»** ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وروى البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَى النَّاسُ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتْبَاعِيَعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيظُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»** ورواه مسلم (مختصراً).

وقوله: **«يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا»** اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ إن بيننا وبينك قرابة، فأسررنا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: **«يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا»** وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي، وهذا قول، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن نجيح وغيره **«يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا»** قال: استخفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال الضحاك عن ابن عباس **«يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا»** يقول كأنك عالم بها، لست تعلمها **«قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ»** وكذا قال معمر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقرأ: **«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»** الآية، وهذا القول أرجح في المقام الأول، والله أعلم، ولهذا قال: **«قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»**.

ولهذا لما جاء جبريل ﷺ في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ **«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»** الآية، وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة، فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله» وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول بعد كل جواب: صدقت، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري، فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها» قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما، عن

جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين . ففيه أنه ﷺ كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته .

ولهذا روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم، فيقول: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم» يعني بذلك موتهم، الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة! وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله، ما على ظهر الأرض اليوم، من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم. وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن.

وروى الإمام أحمد: عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عز وجل، لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً» قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة «القتل»، قال: «ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً» لم يزوه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه .

وعن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية . ورواه النسائي، وهذا إسناد جيد قوي .

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، والمقفي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح: من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله، قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨)

١٨٨ - أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك، إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ روى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعلمت عملاً صالحاً. وكذا روى ابن أبي نجیح عن مجاهد، وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر! لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة^(١)، وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يُرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم .

والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس **﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾** أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر، وقال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم **﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** قال: لاجتنبت ما يكون من الشر، قبل أن يكون واقفته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: **﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾**.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾

١٨٩- ينيه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿وجعل منها زوجها لیسکن إليها﴾** أي: ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدة إلى التفرقة بين المرء وزوجه. **﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾** أي: وطئها حملت حملاً خفيفاً، وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة. وقوله: **﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾** قال مجاهد: استمرت بحمله، وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، وقال قتادة **﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾**: استبان حملها، وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء، قامت به وقعدت **﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾** أي: صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها **﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾** أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً **﴿لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** يذكر المفسرون هنا آثاراً وأحاديث، سأوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

وروى الإمام أحمد: عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: **﴿لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميته عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره﴾** وهكذا رواه ابن جرير والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم وابن مردويه. وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (١).

وروى ابن جرير: عن الحسن: عني بها ذرية آدم من أشرك منهم بعده، يعني **﴿جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا﴾**

(١) انظر تفصيلها في الأصل إن شئت.

آتَاهُمَا». وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهو دوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه، هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار: فروي عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لأدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله، ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ - إِلَى قَوْلِهِ - جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم.

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله صلى الله عليه وسلم: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث، فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث.

وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء، ليست هي التي يرمي بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح، إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَمْ

أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) ﴿

١٩١- هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تتنصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيُّ شَيْءٍ كَوَّنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً، ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطار، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل ﴿اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الآية.

١٩٢- ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه، ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُنُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، و كما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك، ويرتووا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطلبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان بالعدرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطلبه، ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مُسْتَدَن
لم تكُّ والكلبُ جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، و قتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

١٩٣- وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾.

١٩٤، ١٩٥- ثم ذكر تعالى أنها عبید مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها،

لأنها تسمع وتبصر وتبطنش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم.

١٩٦- ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي وكافيني، وهو نصيري، وعليه متكلي وإليه ألبأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وكقول الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وأباؤكم الأقدمون ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ الذي خلقني فهو يهدين ﴿الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

١٩٧- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَكم وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

١٩٨- وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل، لأنها على صورة مصورة كالإنسان، ﴿وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فعبّر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، وروى عن مجاهد نحوه، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

١٩٩- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني خذ ما عفي لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي، وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أنفق الفضل، وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: الفضل، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وقال هشام بن عروة عن أبيه بنحوه.

وفي صحيح البخاري: عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس. وهذا أشهر الأقوال. وقال البخاري قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ العرف: المعروف، ثم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة

فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، و كان من النضر الذين يدينهم عمر، و كان القُرَاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فدخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلا عليه، و كان وقافاً عند كتاب الله عز وجل.

انفرد بإخراجه البخاري.

وروى ابن أبي حاتم: أن سالم بن عبدالله بن عمر مرَّ على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهياً عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلُجُل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم، وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقول البخاري: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدي و قتادة و ابن جرير و غير واحد، حكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً و عارفاً و عارفةً، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، و بالإعراض عن الجاهلين، و ذلك و إن كان أمراً لنبيه ﷺ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم و اعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله و جهل وحدانيته، و هو للمسلمين حرب.

و قال قتادة: هذه أخلاقُ أمر الله بها نبيه ﷺ، و دلَّ عليها.

و قال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، و لا تكلفه فوق طاقته، و لا ما يخرجه، و إما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله و استعصى عليك، و استمر في جهله، فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ و ﴿قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ و ﴿أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ و قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ و ما يُلقأها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ أي: هذه الوصية ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ و قال في هذه السورة الكريمة أيضاً ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث، في الأعراف و المؤمنون و حم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، و لهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، و إنما يريد هلاكك و دمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك، و لأبيه من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: و إما يغضبنيك من الشيطان غضب، يصدك عن الإعراض عن الجاهل، و يحملك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك، و الاستعاذة به من نزغه، و لغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يذهب عنك نزغ الشيطان، و غير ذلك من أمور خلقه.

(قلت): وقد تقدم في أول الاستعاذة: حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمرغ غضباً، فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ف قيل له فقال: ما بي من جنون.

وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: **﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾** والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجاره من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير. وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

٢٠١- يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم أي: أصابهم طيف، وقرأ الآخرون **﴿طائفة﴾** وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان ف قيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسّره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسّره بالهمّ بالذنب، ومنهم من فسّره بإصابة الذنب، وقوله: **﴿تذكروا﴾** أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله، ورجعوا إليه من قريب **﴿فإذا هم مبصرون﴾** أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوتُ الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك» فقالت: بل أصبر ولا حساب علي. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت يا رسول الله، إنني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوتُ الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة» فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف. وأخرجه الحاكم.

٢٠٢- وقوله تعالى: **﴿وإخوانهم يمددوهم﴾** أي: وإخوان الشياطين من الإنس كقوله: **﴿إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين﴾** وهم أتباعهم، والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم **﴿يمدوهم في الغي﴾** أي: تساعدهم الشياطين على المعاصي، وتسهّلها عليهم وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد الزيادة، يعني يزيدونهم في الغي، يعني الجهل والسفه **﴿ثم لا يقصرون﴾** قيل: معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿وإخوانهم يمددوهم في الغي ثم لا يقصرون﴾** الآية، قال: لا، الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم.

وقيل: معناه. كما رواه العوفي عن ابن عباس قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس **﴿ثم لا يقصرون﴾** يقول: لا يسأمون، وكذا قال السدي وغيره: إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس، ولا تسأم من إمدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية **﴿لا يقصرون﴾** لا تفتريه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: **﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾** قال ابن عباس وغيره تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

٢٠٣- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وروى ابن جرير عن مجاهد قال: لولا اقتضيتها، قالوا تخرجها عن نفسك، وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال الضحاك ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله، حتى تراها وتؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فامتثل ما يوحى إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

٢٠٤- لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون، في قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الآية، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وكذا رواه أهل السنن. وروى ابن جرير عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان، و سلام على فلان، فجاء القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معي أنفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول مالي أنزع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ^(١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي.

وعن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به، سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء، أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام، لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من

(١) قوله: «فانتهى الناس عن القراءة... إلخ» ليس مرفوعاً في الحديث، وإنما هو مدرج من قول الزهري، بينه الخطيب واتفق عليه البخاري في التاريخ وأبوداود ويعقوب بن سفيان والذهلي والخطابي، انظر التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر (١/ ٢٣١).

الأدلة المتقدمة . وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً وهو عن جابر موقوفاً، وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم^(١).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** يعني في الصلاة المفروضة، كذا روى عن عبد الله بن المغفل . وروى ابن جرير: عن طلحة بن عبيد الله بن كرز قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلي ثم أقبل علي حديثهما، قال فأعدت فنظرا إلي وأقبل علي حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾**، وكذا روى سفيان الثوري عن مجاهد في قوله: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** قال: في الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقاتدة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وروى شعبة عن مجاهد في هذه الآية **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله، وعن سعيد بن جبير قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

﴿وَإِذْ ذَكَرَ رَبُّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبِحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴿

٢٠٥- يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾** وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية؛ وقال ههنا **﴿بِالْغُدُوِّ﴾** وهو أول النهار **﴿وَالْآصَالِ﴾** جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: **﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾** أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، بالقول لا جهراً، ولهذا قال: **﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً و جهراً بليغاً.

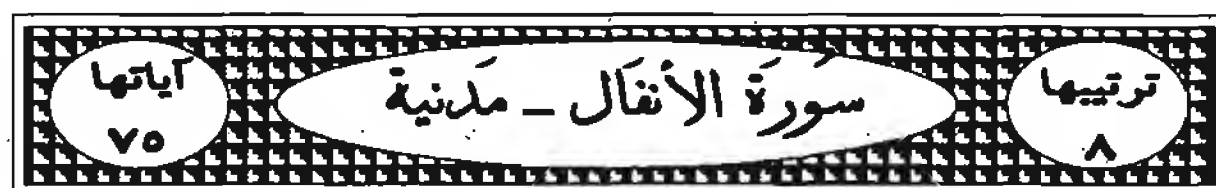
وفي الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

(١) وهذا هو الصواب الراجح في المسألة، والله أعلم.

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، و سبوا من أنزله، و سبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسمعهم، و ليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار؛ وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وقد زعم ابن جرير و قبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة.

وهذا بعيدٌ منافٍ للإنصات المأمور به، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم، أو في الصلاة والخطبة، و معلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهرًا، فهذا الذي قاله لم يُتابع عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين. ولهذا مدح الملائكة، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقترن بهم في كثرة طاعتهم و عبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ههنا، لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث «الأتصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يُتمون الصفوف الأول فالأول، و يتراصون في الصف».

وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها و مستمعها السجود بالإجماع.



وهي مدنية. آياتها سبعون وست آيات^(١). كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة. حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

١- قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغنم (ثم روى) عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. أما ما علقه عن ابن عباس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال» الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك و قتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: أنها المغنم.

وروى عبد الرزاق: عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سئل عن شيء قال لا أمرك ولا أنهاك، ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً أمراً محلاً محرماً. قال القاسم: فسلط على ابن عباس رجل، فسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل يُنفل فرس الرجل وسلاحه، فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم عاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبه أو على رجليه، فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص، من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما، وروى ابن المبارك وغير واحد عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. قال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا. ومعنى هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا، زيادة على قسمهم مع بقية الجيش. وقد صرح بذلك الشعبي. واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم. ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد: عن سعد بن مالك قال: قلت يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعت، ثم رجعت

(١) كذا، وفي تعداد آياتها في المصحف الذي بين أيدينا: خمس وسبعون.

فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلى بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيء؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ورواه أبو داود والترمذي النسائي وقال الترمذي حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: عن سعد قال: نزلت في أربع آيات أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبي ﷺ فقلت: نفلني، فقال: «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية، وقد رواه مسلم في صحيحه.

(سبب آخر في نزول الآية)

روى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له وابن حبان والحاكم من طرق: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان القوم، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغنم جاءت واطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإننا كنا رداء لكم، لو انكشفتم لفتتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها: أما الأنفال فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله، من غير أن يُخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى. قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء؛ وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله، على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه؛ فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم، بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل؛ قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي - فذكر الحديث إلى أن قال - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» وذكر تمام الحديث: ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض شيء، سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام، والنكاية في العدو.

وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع الأخرى: (فإحداهن): في النفل لاخمس فيه، وذلك السلب. (والثانية): النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس. (والثالثة): في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى. (والرابعة): في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن

يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب. قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي ﷺ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل (والوجه الثالث) من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فهو له بعد الخمس، فهو لهم على ما شرط الإمام، لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا انتهى كلامه، وفيما تقدم من كلامه وهو قوله إن غنائم بدر لم تخمس نظر، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارقية اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: واتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم، خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراد الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريم من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد، وقال السدي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره، وقال مجاهد ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فزعت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُلَاحِظْ أَسْفَاكًا وَمَنْ يُكْفِرْ بِاللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُمْ اللَّهُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه

الآية وأشباهاها: على زيادة الإيمان و تفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة، كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجانبه؛ ولا يطلبون الحوائج إلا منه؛ ولا يرغبون إلا إليه؛ ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ وأنه المتصرف في الملك لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

ولهذا قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله: جماع الإيمان.

٣- وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وإقامة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد، من واجب ومستحب. والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

٤- وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات، هم المؤمنون حق الإيمان. وقال عمرو بن مرة: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق، فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه، أنه فضل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم، فقال: «بلى والذي نفسي بيده، لرجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا»^(١).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

(١) وأنعمًا: أي زادا على المنزلة أو المرتبة. وقيل: حق لهما ذلك.

٥- قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شُبِّهَ به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا، ومعنى هذا: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحتم فيها، فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال، بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد، رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِقْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له.

(قلت): رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، مَنْ خَفَّ مِنْهُمْ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجا، وجاء النفيير فوردوا «ماء بدر» وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين، ونصرهم على عدوهم، والفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: عن أبي أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير، لعل الله أن يغنمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم إنهم قد أخبروا بخروجكم؟» فقلنا: لا والله، مالنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: وإذا لا نقول لك يا رسول الله، كما قال قوم موسى لموسى ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قال: فتمنينا معشر الأنصار، أن لو قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن

يكون لنا مال عظيم، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ: **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾** وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد **﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾** في القتال، وقال محمد بن إسحاق أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا له، وقال السدي **﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾** أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير: وقال آخرون: عني بذلك المشركين، (ثم روى) عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركين، جادلوه في الحق، كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعَوْنَ إلى الإسلام، وهم ينظرون. قال: وليس هذا من صفة الآخرين. هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله، لأن الذي قبل قوله **﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾** خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم. والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق: أنه خبر عن المؤمنين.

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم. وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق وهو أسير في وثاقه - إنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك. إسناد جيد ولم يخرج.

ومعنى قوله تعالى: **﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾** أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم، وهي العير **﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾** أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه، يرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾**.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾

٩- روى الإمام أحمد: عن ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾** فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسروا منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ:

«ماترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكّني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه؛ وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هَوَاةٌ للمشركين، هؤلاء صنّاديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال النبي ﷺ: «للذي عَرَضَ عَلَى أَصْحَابِكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَى عَذَابِكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» إلى قوله: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» فأحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: «أَوْلَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْرِبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» بأخذكم الفداء.

رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» في دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد بن يثيع والسدي وابن جريج. وروى البخاري في كتاب المغازي: باب قول الله تعالى: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» إلى قوله: «إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» عن ابن مسعود قال: شهدت من المقاداد ابن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا» ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله.

ثم روى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد» فأخذ أبوبكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» ورواه النسائي. وقوله تعالى: «بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» أي: يردف بعضهم بعضاً. كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس «مُرْدِفِينَ»: متتابعين. ويحتمل أن المراد «مُرْدِفِينَ» لكم، أي: نجدة لكم، كما قال العمري عن ابن عباس «مُرْدِفِينَ» يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل: زده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد «مُرْدِفِينَ» مُدِّين، وقال قابوس عن أبيه عن ابن عباس «وَمِدَّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» قال: وراء كل ملك ملك. وفي رواية بهذا الإسناد «مُرْدِفِينَ» قال بعضهم على أثر بعض، وكذا قال أبو ظبيان والضحاك و قتادة. والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةً، وميكائيل في خمسمائة مجنبة.

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير ومسلم: عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا

يومئذ سبعين وأسرؤا سبعين .

وقال البخاري : باب شهود الملائكة بدرأ : (ثم روى) عن معاذ بن رفاعة رافع الزرقى عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : «من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها» قال : «و كذلك مَنْ شهد بدرأ من الملائكة» انفراد بإخراجه البخاري .
وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : «إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ الآية . أي : وما جعل الله بعث الملائكة ، وإعلامه إياكم بهم ، إلا بشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ، ولهذا قال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ سيهديهم ويصلح بالهم ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، و عاداً الأولى بالدبور ، و ثمود بالصيحة ، و قوم لوط بالخسف والقلب و حجارة السجيل ، و قوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى و أهلك عدوه فرعون و قومه بالغرق في اليم ، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار ، و استمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ﴾ .

وقتل المؤمنين للكافرين : أشد إهانة للكافرين ، و أشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ و لهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم ، الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم ، أنكى لهم ، و أشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبي جهل في معركة القتال و حومة الوغى ، أشد إهانة له من موته على فراشه ، بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك ، كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، و إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد ، و رجموه حتى دفنوه ، و لهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي : له العزة و لرسوله و للمؤمنين بهما في الدنيا و الآخرة ، كقوله : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ .

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار ، مع القدرة على دمارهم و إهلاكهم ، بحوله و قوته سبحانه

وتعالى .

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١) إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان

(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمُ فَذُو قُوَّةٍ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴿

١١ - يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِقَاتِهِ النَّعَاسَ عَلَيْهِمْ، أَمَاناً أَمَّنَّهُمْ بِهِ مِنْ خَوْفِهِمْ، الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أَحَدٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية. قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ مِمَّنْ أَصَابَهُ النَّعَاسُ يَوْمَ أَحَدٍ، وَلَقَدْ سَقَطَ السِّيفُ مِنْ يَدِي مَرَّاراً يَسْقُطُ وَآخِذَهُ، وَيَسْقُطُ وَآخِذَهُ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ، وَهُمْ تَحْتَ الْحَجَفِ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمُقَدَّادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ (١). وَرَوَى سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّعَاسُ فِي الرَّأْسِ، وَالنَّوْمُ فِي الْقَلْبِ.

(قُلْتُ): أَمَا النَّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ، وَأَمْرٌ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جَدًّا، وَأَمَا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَهِيَ دَالَةٌ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَكَانَ ذَلِكَ كَائِنًا لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْيَأْسِ، لِتَكُونَ قُلُوبُهُمْ أَمَنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنُصْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. وَهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْعَرِشِ مَعَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَمَا يَدْعَوَانِ، أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِنَّةً مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مُتَبَسِّمًا فَقَالَ: «أَبْشِرِيَا أَبَا بَكْرُ، هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِيهِ النَّقْعُ» ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِشِ، وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّوْنَ الدُّبْنَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنزَلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَارَ إِلَى بَدْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ (٢) وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ، يَوْسُوسٌ بَيْنَهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَقَدْ غَلِبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ، وَأَنْتُمْ تَصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فَأَمَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطْرًا شَدِيدًا، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا، وَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ، وَثَبَتَ الرَّمْلُ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطْرُ وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالدُّوَابُّ، فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَأَمَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ جِبْرِيلُ فِي خَمْسَمِائَةِ مَجْنِبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسَمِائَةِ مَجْنِبَةٍ. وَكَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ رَوَى عَنْ قَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ وَالسُّدِّيَّ، وَقَدْ رَوَى عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمَسِيْبِ وَالشَّعْبِيِّ وَالزَّهْرِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: أَنَّهُ طَشَّ أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَطْرَ قَبْلَ النَّعَاسِ، فَأَطْفَأَ بِالْمَطْرِ الْغُبَارَ، وَتَلْبَدَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَطَابَتْ نَفُوسُهُمْ، وَثَبَّتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَابَنَا مِنَ اللَّيْلِ طَشٌّ مِنَ الْمَطْرِ - يَعْنِي اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي صَبِيحَتِهَا وَقَعَةُ بَدْرٍ - فَانْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ نَسْتُظِلُّ تَحْتَهَا مِنَ الْمَطْرِ، وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَرَضٌ

(١) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اِهْتِمَامِهِ بِحُصُولِ النَّصْرِ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ، وَحِرْصِهِ عَلَى نَجَاحِ دَعْوَتِهِ، وَلِجَوْنِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي وَقْتِ الْكُرْبَةِ وَالشَّدَةِ.

(٢) الدَّعَصُ وَالِدُّعَصَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الرَّمْلِ مُسْتَدِيرَةٌ، أَوْ الْكُثِيبُ مِنْهُ، الْمَجْتَمِعُ أَوْ الصَّغِيرُ. (الْقَامُوسُ).

على القتال .

وقوله : **﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾** أي : من حدث أصفر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر **﴿وَيُنْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾** أي : من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة **﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾** فهذا زينة الظاهر **﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾** أي : مطهراً لما كان من غلٍ أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن و طهارته **﴿وَلَيُرِيَنَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾** أي : بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن **﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾** وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .

١٢ - وقوله : **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** وهذه نعمة خفية ، أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها ، هو أنه تعالى و تقدس و تبارك و تمجد أوحى إلى الملائكة ، الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه و حزبه المؤمنين ، يوحى إليهم فيما بينه و بينهم ، أن يثبتوا الذين آمنوا ، قال ابن إسحاق : و آزرهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم ، وقيل : كثروا سوادهم ، وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاه ابن جرير ، وهذا لفظه بحروفه .

وقوله : **﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾** أي : ثبتوا أنتم المؤمنين ، و قووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألتني الرعب و الذلة و الصغار على من خالف أمري ، و كذب رسولي **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** أي : اضربوا الهام ففلقوها ، و احتزوا الرقاب فقطعوها ، و قطعوا الأطراف منهم ، وهي أيديهم و أرجلهم . و قد اختلف المفسرون في معنى **﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** فقيل : معناه اضربوا الرءوس . قاله عكرمة . و قيل معناه : أي : على الأعناق ، وهي الرقاب . قاله الضحاك و عطية العوفي ، ويشهد لهذا المعنى : أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَفْخَتْهُمُ فَشَدُّوا الوَتَاقِ﴾** . و اختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب و فلق الهام . وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق و على البنان ، مثل سمة النار قد أحرق به . و قوله : **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال ابن جرير : معناه و اضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف و مفصل ، من أطراف أيديهم و أرجلهم ، و البنان جمع بنانة .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** يعني بالبنان الأطراف . و كذا قال الضحاك و ابن جرير و السدي ، و قال عكرمة و عطية العوفي و الضحاك في رواية أخرى : كل مفصل ، و قال الأوزاعي في قوله تعالى : **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال : اضربوا منه الوجه و العين و ارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك . فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة و ستين رجلاً ، و أسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً ، فوقى ذلك سبعين يعني قتيلاً .

١٤ - و لهذا قال تعالى : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** أي : خالفوهما فساروا في شق ، و تركوا الشرع و الإيمان به و اتباعه في شق ، و مأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين **﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** أي : هو الطالب الغالب لمن خالفه و ناواه ، لا يفوته شيء ، و لا يقوم لغضبه شيء ، تبارك و تعالى لا إله غيره ، و لا رب سواه **﴿ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾** هذا خطاب

للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾

١٥- يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أي: تقاربتهم منهم وذنوتم إليهم ﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تفروا وتركوا أصحابكم.

١٦- ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير والسدي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه، ليرى غرة من العدو فيصيبها ﴿أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ أي: فر من ههنا إلى فئته أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره، أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة، لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيَّز إليّ لكنت له فئته. هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبو عبيدة قال عمر: أيها الناس أنا فتكم، وقال مجاهد قال عمر: أنا فئته كل مسلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئته إمامنا أو عسكرينا؟ فقال: إن الفئته رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه، فأما إن كان الفرار لاعتن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وماهن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وله شواهد من وجوه أخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وروى الطبراني: عن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعت أبي يحدث عن جدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ» وهكذا رواه أبو داود والترمذي^(١).

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأنه كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكروه. وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة. يروى هذا عن عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبي هريرة و أبي سعيد و أبي نضرة و نافع مولى ابن عمر

(١) أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٨٣٠) بزيادة: «الحي القيوم».

وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيثون إليها إلا عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض».

ولهذا روى عبد الله المبارك عن الحسن في قوله: «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ» قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر، أحسبه قال: فلا بأس عليه، وروى ابن المبارك عن يزيد أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالِ الْوَمُحِّيزِ إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» فلما كان يوم أحد بعد ذلك، قال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» ثم يتوب الله من بعد ذلك عَلَى مَنْ يَشَاءُ. وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرک الحاکم وتفسیر ابن جریر وابن مردويه عن أبي سعيد: أنه قال في هذه الآية: «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ» إنما أنزلت في أهل بدر.

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف من المواقف، كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ الْكَافِرِينَ (١٨) ﴾

١٧- بين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ» أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» الآية، وقال تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» يُعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَلَا بَلْبَسِ الْأُمَّةِ وَالْعَدَدِ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكتبهم بها لأنت.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر، فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وقد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة، أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً، وههنا قولان آخران غريبان جداً (أحدهما) روى ابن جرير: عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر

دعا بقوس فأتى بقوس طويلة، وقال: «جيشوني بقوس غيرها» فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم. (والثاني) روى ابن جرير أيضاً والحاكم في مستدرکه بإسناد صحيح: إلى سعيد بن المسيب الزهري أنهما قالوا: أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحرية، وهو في لأمته فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأداً عن فرسه مراراً، حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم، موصولاً بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً، ولعلهما أراد أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وروى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي: ليُعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث «وكل بلاء حسن أبلانا».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

١٨- وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَاذِبِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنهم كل مالهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾

١٩- يقول تعالى للكفار ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه، أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتكم، كما روى محمد بن إسحاق وغيره، أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة. وكان استفتاحاً منه، فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. ورواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم. وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ أي: إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له، وتظفيره على أعدائه. والأول أقوى. ﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه، فلا غالب له ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ

عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

٢٠- يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله ، و يزرهم عن مخالفته و التشبه بالكافرين به ، المعاندين له ، و لهذا قال : ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي : تتركوا طاعته و امتثال أوامره ، و ترك زواجه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي : بعد ما علمتم ما دعاكم إليه .

٢١- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل : المراد المشركون . و اختاره ابن جرير ، و قال ابن إسحاق : هم المنافقون ، فإنهم يُظهرون أنهم قد سمعوا و استجابوا ، و ليسوا كذلك .

٢٢- ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم سيء الخلق و الخليفة ، فقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْءُ﴾ أي : عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه ، و لهذا قال : ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية ، لأن كل دابة سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، و هؤلاء خلُقوا للعبادة فكفروا ، و لهذا شبههم بالأنعام في قوله : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ الآية ، و قال في الآية الأخرى : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ و قيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش . روي عن ابن عباس و مجاهد ، و اختاره ابن جرير . و قال محمد بن إسحاق : هم المنافقون . قلت : و لا منافاة بين المشركين و المنافقين في هذا ، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح ، و القصد إلى العمل الصالح .

٢٣- ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ، و لا قصد لهم صحيح ، لو فرض أن لهم فهماً ، فقال : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي : لأفهمهم ، و تقدير الكلام : ﴿وَلَوْ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم ، لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي : أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً و عناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

٢٤- قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ : أجيوا ، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : لما يصلحكم . (ثم روى) عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت فقال : «ما منعك أن تأيني؟ ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال : «لأعلمتك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ، و قال : «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثاني» و قد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقة في أول تفسير الفاتحة .

و قال مجاهد في قوله : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال للحق ، و قال قتادة : هو هذا القرآن فيه النجاة و البقاء و الحياة . و قال السدي : ففي الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر ، و روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي : للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، و قواكم بها بعد الضعف ، و منعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

و قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس : يحول بين المؤمن و بين الكفر ، و بين الكافر و بين الإيمان ، رواه الحاكم في مستدرکه موقوفاً ، و قال : صحيح و لم يخرجاه . و كذا

قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي، وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: حتى يتركه لا يعقل، وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية، وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقبلها» وهكذا رواه الترمذي.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن النّوّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه» وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه». وهكذا رواه النسائي وابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرَّفُها كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفَ القلوب، صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾

٢٥- يحذر تعالى عبادة المؤمنين فتنة أي اختباراً ومحنة يعم المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما روى الإمام أحمد: عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم! ضيعتم الخليفة الذي قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لم تكن نحسب أنا أهلها، حتى وقعت منا حيث وقعت. وقد رواه البزار. وروى النسائي عن الزبير نحو هذا، وروى ابن جرير نحوه. وعن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة. وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يُقروا المنكرين بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فأيكف استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن^(١) رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم. وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن؛ ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة

(١) ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وابتلاء.

وأفردوه بالتصنيف؛ ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد: عن عدي بن عميرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يُعَذِّبُ العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك، عَذَّبَ الله الخاصة والعامة».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوْنَ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»، (وفي رواية) «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونهم فلا يستجيب لكم».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد أيضاً: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء، مروا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو خرقتنا في نصيبنا خرقتنا، فاستقيناه منه ولم نُؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً». انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم والترمذي.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جبر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزُّ منهم وأمنع، لا يُغَيِّرُهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ، أو أصابهم العقاب» ورواه أبو داود وابن ماجه، وروى الإمام أحمد: عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهرَ السوء في الأرض، أنزلَ اللهُ بأهل الأرض بأسه» فقالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله».

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

٢٦- ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم، ومستضعفين خائفين فقواتهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة: قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقتلهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم، حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها، وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم، وبدلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر من نزلهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربيكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

٢٧- قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلوه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال يا رسول الله ﷺ: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(١).

وفي الصحيحين: قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش، يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

(قلت): والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾** الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. وقال في رواية: **﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** يقول: بترك سنته، وارتكاب معصيته.

وروى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم. وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون.

٢٨- وقوله: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** أي: اختبار وامتحان منه لكم، إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** وقال: **﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾** وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾** الآية.

وقوله: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** أي: ثوابه و عطاؤه و جناته خير لكم، من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للعالمين والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول الله تعالى: «يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتنك فانتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء» وفي الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) رواه الطبري في تفسيره.

«ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه». بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح: أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين». ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

٢٩- قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان «فُرْقَانًا»: مخرجاً، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس «فُرْقَانًا»: نجاة، وفي رواية عنه: نصراً وقال محمد بن إسحاق «فُرْقَانًا» أي: فصلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أو امره، وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره، ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو محوها؛ وغفرها سترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ

المآكرين (٣٠)﴾

٣٠- قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «لِيُثْبِتُوكَ» ليقيدوك، وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك، وقال السدي: الأثبات هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة، على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنا منه واجترأوا عليه، بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بإعبائه.

والدليل على صحة ما قلنا: ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس: أن نفرًا من قريش من أشرف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم رأيي ونصحي، قالوا: أجل ادخل، فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة إنما هو كأحدهم؛ قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم؛ قالوا: صدق الشيخ، فانظروا في غير هذا، قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع. إذا غاب عنكم أذاه، واسترحتم وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم

تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم؛ قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا، قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره؛ قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا و قطعنا عنا أذاه؛ قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى لا أرى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال»، يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده، **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء **﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِرَبِّ الْمُنُونِ﴾** فكان ذلك اليوم يسمى يوم «الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي. وعن السدي نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراج قوله تعالى: **﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنَّا لَا نَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى ابن عقبة و قتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك.

وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم: من حديث ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت، ومالي لا أبكي، وهؤلاء الملا من قريش في الحجر، يتعاهدون باللات والعزى ومائة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية اثيني بوضوء» فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، فطأوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شأهت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته، إلا قتل يوم بدر كافراً؛ ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة. وروى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله: **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾

٣١- يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعبادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تلى عليهم، أنهم يقولون: **﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾** وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدثوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم، ومن

تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو: النضر بن الحارث لعنه الله، كما قد نص على ذلك سعيد ابن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر، فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر، ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبتة صبراً بين يديه، ففعل ذلك والله الحمد، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير.

و معنى «**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**» وهو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى «**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**» ❖ **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**» أي: لمن تاب إليه وأناب، فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

٣٢- وقوله: «**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ**» هذا من كثرة جهلهم، وشدة تكذيبهم، وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: «**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**» «**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**» وقوله: «**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ**» وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: «**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**» وقال هؤلاء: «**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ**».

عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال «**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ**» فنزلت: «**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**» رواه البخاري. وروى عن ابن عباس قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله «**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ**» وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي: إنه النضر بن الحارث، زاد عطاء: فقال الله تعالى: «**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**» وقال: «**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**» وقال: «**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ**» قال عطاء: ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل.

وروى ابن مردويه: عن ابن بريدة عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فاخسف بي وبفرسي. وقال قتادة: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائده ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

٣٣- وقوله تعالى: «**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**» قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: ما كان الله ليُعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم، حتى يخرجهم، ثم قال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار، يستغفرون يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة، وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك، وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: اله؛ نين الذين كانوا بمكة.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين، لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداماً بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وََمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وروى ابن مردويه وابن جرير: عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا، وكذا روي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه: من حديث عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾

٣٤- يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم، وأرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم ملتبسون بها من الشرك والفساد، وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا، واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يُرَدُّ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم، روى ابن جرير: عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر، وكذا رواه ابن أبي حاتم. وروى أيضاً: عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا

الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ أي : وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة عنده و الطواف به ، ولهذا قال : ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أي : هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه ، كما قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَصَدَّقَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرْ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية . وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال : هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم . وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا .

٣٥- ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال عبد الله بن عمرو و ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبورجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس و نبيط بن شريط و قتادة و عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : هو الصفير ، وزاد مجاهد : وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم ، وقال السدي : المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له : المكاء ، ويكون بأرض الحجاز ، والتصديّة : التصفيق .

روى ابن أبي حاتم : عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال : كانت قریش تطوف بالبيت عراة تصفر و تصفق ، والمكاء : الصفير ، والتصديّة : التصفيق . وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ، وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك و قتادة و عطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا ، وقال عكرمة : كانوا يطوفون بالبيت على الشمال . قال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ، ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته ، وقال الزهري يستهزئون بالمؤمنين ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ قال : صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل .

قوله : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك و ابن جريج ومحمد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وروى ابن أبي حاتم : عن مجاهد : قال عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

٣٦- قال محمد بن إسحاق : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين عبد الرحمن قالوا : لما أصيبت قریش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبوسفیان بغيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية ، في رجال من قریش أصيب أبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر ، فكلّموا أباسفیان ابن حرب و من كانت له في تلك العير من قریش تجارة ، فقالوا : يا معشر

قريش إن محمداً قد وترككم و قتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ، ففعلوا ، قال : ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ و كذا روى عن مجاهد و سعيد بن جبير و الحكم بن عيينة و قتادة و السدي و ابن أزي : أنها نزلت في أبي سفيان و نفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ ، و قال الضحاك : نزلت في أهل بدر . و على كل تقدير فهي عامة : و إن كان سبب نزولها خاصاً ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي : ندامة حيث لم تُجد شيئاً ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، و ظهور كلمتهم على كلمة الحق ، و الله متم نوره ولو كره الكافرون ، و ناصر دينه ، و معلن كلمته و مظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، و لهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه ، و سمع بأذنه ما يسوءه ، و من قُتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي ، و العذاب السرمدي ؛ و لهذا قال : ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ .

٣٧- و قوله تعالى : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، و قال السدي : يميز المؤمن من الكافر ، و هذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة ، كقوله : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَّنا بَيْنَهُمُ﴾ الآية ، و قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِتُهُ يَتَفَرَّقُونَ﴾ و قال في الآية الأخرى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّعُونَ﴾ و قال تعالى : ﴿وَامْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيَّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ و يحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا ، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، و تكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله ، أي : إنما أقدراهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي : من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّجْمِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ و لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية ، و قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية ، و قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ و نظيرتها في براءة أيضاً .

فمعنى الآية على هذا : إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، و أقدراهم على إنفاق الأموال و بذلها في ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمهُ﴾ أي : يجمعه كله ، و هو جمع الشيء بعضه على بعض ، كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ أي : متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي : هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا و الآخرة .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) و قَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نَعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴿

٣٨- يقول تعالى لنبية ﷺ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي : عما هم فيه من الكفر و المشاقة و العناد ،

ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة **﴿يُغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾** أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح: من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ، لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخَذَ بِالْأُولَى وَالْآخِرِ» وفي الصحيح أيضاً: أن رسول الله قال: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا». وقوله: **﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾** أي: يستمروا على ما هم فيه **﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي: فقد مضت سنتنا في الأولين: أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة. قال مجاهد في قوله: **﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي: في قريش يوم بدر، وغيرها من الأمم، وقال السدي ومحمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.

٣٩- وقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** روى البخاري: عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه **﴿وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾** الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعير بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلى من أعير بالآية التي يقول الله عز وجل: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾** إلى آخر الآية، قال: فإن الله تعالى يقول: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾** قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام قليلاً فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد، قال: فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان، فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيديه، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

وروي: عن سعيد بن جبيرة قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على المثل. هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى. وروى أبو عوانة: عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قال ذو البطين - يعني أسامة بن زيد -: لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾**؟ فقالوا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه، وقال الضحاك عن ابن عباس **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾** يعني: لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن و قتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم. وقال الحسن و قتادة وابن جريج **﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** أن يقال: لا إله إلا الله. وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم **﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابها على الله عز وجل». وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة ويُقاتل حمية، ويُقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وقوله: ﴿فَإِنْ اتَّهَوَا﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ الآية، وفي الآية الأخرى ﴿فَإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اتَّهَوَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شققت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

٤٠- وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، فاعلموا أن الله مولاكم وسيدكم، وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

٤١- يبين تعالى تفصيل ما شرعه، مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة، بإحلال الغنائم. والغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفيء: ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصلحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضاً، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماس للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء، وهذه في الغنائم. ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام، يقول: لا منافاة بين آية الحشر، وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ تأكيداً لتخميس كل قليل وكثير، حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون هنا: فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس، يجعل في الكعبة. وقال آخرون: ذكر الله هنا استفتاحاً لكلام للتبرك، وسهم لرسوله ﷺ. (روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن أبي بريدة وقاتادة ومغيرة وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح: عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

ثم اختلف قائلوا هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربح الله وللرسول ﷺ، فما كان لله وللرسول: فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن بريدة قال: الذي لله فلبنيه، والذي للرسول لأزواجه، وقال عطاء بن أبي رباح: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ. وهذا أعم وأشمل، وهو أنه يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد: عن المقدم بن معديكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا، في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنمليته، فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيظ والمخيظ، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عارٌّ ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنجي الله به من الهم والغم» هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ نحوه، في قصة الخمس والنهي عن الغلول.

وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبدٌ أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين و عامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه: عن ابن عباس أن رسول الله تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفيّة من الصّفيّ. رواه أبو داود في سننه.

وروى أيضاً بإسناده والنسائي أيضاً: عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمرند إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأها، فإذا فيها «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش: إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله» فقلنا: من كتب هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ.

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوتها، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يُصنع به بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، روى هذا عن أبي بكر وعلي وقاتدة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين، وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق. وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾** فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة.

ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقراة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القراة لقراة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله.

وأما سهم ذوي القربى فإنه يُصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشَّعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بنو عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم وناذبوهم ومالوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية، أشد من غيرهم لشدة قربهم.

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال: علم الله أن في هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قراة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها. ثم روى عن أبي معشر عن سعيد المقبري قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله: عن ذوي القربى فكتب إليه ابن عباس كنا نقول: إننا هم، فأبى علينا ذلك قومنا، وقالوا: قريش كلها ذو قربى. وهذا الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرم: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره، إلى قوله: فأبى علينا ذلك قومنا، والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح ابن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِبْتُ

لكم عن غُسَالَةِ الأيدي ، لأنَّ لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم» هذا حديث حسن الإسناد ، والله أعلم .

وقوله : **﴿وَالْيَتَامَى﴾** أي : أيتام المسلمين ، واختلف العلماء : هل يختص بالأيتام الفقراء ، أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين : هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم **﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** هو المسافر ، أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك ، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقوله : **﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾** أي : امتثلوا ما شرعنا لكم ، من الخمس في الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما أنزلنا على رسوله . ولهذا جاء في الصحيحين : من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : «وَأمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : أمركم بالإيمان بالله ، ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم» الحديث بطوله ، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بَوَّب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه ، فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري ، والله الحمد المنة .

وقال مقاتل بن حيان **﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** أي : في القسمة ، وقوله : **﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه ، بما فرق به بين الحق والباطل بيدر ، ويسمى «الفرقان» لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ، ونصر نبيه وحزبه ، قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر ، فرَّق الله فيه بين الحق والباطل ، رواه الحاكم . وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقاتل بن حيان وغير واحد : أنه يوم بدر ، وروى عبد الرزاق : عن عروة بن الزبير في قوله : **﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روى الحاكم : عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى عشريتين ، فإن في صبيحتها يوم بدر . وقال : على شرطهما .

وروى ابن جرير : عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال الحسن بن علي : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان ، إسناد جيد قوي ^(١) ورواه ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن علي قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان ، في صبيحتها ليلة الجمعة ، لسبع عشر مضت من شهر رمضان ، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير . وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه : كان يوم بدر يوم الاثنين ، ولم يتابع على هذا ، وقول الجمهور مقدم عليه ، والله أعلم .

(١) مع أن ابن جرير رواه عن ابن حميد محمد الرازي ، وهو حافظ ضعيف .

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤٢)

٤٢- يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا، القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبوسفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ قال محمد بن إسحاق وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١).

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك: أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره، أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَن بَيْنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وقالت عائشة في قصة الأفك: فهلك في من هلك، أي: قال فيها ما قال من البهتان والإفك. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

٤٣- قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشبثاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك. وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ﴾ أي:

(١) رواه البخاري في المغازي (٧/ ٢٨٥) ومسلم في التوبة (٤/ ٢١٢١).

لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾** أي: من ذلك بأن أراكم قليلاً **﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** أي: بما تجنه الضمائر، و تنطوي عليه الأحشاء **﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورِ﴾**.

٤٤- وقوله: **﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾** وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم (روي) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقوله: **﴿وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾** روى ابن أبي حاتم عن عكرمة **﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنِ﴾** الآية، قال: حضض بعضهم على بعض. إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى: **﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** أي: ليلقي بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. ومعنى هذا: أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال، وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: **﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّيَمِّنِ الْفِئَةُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾** وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** (٤٦)

٤٥- هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾** ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وقال قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف.

وروى ابن أبي حاتم: عن عطاء قال: وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا، فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم **﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾** أي: قوتكم وحدثكم، وما كنتم فيه من الإقبال **﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما

أرشدتهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم، شرتاً وغرباً، في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والجيوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرةهم، إنه كريم تواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴿

٤٧- يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بظراً، أي: دفعا للحق ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء؛ صغرة أشقياء، في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية، حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤا له، وما هموا به، وأطعمهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بين جعشم سيد بني مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان، معه رايته، في صورة رجل من مدلج، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل ﷺ إلى إبليس؛ فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني

أخاف الله، والله شديد العقاب، وذلك حين رأى الملائكة.

وروى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير (نحوه). وهكذا روى عن السدي والضحاك والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم رحمهم الله، وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فلما نزلت الملائكة وراها إبليس، وأوحى الله إليهم: إني معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم فكروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، وهو في صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه، ثم قال: واللوات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً. هذا من أبي جهل لعنه الله، كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوْلَاءَ دِينُهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض: قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرَّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم. وكذا قال معمر.

وروى ابن جرير: عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيع الجناب، عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) ﴿

٥٠- يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. قال مجاهد: ﴿أَدْبَارَهُمْ﴾ أستاذهم، قال: يوم بدر. وروى وكيع عن مجاهد وعن سعيد بن جبير: يضربون وجوههم وأدبارهم، قال: وأستاذهم، ولكن الله يكتفي. وكذا قال عمر مولى غفرة.

وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ فِي عَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، بأمر ربهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد، أن تخرج قهراً، وذلك إذا بشرهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجني أيتها النفس الخبيثة، إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

٥١- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء، بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكيم العدل، الذي لا يجوز تبارك وتعالى وتقدس وتنزهه، الغني الحميد. ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم رحمه الله: من رواية أبي ذر رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

العقاب (٥٢)

٥٢- يقول تعالى: فَعَلَّ هَوْلَاءَ - من المشركين المكذبين - بما أرسلت يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وستتنا في أمثالهم، من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

٥٣- يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب

ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَالٍ﴾.

٥٤- وقوله: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتُمُ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾

٥٥، ٥٦- أخبر تعالى أن شر ما دبَّ على وجه الأرض: هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام.

٥٧- ﴿فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فَشَرَّدْتُمُ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: نكلت بهم. قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة، ومعناه: غلظ عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وقال السدي: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا، فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾
٥٨- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم على سواء، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على سواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك.

وعن الوليد بن مسلم ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: على مهل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكفار، لا يحبها أيضاً.

روى الإمام أحمد: عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا انقضت دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَلَا يَحِلُّنَّ عَقْدَةً وَلَا يَشْدَاهَا حَتَّىٰ يَنْقُضِي أَمْدَهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ: عمرو بن عبسة رضي الله عنه. وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه.

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا

مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

٥٩- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: يظنون. وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ❖ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُبْسِ الْمِهَادُ﴾.

٦٠- ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب، لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: مهما أمكنكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه. وروى الإمام مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيالُ لثلاثة، لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ ستر، وعلى رجلٍ وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرجٍ أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها وأرواتها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعقفاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً، فهي على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً، إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيالُ ثلاثة: فرسٌ للرحمن، وفرسٌ للشيطان، وفرسٌ للإنسان، فأما فرس الرحمن: فالذي يُربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله وذكر ما شاء الله، وأما فرس الشيطان: فالذي يُعاقر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان: فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من الفقر».

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

و روى الإمام أحمد: أن معاوية بن خديج مرَّ على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله: ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده ما من فرسٍ إلا وهو يدعو كل سحر، فيقول: اللهم أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده.

و روى (أيضاً): عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ، إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ،

أو أحب أهله و ماله إليه» رواه النسائي .

وروى أبو القاسم الطبراني : عن الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعني سهلاً - حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها مُعانون عليها ، و من رِبَطَ فرساً في سبيل الله ، كانت النفقة عليه ، كالمادِّ يده بالصدقة لا يقبضها» .
والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة .

وفي صحيح البخاري : عن عروة بن أبي الجعد البارقى : أن رسول الله ﷺ قال : «الخيْلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم» .

وقوله : «تُرْهِبُونَ» أي : تخوفون «بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» أي : من الكفار «وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ» قال مجاهد : يعني بني قريظة ، وقال السدي : فارس ، وقال ابن يمان : هم الشياطين التي في الدور . وقال مقاتل ابن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المنافقون ، وهذا أشبه الأقوال ، ويشهد له قوله تعالى : «وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» .

وقوله : «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» أي : مهما أنفقتم في الجهاد ، فإنه يوفي إليكم على التمام والكمال ، (ولهذا جاء) أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف ، كما تقدم في قوله تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبَّابٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» .

﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

٦١- يقول تعالى إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حربك ومناذتك فقاتلهم ﴿وَأِنْ جَنَحُوا﴾ أي : مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي : المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي : فعمل إليها ، واقتل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين الرسول ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية . وفيه نظر أيضاً ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم ، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، كما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية ، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ، والله أعلم . وقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي : صالحهم وتوكل على الله ، فإن الله كافيك وناصرك ، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ، ليتقوا ويستعدوا .

٦٢ ، ٦٣ - ﴿فَإِنْ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي : كافيك وحده . ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين ، المهاجرين والأنصار ، فقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي : جمعها على

الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْتَبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمن، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيماً في أفعاله وأحكامه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح، وروى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب، لم يرححها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ رواه الحاكم أيضاً. وعن عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد - ولقيته فأخذ بيدي - فقال: إذا التقى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفاقه مني. وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، وقال ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس: الألفة، وروى الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة، في يوم ربيع عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما، ولو كانت مثل زيد البحار»^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴿

٦٤ - يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَمَنَاجِزَةَ الْأَعْدَاءِ، وَمِبَارِزَةَ الْأَقْرَانِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ، أَي: كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ، وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَتَرَادَفَتْ أَمْدَادُهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ: حَسْبُكَ اللَّهُ، وَحَسَبٌ مِنْ شَهْدِ مَعَكَ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عِظَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ مِثْلَهُ.

(١) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٦) وفيه: «مثل زيد البحار».

٦٥- ولهذا قال: **«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»** أي: حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعدادهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض. فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ.

٦٦- ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين، وأمرأ: **«إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»** كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقية البشارة. روى ابن المبارك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: **«إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ»** شق ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف فقال: **«الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ»** إلى قوله: **«يَغْلِبُوا مِائَتِينَ»** قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري نحوه: وروى سعيد بن منصور: عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: **«الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا»** فلا ينبغي لمائة أن يفر من مائتين. وروى البخاري نحوه. وروى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والضحاك وغيرهم نحو ذلك.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦٩)

٦٨- روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال: وأنزل الله عز وجل: **«لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»**. وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وروى ابن مردويه أيضاً واللفظ له والحاكم عن ابن عمر عن النبي ﷺ لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال عمر:

أفأتهم؟ فقال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا، والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وماذا لك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبابكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾** الآية، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وعن علي بن أبي طالب قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خير أصحابك في الأسارى، إن شاءوا الفداء، وإن شاءوا القتل، على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا. رواه الترمذي والنسائي وابن حبان، وهذا حديث غريب جداً^(١).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾** فقرأ حتى بلغ **﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنني لا أعذب من عصاني، حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه أن لا يُعذب أحداً شهد بدرًا. ورؤي نحوه عن سعد بن أبي وقاص وسعيد بن جبيرة وعطاء، وقال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد: **﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾** أي: لهم بالمغفرة، ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾** يعني: في أم الكتاب الأول، أن المغنم والأسارى حلال لكم، لمسكم فيما أخذتم من الأسارى عذاب عظيم.

٦٩- قال الله تعالى: **﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾** الآية، وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى مثله عن أبي هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبيرة وعطاء والحسن البصري وقتادة والأعمش أيضاً أن المراد **﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾** لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً﴾**.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿لَمْ تَحُلْ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرَّءُوسِ غَيْرِنَا﴾**^(٢). ولهذا قال تعالى: **﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾** الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل بيني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

(١) رجال إسناده ثقات، وقد صححه الألباني كما في الإرواء (٥/ ٤٨).

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٢٩١) لكن فيه: «من قبلكم»، وتعامه: «كانت تنزل ناراً من السماء فتأكلها».

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

٧٠- في صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: لا، «والله لا تدرؤن منه درهماً» وروى يونس بن بكير عن الزهري عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد الله، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر»، قال: ماذا عندي يا رسول الله؟ قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ قلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم» قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية، في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. وقد روى ابن إسحاق أيضاً عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطاني الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فأتاني أربعين عبداً، وإني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله عز وجل.

(حديث آخر في ذلك) روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن أنس بن مالك قال: أتني رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي»، قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة وجاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحشا في ثوبه، ثم ذهب يقبله فلم يستطع، فقال: مَرَّبَعْضُهُمْ يَرْفَعُهُ إِلَيَّ، قال: «لا»، قال: فإرفعه أنت علي، قال: «لا» فشر منه ثم احتمله علي كاهله، ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره، حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثمَّ منها درهم. وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، وفي بعض السياقات أتم من هذا.

٧١- وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا

لك من الأقوال **﴿فَقَدْ خَاتُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾** أي: من قبل بدر بالكفر به: **﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾** أي: بالأسارى يوم بدر **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** أي: عليم بفعله، حكيم فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بصير (٧٢)

٧٢- ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين: خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء **﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾** أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين إخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عنه، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد.

روى الإمام أحمد: عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلاق من قريش والعنقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد. ورواه الحافظ أبو يعلى عن ابن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾** من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الآية، وقال: **﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة الآية.

وأحسن ما قيل في قوله: **﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾** أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ﴾** قرأ حمزة **﴿وَلَايَتِهِمْ﴾** بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة **﴿مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾** هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغنم نصيب، ولا في خمسها، إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى أحمد: عن بريدة بن الحُصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً،

وقال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفياء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر.

وقوله: «وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» الآية، يقول تعالى، وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم، فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ»، أي: مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

٧٣- لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم: عن أسامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافرًا، ولا كافر مسلمًا، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم».

وفي المسند والسنن: من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» وقال الترمذي حسن صحيح. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهرائي المشركين» ثم قال: «لا يترأى ناراهما»^(١).

وروى أبو داود في آخر كتاب الجهاد: عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله».

وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه: عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ قال: قال: إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات، أخرجه أبو داود والترمذي، ثم روى عن أبي هريرة رضي الله عنه (بنحوه).

ومعنى قوله: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس

(١) رواه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) والنسائي (٣٦ / ٨) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. وهو حديث حسن.

فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

٧٤- لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة، والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا يتقضي، ولا يُسَام ولا يُمل، لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان، والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية.

وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر، من طرقٍ صحيحة: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً فهو منهم» وفي رواية: حُشِرَ معهم. وروى الإمام أحمد: عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء لبعض، والطنقاء من قريش والعنقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة».

أما قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولاهم عصبية، بل يُدُلون بوارث كالأخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة، تشتمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء، اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشتمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» قالوا: فلو كان ذاق، لكان ذافرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال، والله الحمد والمنة وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ترتيبها ٩	سورة التوبة - مدنية	آياتها ١٢٩
--------------	---------------------	---------------

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

١ ، ٢ - هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما روى البخاري عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لم يسئل في أولها، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه (١). و أول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقوم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له، كما سيأتي بيانه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ الآية، ولما سيأتي في الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته. وهذا أحسن الأقوال وأقوالها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر، إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٣) ﴾

٣ - يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ

(١) وهو ﷺ متابع في هذا لرسول الله ﷺ إذ كانوا يكتبون الوحي بين يديه وبأمره.

خَيْرَ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَي : استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعَلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال .

روى البخاري رحمه الله : عن حميد عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر ، يؤذنون بمنى : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان . قال حميد : ثم أرفد النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب ، فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة : فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . (وزاد في رواية) : ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل : «الأكبر» من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، لم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرك . هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد .

وروى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله بعثه ببراءة مع أبي بكر ، فلما بلغ ذالحليفة ، قال : لا يُبلغها ، إلا أنا ، أو رجل من أهل بيتي ، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن يثيع رجل من هذيل : سألنا علياً : بأي شيء بعثت؟ يعني يوم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر في الحجة . قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ، ورواه الترمذي . وروى عبد الرزاق : عن أبي إسحاق : سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر؟ قال : يوم عرفة ، فقلت : أمن عندك أم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : كل في ذلك . وروى عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا : يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر . وقد ورد فيه حديث مرسل .

والقول الثاني : أنه يوم النحر . فعن علي رضي الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وروى عبد الرزاق : عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبيرة وعبد الله ابن شداد بن الهاد ونافع بن جبيرة بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر .

وروى ابن جرير : عن أبي بكر قال : لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير به ، وأخذ الناس يخطامه أو زمامه ، فقال : «أي يوم هذا؟» قال : فسكتنا ، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه ، فقال : «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح ، وأصله مخرج في الصحيح .

وقال سهل السراج : سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال : مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج بالناس ، رواه ابن أبي حاتم .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

٤ - هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته، وذلك بشرط: أن لا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته، ولهذا حَرَضَ تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

٥ - اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ماهي، فذهب ابن جرير: إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية الغوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة، المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة، التي حرمت عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور، أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتي بيان حكمها في آية أخرى، بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلم وحصونهم، الرصد في طرقهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق ﷺ في قتال مانعي الزكاة، على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين: الصلاة التي هي حق الله عزوجل، وبعدها أداء الزكاة، التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة،

وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبابكر ما كان أفقهه.

روى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف، التي قال فيها الضحاک بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد وكل مدة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد، إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق؛ وأذهب الشرط الأول. وروى ابن أبي حاتم: عن علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال الله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» هكذا رواه مختصراً^(١)، وأظن أن السيف الثاني: هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى: «فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»، (والسيف الثالث) قتال المنافقين في قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» الآية. (والرابع) قتال الباغين في قوله: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاک والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: «فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

٦- يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم «اسْتَجَارَكَ» أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: القرآن تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» أي: إنما شرعنا أماناً مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يُعطي الأمان لمن جاءه مستر شداً، أو في رسالة، كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم: عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، ومالم

(١) وفيه انقطاع.

يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لو لا أن الرسل لا تقتل، لضربت عنقك» وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه. والغرض: أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أُعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه؛ لكن قال العلماء: لا يجوز أن يُمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي، وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧)

٧- يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين، ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله، كافرون به ورسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ﴾ الآية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد، ومالوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا: الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره، وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان، والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨)

٨- يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم، والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهدٌ لشركهم بالله تعالى، وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين، وأدبلوا عليهم، لم يُيقوا

ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعمري عن ابن عباس: الإل: القربة، والذمة: العهد، وكذا قال الضحاك والسدي. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الإل الله؛ وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره، وروى ابن جرير: عن أبي مجلز قال: مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل، كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول زظهر وأشهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً (الإل): العهد. وقال قتادة: (الإل): الحلف.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

٩-١١ - يقول تعالى ذمًا للمشركين، وحثًا للمؤمنين على قتالهم ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله، بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

﴿ وَإِنْ نَكُثْنَا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

١٢ - يقول تعالى: ﴿وَإِنْ نَكُثْ﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم ﴿وَوَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه، ومن ههنا: أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف وعدد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر! فقال سعيد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه. وروى عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد. وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله، والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم، وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس، حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

١٣- وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوْلَٰمَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك، استمروا على وجههم طلباً للقتال، بغياً وتكبيراً، كما تقدم بسط ذلك، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة، أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهٗ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوتي، فييدي الأمر، وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن.

١٤، ١٥- ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم، الذي لا يجور أبداً، ولا يُضَيِّعُ مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا

الْمُؤْمِنِينَ وَرِجَّةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

١٦- يقول تعالى أم حسبتم أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَرِجَّةً﴾ أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمت أَرْضاً أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الْمُحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُتْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بين أن له فيه حكمة، وهو: اختبار عبيده من يطيعه ممن

يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

١٧- يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله، التي بينت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسها خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئي، والمشرك لقال: مشرك ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَٰئُهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يُكرم من زاره فيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، رواه ابن مردويه. وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه آخر، ليس هذا موضع بسطها^(١).

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

١٨- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول: مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، يقول: مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبية ﷺ ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهي: الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) والحديث قد صح مرفوعاً، والله الحمد والمنة، ولفظه: «من سمع النداء فلم يأت، فلا صلاة له إلا من عذر» رواه ابن ماجه (٧٩٣) والحاكم (١/ ٢٤٥، ٢٤٦) فقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قال، وكذا قال الحافظ في بلوغ المرام، وانظر الآراء (٥٥١).

اللَّهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يَبْشِرُهُمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ
وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

١٩- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب، حين أسر ببدر قال: لأن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. يعني: أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وروى عبد الرزاق عن الشعبي قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلمتا في ذلك، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية كلها، وهكذا قال السدي وذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، فعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رواه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

٢٣- أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾، أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية.

٢٤- ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقربائه وعشيرته، على الله ورسوله وجاهد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله:

«الآن يا عمر» انفرد بإخراجه البخاري . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» .

وروى الإمام أحمد : وأبو داود واللفظ له : من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

٢٥- قال ابن جريج عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من براءة .

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم ، وإحسانه لديهم ، في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وتأييده وتقديره ، لا بعددهم ولا بعددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً ، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، كما سنبيته إن شاء الله تعالى مفصلاً ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده ، وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وقد روى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» وهكذا رواه أبو داود والترمذي . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة ، في شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكما لها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف ، يقال له : حنين ، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك وكى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلاها لئلا تسرع السير وهو

ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة، ويقول: «إليّ يا عباد الله، إليّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فترجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شزيمة منهم عند رسول الله ﷺ، أمرهم ﷺ أن يصدّقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقباءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ. وروى الإمام أحمد (نحو ما سبق) وهكذا البيهقي في دلائل النبوة وابن إسحاق.

وفي الصحيحين: عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان.

٢٦- ولهذا قال تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ» أي: طمأنينته وثباته على رسوله «وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» أي: الذين معه «وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وهم الملائكة، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى أم برثن^(١): حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجالٌ بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: «شاهت الوجوه، ارجعوا» قال: فانهمنا وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فوكى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نؤلِّهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدماً، فحادت بغلته فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب»، فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً،

(١) في الأصل: مولى ابن برثن، والتصويب من تفسير ابن جرير (١٤/ ١٨٦)، والتهديب وغيرهما، وهو ابن آدم، تابعي صدوق.

قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت فجاءوا وسيوفهم بأيامهم كأنها الشهب، وولى المشركون أديبارهم، ورواه الإمام أحمد. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرتُ بالرعب، وأتيت جوامع الكلم» ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٧- وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير، ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة: مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه، كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله
في الناس كلهم بمثل محمد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

٢٨- أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بن في المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين. أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتى الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ. وروى عبد الرزاق: عن جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهييه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه: فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطع عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من

الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم .
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي : بما يصلحكم **﴿حَكِيمٌ﴾** أي : فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ، ولهذا عوّضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

٢٩ - وقوله تعالى : **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ ، لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً ، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشرّوا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء كفروا به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ، لأنه من الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم أفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾** .

وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك فنزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك ، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا ، والله أعلم .

وقوله : **﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾** أي : إن لم يسلموا **﴿عَنْ يَدٍ﴾** أي : عن قهر لهم وغلبة **﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** أي : ذليلون حقيرون مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ، ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء في صحيح مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» . ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة ، في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراريها وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ، ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحى منها ما كان خططاً للمسلمين ، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نجزم مقادير رؤوسنا ، وأن نلزم زيناً حيثما كنا ، وأن نشد الزناير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صليبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائين ولا بعوثاً ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ، ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

٣٠- وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى ، لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود : فقالوا في العزير : إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي : لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلافهم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي : يشابهون ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس : لعنهم الله ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟

٣١- وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق : عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدي إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيء

وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية **«اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ»** قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيقرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يقرك، أيقرك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: **«اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ»** إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا، وقال السدي: استنصحووا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: **«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا»** أي: الذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»** أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء، والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾

٣٢- يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب **«أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ»** أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بدّ أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه **«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»** والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال: **«يُعْجِبُ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ»**.

٣٣- ثم قال تعالى: **«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ»** فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة **«لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»** أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوى لي منها».

وروى الإمام أحمد: عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، يُعزّز عزيزاً، ويذلّ ذليلاً، عزّأ يعزه الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول: صدّ عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كافراً منهم الذل والصغار والجزية.

وفي المسند أيضاً: عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألسنت من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم

يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعْفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوفَ بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

وروى مسلم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعثُ الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٣٥)﴾

٣٤- قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإن الأحبار: هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون علماءهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِيسِيْنَ وَرُهْبَانًا﴾. والمقصود: التحذير من علماء السوء، وعُباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبهة من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبهة من النصارى.

وفي الحديث الصحيح: «لتركن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَآكُلُونَ مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباؤا بغضب من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سَبِيلِ

الله ﴿ الآيه ، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس ، كما قال ابن المبارك :

و هل أفسد الدين إلا الملوك و أحبار سوء و رهبانها

و أما الكنز : فروى مالك عن ابن عمر : هو المال لا تؤدى زكاته ، وروى الثوري وغيره عنه قال : ما أدى زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز . وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً ، وقال عمر بن الخطاب نحوه ، وروى البخاري : عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن عبدالعزيز وعراك بن مالك : نسخها قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية .

وقد جاء في مدح التقليل من الذهب والفضة ، ودم التكثير منهنما ، أحاديث كثيرة ، ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي .

روى الإمام أحمد : عن ثوبان قال : لما نزل في الذهب والفضة ما نزل : قالوا : فأى المال نتخذ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك ، فأوضع على بغير فأدرکه وأنا في أثره ، فقال : يا رسول الله ، أى المال نتخذ؟ قال : « قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » ورواه الترمذي وابن ماجه .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه : اثنتا بالشفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت ، إلا وأنا أخطمها وأزمها ، غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي ، واحفظوا ما أقول لكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا نَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي : يقال لهم هذا الكلام تبيكيتاً وتقريباً وتهكماً ، كما في قوله : ﴿ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي : هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكتنون لأنفسكم ، ولهذا يقال : مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً وَقَدَّمَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَذَّبَ بِهِ ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم ، عذبوا بها ، كما كان أبولهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك ، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ، في جيدها ، أي : عُنُقُهَا ﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ أي : تجمع من الحطب في النار ، وتلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ، ممن هو أشفق عليه في الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها ، كانت أضرب الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحتمى عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرهما ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . روى سفيان عن عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس ديناراً ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسّع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته . وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ، ولا يصح رفعه ، والله أعلم .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير : عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزاً مِثْلَ لَهْ يَوْمَ

القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنتُك الذي تركته بعدك، ولا يزال يتبعه حتى يُلْقِمه يده فيَقْضِمها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان، وأصل هذا الحديث في الصحيحين.

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يؤدي زكاة ماله، إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية: عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالريذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمِيقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم، ورواه ابن جرير فذكره، وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت إليه، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال: لي تنح قريباً، قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

(قلت): كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم يته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالريذة وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله، فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها، فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها عامة، وقال السدي: هي في أهل القبلة. وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحدٍ ذهباً، يمر على ثلاثة أيام وعندني منه شيء، إلا دينار أرصده لدين». فهذا - والله أعلم - هو الذي حدَّأبى ذر على القول بهذا.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية، فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً، قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تنوبك وللضيف ينزل بك؛ قال: إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهبٍ أو فضةٍ أو كئى عليه فهو جمرٌ على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل. وزاد (في رواية) إفراغاً.

وروى الإمام أحمد: عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله: «كيفة» ثم توفي رجل آخر، فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نار، يُكوى بها من قدمه إلى ذقنه».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

٣٦- روى الإمام أحمد: عن أبي بكر: أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً لا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليلنَّع الشاهد منكم الغائب، فليعمل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» رواه البخاري في التفسير وغيره ومسلم.

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسي ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمه الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسات النسيء، يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

وقوله تعالى: «**مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ**» فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم «البسل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله: «ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً

(١) قال العلماء: هذا من التشديد على المدين إذا لم يُرد الوفاء، وعدم صلاة الفاضل عليه.

وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشغلون بأداء المناسك، وحرّم بعده شهراً آخر وهو المحرم، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدّم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله: **«ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»** أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحدو بها على ما سبق من كتاب الله الأول، قال تعالى: **«فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ»** أي: في هذه الأشهر المحرمة، لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: **«وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»** وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: **«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ»** الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً، وعظّم حرّماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يُعظّم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه: اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظّموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور ما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال محمد بن إسحاق **«فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ»** أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر **«يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا»** الآية، وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: **«وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»** أي: جميعكم **«كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً»** أي: جميعهم **«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»** وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام، هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: (أحدهما): وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ههنا: **«فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ»** وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام، لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فلهم، لجؤوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقول تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَالشُّهُرَ الْحَرَامَ وَالْحَرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»** الآية، وقال: **«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ»** الآية، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: **«وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً»** فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه

حكم مستأنف، ويكون من باب التهيج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام، إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تنمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم، لأنه يُغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك^(١).

وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

٣٧- هذا مما ذم الله تعالى به المشركين، من تصرفهم في شرع الله بأرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامية والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم، فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله: الأشهر الأربعة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النسية: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحلّه للناس، فيحرم صفرًا عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عامًا، وعامًا يحرمونه. وروى العوفي عن ابن عباس نحوه.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً، فقال: كان أول من نَسَأَ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله عز وجل: القلمس، وهو: حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك... فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً، فحرم رجلاً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عامًا، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني ويحرم ما أحل الله. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التي وعد بها!

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

٣٨- هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال، في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿إِنَّا قَلَّمْنَا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض، وطيب الثمار ﴿أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: مالكم فعلتم هكذا؟ أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كما روى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة، انفراد بإخراجه مسلم. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الأعمش: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب. وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وُضع بين يديه نظر إليه، فقال: أمالي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولَّى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار، إن كان كثير لك قليل، وإن كان قليل لك قصير، وإن كنا منك في غرور.

٣٩- ثم توعده تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتأقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: لنصرة نبيه، وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتأقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ أنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم، ورده ابن جرير، وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

٤٠- يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة، لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه،

فخرج منهم هارباً، صحبة صديقه وصديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثار، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته، ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». كما روى الإمام أحمد: عن أنس: أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» أخرجاه في الصحيحين.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول صلى الله عليه وسلم، في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر، وروى عن ابن عباس وغيره قال: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم تزل معه سكينته. وهذا لا ينافي تجدد سكينته خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَيُّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا: الشرك، وكلمة الله هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجنب لا يضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

٤١- أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله، من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحثم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وعن أنس: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها، إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها^(١). وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل ابن حيان والشعبي وزيد بن أسلم، أنهم قالوا: في تفسير هذه الآية ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ كهولاً وشباناً، وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وكذا قال أبو صالح وغيره، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر، الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل، نفر إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة، وقد روى عن

(١) حديث صحيح، رواه أحمد في الزهد (٢٥٠، ٢٥١) وابن سعد (٣/ ٥٠٧) والحاكم (٣/ ٣٥٣) وقال: صحيح على شرط مسلم.

ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله. وروى ابن جرير عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا، ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عامًا واحدًا، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلًا. وروى ابن جرير: عن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة البعوث^(١) ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلًا، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه، أن يدخله الجنة، أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»^(٢)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومن هذا القبيل: ما رواه الإمام أحمد: عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم»، قال: أجدني كارهاً، قال: «أسلم ولو كنت كارهاً».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسِيحِلْفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢)

٤٢- يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿وَسِيحِلْفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) لا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

٤٣- روى ابن أبي حاتم: عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبه، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ (٤٣) لا يستعذرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤) إنما يستعذرك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

٤٣- روى ابن أبي حاتم: عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبه، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وكذا قال مورق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية. وكذا روى عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا

(١) في ابن جرير (١٤ / ٢٦٨): البحوث، وانظر التعليق عليه.

(٢) الحديث في الصحيحين.

رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعداء ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنتوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم فيه.

٤٤- ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو، أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَمَيِّنِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جتتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحIRON، يُقَدِّمُونَ رَجُلًا وَيُؤْخِرُونَ أُخْرَى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سيلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

٤٦- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخرهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قدراً.

٤٧- ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جنباء مخذولون ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم، ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحوونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين، وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار، وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال.

والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه، فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا، ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ وإذا لا تيناهم من لئنا أجراً عظيماً ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ والآيات في هذا

كثيرة.

﴿ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٤٨)

٤٨- يقول تعالى مُحَرِّضاً لِنَبِيِّهِ ﷺ على المنافقين ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخماده، مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلا كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٤٩)

٤٩- يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿الذَّنْ لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة «هل لك يا جدُّ العام في جلد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الآية.

أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد ابن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بني سلمة. وفي الصحيح^(١): أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، على إنا نبخله. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داءٍ أدوا من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض: بشر بن البراء بن معرور».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٠)

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١)

٥٠- يُعَلِّمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بَعْدَاوَةَ هَوْلَاءَ لَهُ، لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ، أَيْ: فَتْحٍ وَنَصْرٍ وَظَفَرٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ، مِمَّا يَسْرُهُ وَيَسِرُ أَصْحَابَهُ، سَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي:

(١) الحديث ليس في الصحيح! وإنما رواه الحاكم (٢/ ٢١٩) وأبو الشيخ في الأمثال (٩٤) وغيرهما بسند حسن. وله شاهد من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب مرسلاً، رواه يعقوب بن سفيان في تاريخه، وأبو الشيخ أيضاً. وله طرق وشواهد غير ما ذكرنا، راجع الإصابة (١/ ١٥٥). ولعل قد اشتبه على المصنف حديث جابر الذي رواه البخاري في الخمس (٦/ ٢٣٦) وفي المغازي (٨/ ٩٥) لما سأل أبا بكر ثلاثاً ثم قال: إما أن تعطيني وإما أن تبخل عني، قال أبو بكر: قلت تبخل عني؟ وأي داءٍ أدوا من البخل؟.

قد احترزنا من متابعتة من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئته وقدره ﴿وَهُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

٥٢- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: نتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: نتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: ليس لهم قدم صحيح، ولا همة في العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ «أن الله لا يمل حتى تملوا»^(١) و«أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(٢) فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة، ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

٥٥- يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقٌ رِّبْكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَن مَّا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم، وأشد لعذابهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

(١) رواه البخاري (١/١٠١)، (٣/٣٦) ومسلم (١/٥٤٢).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٢/٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

٥٦- يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم، وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يمينا مؤكدة ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف.

٥٧- ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أي: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يتحرزون به ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السَّرْبُ في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقاتدة ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فهذا كلما سُرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

٥٨- يقول تعالى ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم، وقال قتادة: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وهذا الذي ذكره قتادة، يشبه ما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة - واسمه حرقوص - لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل! فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قوم قتلوا تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث.

٥٩- ثم قال تعالى منبهاً لهم، على ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده. وهو قوله ﴿قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والافتقار بآثاره.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

٦٠- لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بينَ تعالى أنه هو الذي قسمها، وبينَ حكمها، وتولَّى أمرها بنفسه، ولم يكل قسَمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين.

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها، أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: (أحدهما) أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة (والثاني) أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويُعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذُكرت الأصناف ههنا لبيان المصروف، لا لوجوب استيعاب الإعطاء، ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

وإنما قدَّم الفقراء ههنا على البقية، لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، والجمهور على خلافه، وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد: أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف يتبع الناس، وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية، فأما الفقراء: فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وعن أبي هريرة مثله.

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرأهما جليدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيهما لغني، ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي. وأما المساكين: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوائف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غني يُغنيه، ولا يُقطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً» رواه الشيخان.

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة، يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحلُّ لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس».

وأما المؤلفات قلوبهم فأقسام: منهم من يُعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إليَّ، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ. ورواه مسلم والترمذي. ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة، من صنديد الطلقاء وأشرفهم: مائة من الإبل، مائة من

الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين: عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم». ومنهم من يُعطى لما يُرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلف على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة، أنهم: لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يعطون، لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب: فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما. وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة. وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق، أي: أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها، حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل «وما تُجزون إلا ما كنتم تعملون». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يُريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

وفي المسند: عن البراء بن عازب، قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله ذلني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النّسمة، وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أليسوا واحداً؟ قال: «لا، عتق النّسمة أن تفرّد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة، أو ضمن ديناً فلزمه، فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه، أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب: حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يُصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة، سُحّت يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي: «تصدّقوا عليه» فتصدق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم.

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث، وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد، ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده، وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفراً من بلده، وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكين تُصدق عليه منها فأهدى لغني».

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: حكماً مقدرًا بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بطواهر الأمور وبواطنها، وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره، ويحكم به لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦١)

٦١- يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣)

٦٢- قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله الآية (١).

٦٣- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد، والله ورسوله في حد ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: مهاناً معذباً و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

(١) أخرجه عنه ابن جرير (٣٢٩ / ١٤) بإسناد حسن، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٨٢٦ / ٦) عن أسباط عن السدي. وأسباط هو ابن نصر فيه ضعف، ولم أره مرفوعاً، والله أعلم. وعزه السيوطي في الدرر المنثور (٢٢٨ / ٤) لابن المنذر.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤)

٦٤- قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَبَشِّرِ الْمُصِيبِينَ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ - إلى قوله - وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة: الفاضحة، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ (٦٦)

٦٥- روى عبد الله بن وهب: عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب أسنأ، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيت متعلقاً بحقبة ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ؟﴾ الآية. وقد رواه الليث بنحو من هذا.

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أي: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨)

٦٧- يقول تعالى منكرًا على المنافقين، الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

٦٨- وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خالدين فيها﴾ أي: ماكنين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هي حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٦٩)

٦٩- يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما أصاب من قبلهم، وقوله: ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن: بدينهم. وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: في الكذب والباطل ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها، لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب، قال: «فمن». وهذا الحديث له شاهد في الصحيح^(١).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧٠)

٧٠- يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم، من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الفرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً عليه السلام ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام، وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم، وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة، وعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَمْوَى﴾ أي: الأمة المؤتفكة. وقيل: أم قراهم، وهي: سدوم. والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: يهلكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧١)

٧١- لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال:

(١) رواه البخاري في الاعتصام (١٣/ ٣٠٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. ورواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٥٤) من حديث أبي سعيد.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر». وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ من اتصف بهذه الصفات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المناققين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وِرْضَاؤَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)

٧٢- يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات، من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكين فيها أبداً ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: من حديث أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وبه قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مَجُوقَةٌ، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه.

وفيها أيضاً: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو حبس في أرضه التي ولد فيها» قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وعن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرْفَةَ في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين.

ثم ليُعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة. كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علي فسلوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو».

وفي صحيح مسلم: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلي علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا

لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة».

وفي مسند الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»، وروى عن ابن عمر مرفوعاً نحوه.

وعند الترمذي: من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام» ثم قال حديث غريب. ورواه الطبراني من حديث عبد الله ابن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم، مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك رحمه الله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾

٧٣- أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال بيده: «فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»^(١) فإن لم يستطع فليكفره في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم؛ وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين

بالكلام وهو مجاهدتهم؛ وعن مقاتل والربيع مثله .
وقال الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم .
وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم .

٧٤- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ . روى موسى بن عقبة عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حزنت على من أصيب بالحرّة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار، قال - ابن الفضل - : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوفى الله له بإذنه» قال: وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب: لئن كان صادقاً، فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، رواه البخاري في صحيحه - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بإذنه .

ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة المصطلق، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً تحت ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرق، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية .

وقوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُكُمْ يَنْتَالُوا﴾ قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وآله . وقيل في عبد الله بن أبي، هم بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجّوا عبد الله بن أبي، وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي صلى الله عليه وآله وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي، في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلاً. قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بين فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي فنادى: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله صلى الله عليه وآله يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وآله فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار هل عرفت القوم؟» فقال: لقد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وآله راحلته فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله صلى الله عليه وآله منهم ثلاثة، قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الأثنى عشر

(١) الزيادة من تفسير الطبري (١٤ / ٣٥٨) ورجاله ثقات، سوى شيخ الطبري وهو ابن وكيع، لكن عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

الباقيين ، حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

ويشهد لهذه القصة بالصحة : ما رواه مسلم : عن أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ، فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم ، فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله ، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ، ولا علمنا بما أراد القوم . وقد كان في حرة يمشي ، فقال : «إن الماء قليل ، فلا يسبقني إليه أحد» فوجد قوماً قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ .

وما رواه مسلم أيضاً : عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : «في أصحابي اثنا عشر منافقاً ، لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها ، حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكم الدبيلة ، سراجٌ من نار تظهر بين أكتافهم ، حتى ينجم في صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي : من تعيين جماعة من المنافقين ، وهم هؤلاء ، قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى : «**وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**» أي : وما للرسول عندهم ذنب ، إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويؤمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به ، كما قال ﷺ للأَنْصار : «ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي» كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنٌ .

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب ، كقوله : «**وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ**» الآية ، وقوله ﷺ : «ما ينقم ابنُ جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله» .

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة ، فقال : «**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**» أي : وإن يستمروا على طريقهم ، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ، أي : بالقتل والهـم والغم ، «**وَالْآخِرَةِ**» أي : بالعذاب والنكال والهوان والصغار «**وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**» أي : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً .

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامٌ**﴾

﴿الغُيُوبِ (٧٨)﴾

٧٥- يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ، لئن أغناه من فضله ، ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع : نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة ، عياداً بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم : ابن عباس والحسن البصري ، أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في

ثعلبة بن حاطب الأنصاري . وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم : عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة ابن حاطب الأنصاري : أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «ويحك يا ثعلبة ، قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» . . الحديث (١) .

وقوله تعالى : **﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾** الآية ، أي : أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الصحيحين : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» وله شواهد كثيرة ، والله أعلم .

٧٨- وقوله : **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾** الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم ، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها ، وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ، لأنه تعالى علام الغيوب ، أي : يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

٧٩- وهذا أيضاً من صفات المنافقين ، لا يسلم أحدٌ من عيبيهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحدٌ منهم بمال جزيل قالوا : هذا مرء ، وإن جاء بشيء يسير ، قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرأئي ، وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، فنزلت : **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾** الآية . وقد رواه مسلم أيضاً . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وجاء رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء . وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع . وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد .

وروي الحافظ أبو بكر البزار : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تصدقوا ، فإني أريد أن أبعث بعثاً» قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف ، فقال : يا رسول الله ، عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما ربي ، وألفين لعيالي ، فقال رسول الله ﷺ : «بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت» وبات رجل من الأنصار ، فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربي ، وصاع لعيالي ، قال : فلمزه المنافقون ، وقالوا : ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله : **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾** الآية .

وقوله : **﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾** هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر منهم ، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

(١) وهو حديث ضعيف منكر ، علي بن يزيد هو الألهاني متروك ، ومغان لين الحديث ، وقد ضعفه الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف فقال : إسناده ضعيف جداً ، وكذا شيخه الحافظ العراقي في تخريج الأحياء ، انظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (١٦٠٧) .

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٨٠)

٨٠- يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روى الشعبي: لما نقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه... فانطلق معه، حتى شهده وأبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه، فقيل له: أتصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولا تستغفرون لهم سبعين وسبعين وسبعين». وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة، ورواه ابن جرير بأسانيد^(١).

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢)

٨١- يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا ببقعودهم بعد خروجه و﴿كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما روى الإمام مالك: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتِينَ جِزَاءً» أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جِزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جِزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ فِي الْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ». وهذا أيضاً إسناده صحيح. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغَهُ، كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، لَا يَرَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ عَذَاباً مِنْهُ، وَإِنَّ أَهْلَهُمْ عَذَاباً» أخرجاه في الصحيحين.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنظَىٰ ❖ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنصَبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ❖ يُصَهَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ❖ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ❖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون

(١) وهو بنحوه في الصحيحين، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ...﴾ (٨٤).

وفهمون، لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمُستجير من الرمضاء بالنار.

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا، وصاروا إلى الله عزوجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقبلي وزيد بن أسلم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣)

٨٣- يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثنا عشر رجلاً ﴿فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزبوا لهم، وعقوبة ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية. فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله في عمرة الحديبية ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي: مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤)

٨٤- أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما روى البخاري: عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وكذا رواه مسلم.

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا: فروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما توفي عبدالله بن أبي، دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة، تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي، القائل يوم كذا وكذا وكذا - يُعدّد أيامه -؟ قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم، حتى إذا أكثرت عليه، قال: أخرني يا عمر، إنني خيّرْتُ فاخترت، قد قيل لي: «استغفِرْ لَهُمْ» الآية. لو أعلم أني لو زدتُ على السبعين غُفْرَ له لزدتُ قال: ثم صلّى عليه، ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله أعلم. قال: فوالله ما كان إلا يسيراً، حتى نزلت هاتان الآيتان «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَا تَأْتِيهِ الْآيَةُ»، فما صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل. وهكذا رواه الترمذي في التفسير ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأت، لم تنزل نعيّاً بهذا، فاتاه النبي صلى الله عليه وسلم فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه؟» فأخرج من حفرته، وتقل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه. ورواه النسائي، وروى البخاري ومسلم نحوه. وقد ذكر بعض السلف: إنما كساه قميصه، لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس، طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي، لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلم مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه، لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دُعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيراً، قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك، قال لأهلها: «شأنكم بها» ولم يصل عليها.

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة، وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر إنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة، كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في الصحاح وغيرها: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانٌ» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد».

وأما القيام عند قبر المؤمن من إذا مات، فروى أبو داود: عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم»، وأسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسئل» انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

٨٥- تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

٨٦- يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة، ووجود السعة والطول،

واستأذِنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار، والقعود في البلد مع

النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس

كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ جِلْدًا﴾ أي: عُلَّتْ أَسْتَنَّهُمْ بالكلام الحاد القوي في

الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، كما قال الشاعر:

أفي السِّلْمِ أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أشباهُ النساءِ العوارك؟

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ

فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد، والخروج مع الرسول في سبيل الله

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم في تجنبوه.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

٨٨، ٨٩- لما ذكر تعالى ذم المنافقين، وبين ثناءه على المؤمنين، ومالهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾

أي: في الدار الآخرة في جنات الفردوس، والدرجات العلى.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

٩٠- ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبيّنون

له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك

عن ابن عباس: إنه كان يقرأ ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتخفيف، ويقول هم أهل العذر، وكذا عن مجاهد سواء.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم

يأتوا فيعتذروا، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر، والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَلَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار. ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) ﴿

٩١، ٩٢- ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه: العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا، ونصحوا في حال قعودهم، ولم يُرَجَفوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال ابن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: أستم مقررين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة، فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم، فسقوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة. (وقيل غيرهم). وفي الصحيحين: من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَاذْيَاءَ، وَلَا سَرْتَمَ مَسِيرًا، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: «نعم، حبسهم العذر». وروى الإمام أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ خَلَفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا قَطَعْتُمْ وَاذْيَاءَ، وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا، إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» ورواه مسلم وابن ماجه.

٩٣- ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم، بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرِّحَالِ ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ

الفاسقين ﴿٩٦﴾

٩٤- أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة، أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسِيرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها، ويجزيكم عليها.

٩٥- ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم، معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، أي: من الآثام والخطايا.

٩٦- وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سُميت الفارة فويسقة، لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة، إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
 ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٧- أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم، أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفًّا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفْلًا، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنًا» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾.

ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ، فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت أن لا أقبل هدية، إلا من قرشي، أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي» لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث الأعراب في تقبيل الولد): روى مسلم: عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمَلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ!» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يُعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين

عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

٩٨- وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم، والسوء دائر عليهم ﴿وَإِلَهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

٩٩- وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله، ويتغنون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

١٠٠- يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم؛ قال الشعبي: السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فيأويل من أبيضهم أو سبهم، أو أبيض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم: أبابكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة، يُعادون أفضل الصحابة، ويغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة: فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون.

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١)

١٠١- يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه: أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مَرَتُوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مرید ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتأ وتجر، وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً، وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾

أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى عبد الرزاق: عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكفون علم الناس؟ فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه، قال: لا أدري، لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال نبي الله شعيب ﷺ: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وكذا قال قتادة. وقال عبد الرحمن ابن زيد: أما عذاب في الدنيا: فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢)

١٠٢ - لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها، وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين، الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقرروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين، المخلطين المتلوثين، وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

وقال ابن عباس^(١): ﴿وَأَخْرُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه؛ فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم.

وروى البخاري: عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقتنا رجال، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالوا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن، وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخاري

(١) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه، كما في تفسير الطبري (١٤ / ٤٤٧ - ٤٤٨).

مختصراً في تفسير هذه الآية .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴿

١٠٣ - أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة، يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام، وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب: أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية، وقد ردّ عليهم هذا التأويل، والفهم الفاسد، أبو بكر الصديق، وسائر الصحابة، وقتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عنقاً - وفي رواية: عقالا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه: عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم^(١)، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلّ علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٢).

وقوله: ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ صَلَّوْا تَكَ ﴾ على الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ ﴾ على الأفراد. قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك، ومن هو أهل له.

١٠٤ - وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة، اللتين كل منهما يحط الذنوب، ويُمَحِّصُهَا وَيَمَحِّقُهَا، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه، فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، كما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾، وقوله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾.

وروى الثوري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل، قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾.

﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

(١) أي: دعاهم.

(٢) رواه أبو داود (١٥٣٣).

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

١٠٥ - قال مجاهد: هذا وعيدٌ يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، وهذا كائنٌ لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا.

وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حُسن عملٍ امرئٍ مسلم، فقل: ﴿اعْمَلُوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بم يُختم له، فإن العامل يعمل زماناً من عمره، أو برهة من دهره بعملٍ صالح، لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحوّل فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد يعمل البرهة من دهره بعملٍ سيء، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحوّل فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يُوفِّقه لعملٍ صالح، ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يُعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم (١٠٦)﴾

١٠٦ - قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلاً وميلاً إلى الدعة، والحفظ، وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجئ هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذلك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)﴾ لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يومٍ أحق أن تقوم فيه فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا والله يحب

﴿المطهرين (١٠٨)﴾

١٠٧ - سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها، رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرَقَ اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يُمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوق في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكُسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا نعم الله بك عيناً، يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر؛ وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالت هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يَعدُّهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك؛ فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم - مسجد قباء - الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار، بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم، وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعونا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً» إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وروي محمد بن إسحاق بن يسار: عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو ابن قتادة وغيرهم (نحو ما سبق) وفيه: فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن ابن عدي، أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرِّقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد، وفيه أهله، فحرِّقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا» إلى آخر القصة .

وقوله : «وَلِيَحْلِفُنَّ» أي : الذين بنوه «إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى» أي : ما أردنا بينياته إلا خيراً ، ورفقاً بالناس ، قال الله تعالى : «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» أي : فيما قصدوا وفيما نوا ، وإنما بنوه ضِرَارًا لمسجد قباء ، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو : أبو عامر الفاسق ، الذي يقال له : الراهب لعنه الله .

١٠٨ - وقوله : «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك ، ، عن أن يقوم فيه ، أي : يصلي أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء ، الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهي : طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : «لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجد قباء كعمرة» .

وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً .

وروى أبو داود : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «نزلت هذه الآية في أهل قباء» **«فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا»** قال : كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت فيهم هذه الآية . رواه الترمذي وابن ماجه .
وروى الإمام أحمد : عن عويم بن ساعدة الأنصاري : أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء ، فقال : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي الطُّهُورِ ، فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطْهَرُونَ بِهِ؟» فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً ، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه .

وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة ، هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى .

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد : عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال : أحدهما هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «هو مسجدي» وكذا رواه الترمذي والنسائي ، ورواه مسلم كما سيأتي .

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد : عن حميد الخراط المدني : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، فقلت : كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال : إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيتٍ لبعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله : أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال : فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : «هو مسجدكم هذا» ثم قال : سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب ، وابنه

عبدالله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير.
 وقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة، المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين، المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابس القاذورات.

وقد روى الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهمهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن: إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين.
 فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها، وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: التوبة من الذنب والتطهر من الشرك، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها: أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء.

﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

١٠٩ - يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وإنما بيني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي: طرف حفيرة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر بن عبدالله: رأيت المسجد الذي بُني ضراراً، يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة.

١١٠ - وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابِدو العجل حبه، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

١١١- يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه، بما تفضل به على عبده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم - والله - فأغلى ثمنهم: وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قبل هذا العقد ووفى به.

وقوله: **﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾** أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة. ولهذا جاء في الصحيحين: «وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَتَصَدِّقُ بَرَسَلِي، بَأَنْ تُوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَانَالًا مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ».

وقوله: **﴿وَعَدْنَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾** تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: **﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾** فإنه لا يخلف الميعاد. هذا كقوله: **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾** **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾** ولهذا قال: **﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** أي: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

١١٢- هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، بهذه الصفات الجميلة، والخلال الجليلة **﴿التَّائِبُونَ﴾** من الذنوب كلها، التاركون للفواحش **﴿العابِدُونَ﴾** أي: القائمون بعبادة ربهم، محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال. فمن أخص الأقوال: الحمد، فلهذا قال: **﴿الحامِدُونَ﴾** ومن أفضل الأعمال: الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام، والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: **﴿السَّائِحُونَ﴾** كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك، في قوله تعالى: **﴿سَائِحَاتٍ﴾** أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: **﴿الراكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾** وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله، بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق، ونصح الخلق، ولهذا قال: **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: **﴿السَّائِحُونَ﴾**:

الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبيرة والعمري عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبيرة وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين:

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: «السائحون»: الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبير والعمري عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقال الحسن البصري «السائحون» الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدى «السائحون» الذين يديمون الصيام من المؤمنين، وهذا أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد: وهو ما روى أبو داود في سننه: من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي: الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل: غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».

وقال العمري وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «والحافظون لحُدودِ الله» قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية «الحافظون لحُدودِ الله» قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾

١١٣- روى الإمام أحمد: عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طلب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لا تستغفرون لك ما لم أنه عنك» فنزلت «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» قال: ونزلت فيه «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أخرجاه.

وروى الإمام أحمد: عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه. وعيناه تذرغان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدعمت عيناى رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية،

فاشربوا في أي وعاء شتتم، ولا تشربوا مُسْكراً».

وروى ابن جرير: عن سليمان بن بريدة عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رَسْمَ قَبْرِ فِجْلَسِ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَخَاطِبُ، ثُمَّ قَامَ مُسْتَعْبِراً، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَا مَا صَنَعْتَ. قَالَ: «إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي، فَأَذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتَهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي» فَمَا رُئِيَ بَاكِياً أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِئِذٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمْسَكُوا عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِأَمْوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَنْهَوْا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْأَحْيَاءِ حَتَّى يَمُوتُوا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ» الْآيَةَ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَاتَ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ وَلَهُ ابْنٌ مُسْلِمٌ فَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: فَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ وَيُدْفَنَهُ، وَيَدْعُو لَهُ بِالصَّلَاحِ مَا دَامَ حَيًّا، فَإِذَا مَاتَ وَكَلَّهُ إِلَى شَأْنِهِ، ثُمَّ قَالَ «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ» إِلَى قَوْلِهِ «تَبْرَأُ مِنْهُ» لَمْ يَدْعُ.

وَشَهِدَ لَهُ بِالصَّحَّةِ: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ: عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَمَكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ، قَالَ: «أَذْهَبْ فَوَارِهِ وَلَا تَحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنِي» فَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ: مَا كُنْتُ لِأَدْعُ الصَّلَاةَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ، وَلَوْ كَانَتْ حَبْشِيَّةً حَبْلِي مِنْ الزَّانَا، لِأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ اللَّهَ حَجَبَ الصَّلَاةِ إِلَّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: إِنَّهُ يَتَبَرَأُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَلْقَى أَبَاهُ، وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتْرَةَ وَالغُبْرَةَ، فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمَ، إِنِّي كُنْتُ أَعْصِيكَ، وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تَعْدِنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يَبْعَثُونَ؟ فَأَيُّ خَزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ، فَإِذَا هُوَ بِذَيْخٍ مُتَلَطِّخٍ - أَيُّ: قَدْ مُسَخَّضٌ ضَبْعاً - ثُمَّ يَسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقِي فِي النَّارِ (١).

وَقَوْلُهُ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهٌ حَلِيمٌ» رَوَى سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: الْأَوَاهُ الدَّعَاءُ. وَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَرَوَى الثَّوْرِيُّ: عَنْ أَبِي الْعُبَيْدِينَ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأَوَاهِ، فَقَالَ: هُوَ الرَّحِيمُ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبِي مَيْسَرَةَ عَمْرُو بْنُ شَرْحَبِيلٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا، أَيُّ: الرَّحِيمُ، أَيُّ: بَعْبَادُ اللَّهِ، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْأَوَاهُ الْمَوْقِنُ، بِلِسَانِ الْحَبْشَةِ، وَكَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ: الْمَوْقِنُ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَمُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَوَاهُ الْمُؤْمِنُ، زَادَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ: هُوَ الْمُؤْمِنُ التَّوَابُ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: هُوَ الْمُؤْمِنُ بِلِسَانِ الْحَبْشَةِ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالشَّعْبِيُّ: الْأَوَاهُ: الْمَسْبُوحُ. وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: الْمُحَافِظُ عَلَى سَبْحَةِ الضُّحَى: الْأَوَاهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بَنُ جَرِيرٍ: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ الدَّعَاءُ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاقِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ كَثِيرَ الدَّعَاءِ، حَلِيماً

(١) - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَنْبِيَاءِ (٦ / ٣٨٧) وَفِي التَّفْسِيرِ (٨ / ٤٩٩) مُخْتَصِراً مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنِ إِلَهِتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيئًا﴾ قَالَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيئًا﴾ فحلّم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١١٦)

١١٥ - يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، وحكمه العادل، إنه لا يُضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ الآية، وقال مجاهد: بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشكرين بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به ورسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه فتركوا، فأما قبل أن يُبين لكم كراهة ذلك بالنهاي عنه، فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

١١٦ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه، فإنه لأولى لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

وروى ابن أبي حاتم: عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: وما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تنظ، وما فيها من موضع شبر، إلا وعليه ملكٌ ساجد أو قائم».

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧)

١١٧ - قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، في سنة مُجدبة، وحر شديد وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

روى ابن جرير: عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العُسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا

ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عز وجل قد عوّدك في الدعاء خيراً ، فادع لنا ، فقال : تحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ثم سكنت ، فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر .
 وقال ابن جرير في قوله : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي : من النفقة والظهر والزاد والماء . ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب ، للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزاهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾

١١٨ - روى الإمام أحمد : عن عبيد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، لقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصغر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن ارتحل فألحقهم وليتني أني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : «ما فعل

كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بُرداه، والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: قد بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بشي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله، لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه، إني لأرجو عقيب ذلك من الله عزوجل، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي أحداً؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالوا مثل ما قلت، وتيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرأ، لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني؛ حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: ففاضت عيناوي وتوليت حتى تسورت الجدار، فيينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا أنا بنبطي من أنباط ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل علي كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنيت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دارهوان ولا مضیعة، فألحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من

الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يا مارك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقني بأهلك فكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخٌ ضعيفٌ ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: فإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت فيها رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة بلال ابن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته، وأنا رجل شاب، قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني، نزعته له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته له، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفون بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة بن عبد الله يهزول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشُرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يُعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك» قال: فقلت: فأنى أمسك سهمي الذي بخبير، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدتُ كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل

الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآءُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلْفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا، بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عن خلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبها الصحيح البخاري ومسلم، فقد تضمن هذا الحديث: تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما قال جابر ابن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلْفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد. وقوله: فسموا رجلين شهدا بدرًا. قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

١١٩ - ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضائق عليهم أنفسهم، وضائق عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا.

وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا» أخرجاه في الصحيحين.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرأوا إن شئتم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع محمد رضي الله عنه وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

﴿المُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠)

١٢٠- يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَرَغِبْتَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مَوَاسَاتِهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، لِأَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيْبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وَهُوَ الْعَطَشُ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وَهُوَ التَّعَبُ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وَهِيَ الْمَجَاعَةُ ﴿وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أَي: يَنْزِلُونَ مِنْزَلًا يُرْهَبُ عَدُوَّهُمْ ﴿وَلَا يَنْتَالُونَ﴾ مِنْهُ ظَفْرًا وَغَلْبَةً عَلَيْهِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ، الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قَدْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَعْمَالِهِمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً وَثَوَابًا جَزِيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا

﴿يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١)

١٢١- يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ﴾ هُوَ لَاءُ الْغَزَاةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَي: قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَي: فِي السَّيْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقْلُ هُنَا بِيَهُ، لِأَنَّ هَذِهِ أَعْمَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حِظٌّ وَافِرٌ، وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ النِّفَقَاتِ الْجَلِيلَةَ، وَالْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: جَاءَ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ، حَتَّى جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ «الْعُسْرَةِ» قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حَجَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَأَيْتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقْبَلُهَا بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» يَرُدُّهَا مَرَاراً.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الْآيَةَ، مَا أَزْدَادَ قَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُعَدُّ مِنْ أَهْلِهِمْ، إِلَّا أَزْدَادُوا قُرْبًا مِنَ اللَّهِ.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

١٢٢- هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ النَّفِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: فَنَسَخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ يَقَالُ: إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا، وَشِرْذِمَةٌ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلَّهُمْ، لِيَتَفَقَّهُوا الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا النَّفِيرِ الْمَعِينِ، وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ، إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ وَإِمَّا لِلجِهَادِ، فَإِنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ عَلَى الْأَحْيَاءِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا وَيَتْرَكُوا النَّبِيَّ ﷺ وَحْدَهُ ﴿فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَعْنِي: عَصَبَةٌ، يَعْنِي: السَّرَايَا وَلَا يَتَسَرَّوْا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا

وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾** يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم **﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما يتفعلون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وحثمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا وأقبلوا من البادية كلهم، حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل: **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾** يبغون الخير **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾** وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم **﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾** الناس كلهم إذا رجعوا إليهم **﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله أن لا يُعَرِّوا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه، لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعدار، وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن، تلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا، فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾** يقول إذا أقام رسول الله **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾** يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا، وقعد معه معظم الناس.

وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية: إنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعوا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجذبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ عليه وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرتهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله: **﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾** الآية (١).

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية **﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** **﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾** الآية، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو، الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾** الآية، ونزلت: **﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾**. وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقه الذين خرجوا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

(١) وقد اختار الطبري أن معنى الآية: أن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا في غزو وجهاد وغير ذلك من أمورهم ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً، ولكن عليهم إذا سرى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معها من كل قبيلة طائفة. وهو القول الأول عن ابن عباس هنا، وقول قتادة والضحاك: ر الله أعلم.

١٢٣ - أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس، وجذب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبيّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمّله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده: الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقتها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسى الإسلام رياسة حلة سابعة، وامتدت الدعوة في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم، من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم، في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»^(١) يعني أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهامة عدوه.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة - الذين هم خير هذه الأمة - في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزلوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار.

ثم لما وقعت الفتن والأهواء، والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها

(١) لم أجده مرفوعاً، وقد ذكره بعض العلماء في أسمائه كابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (١/ ٨٧)، وهو من أوصافه عليه الصلاة والسلام.

فلم يمانعوها، لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المستول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يُعلى كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم .

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾

١٢٤- يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيمانا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد بسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخاري رحمه الله.

١٢٥- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: زداتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهذا من جملة شقائهم، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غُذي بما غذي به، لا يزيده إلا خيالاً ونقصاً.

﴿أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾

١٢٦- يقول تعالى أولاً يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وفي الحديث عن أنس: . . . وما من عام إلا والذي بعده شر منه. سمعته من نبيكم ﷺ.

١٢٧- وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين، أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: تلفتوا ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾

كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفِرَّةٌ ﴿١٢٨﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿١٢٩﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عِزِينَ ﴿١٣٠﴾ أَي: مَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَتَفَلَّلُونَ عَنكَ يَمِينًا وَشِمَالًا، هَرُوبًا مِنَ الْحَقِّ، وَذَهَابًا إِلَى الْبَاطِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ خَطَابَهُ، وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا يَرِيدُونَهُ، بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنِّهِ، وَنُفُورٍ مِنْهُ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

١٢٨ - يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَايَعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم ويبلغتكم. كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يُصِبْه شيء من ولادة الجاهلية. وقال عليه السلام: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»^(١). وقد وصل هذا من وجه آخر، كما روى الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يمسنني من سفاح الجاهلية شيء».

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٢).

وفي الصحيح: «إن الدين يسر» وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وروى الطبراني عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء، إلا وهو يذكر لنا منه علما. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار، إلا وقد بين لكم».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لم يحرم حُرْمَةً، إلا وقد علم أنه سيطلها منكم مطلع، ألا وإنني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش أو الذباب».

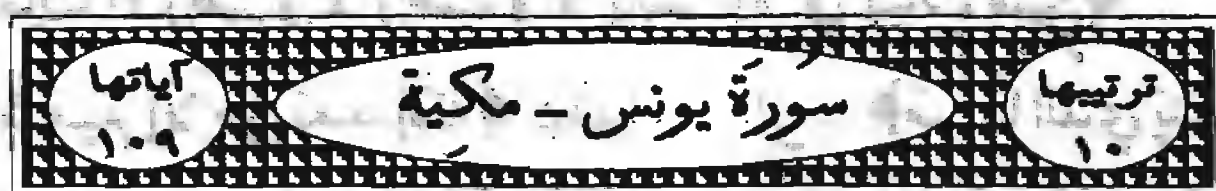
وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٣١﴾.

١٢٩ - وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة، المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٥١) من حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة مطولا وأوله: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكنني بعثت بالحنيفية السمحة...»، وله شواهد أخرى عند ابن سعد (١/ ١٥١) وغيره.

عليه توكلت ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ .
 ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : هو مالك كل شيء وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذي هو سقف
 المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما ، تحت العرش مقهورين بقدره الله
 تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .
 ود تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع
 القرآن ، فأمر زيد بن ثابت فجمعه ، وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك .
 وفي الصحيح : أن زيدا قال : فوجدت آخر سورة سورة براءة مع خزيمة بن ثابت ، أو أبي خزيمة . وقد
 قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها ، والله
 أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾

١- أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين.

٢- وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار، من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشْرٌ يَنْهَدُونَنَا﴾ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش، أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وقوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه: فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي عن ابن عباس: أجرًا حسنًا بما قدموا، وكذا قال الضحاك والربيع ابن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ الآية. وقال مجاهد ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسييحهم. وقال قتادة أو الحسن: ومحمد ﷺ يشفع لهم، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان، وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد، أنها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال له: قدم في الإسلام، كقول حسان: لنا القَدَمُ العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

٣- يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. قيل: كهذه الأيام، وقيل: يوم كالف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يشغله شأنه عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحّين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار، وال عمران والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٤﴾

وقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفرده بالعبادة، وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

٤- يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق، كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأولى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب، من سموم وحميم، وظل من يحموم ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وَاخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

٥- يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثيها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص، حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ الآية.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسيرة القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ

وقوله: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

٦- وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَايِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّزُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول، وقال ههنا: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾

٧، ٨- يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء، الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأننوا إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأترون بها، فإن ماوَاهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم، من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

٩- هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية، فتقديره أي: بسبب إيمانهم في الدنيا، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به.

وقال ابن جريج في الآية: يمثل له عمله في صورة حسنة، وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عمك، فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة، وريح منتنة، فيلزم صاحبه ويلاذه حتى يقذفه في النار. ورؤي نحوه عن قتادة مرسلأ، فالله أعلم.

١٠- وقوله: ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أخبرت بأن قوله: ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم

فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال مقاتل بن حيان وسفيان الثوري نحوه. وهذه الآية فيها شبهة من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا﴾ إلا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد، كما يُلهمون النفس» (١). وإنما يكون ذلك كذلك، لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾

١١- يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه، لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ الآية، أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة، فيستجيب لكم» ورواه أبو داود. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُوا الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يُعَجَّلُ لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

١٢- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر، ﴿وَإِذَا مَسَّ الشَّرُّ فذُو دَعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة: قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته، وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾.

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/٢١٨١) من حديث جابر رضي الله عنه.

ثم ذمَّ تعالى من هذه صفته وطريقته، فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وكقول رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء فصبر، كان خيرا له، وإن أصابته سراء فشكر، كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين»^(١).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

١٣، ١٤ - أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاء وهم به من البينات، والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

١٥ - يخبر تعالى عن تعنت الكفار، من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة، قالوا له: «آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» أي: رد هذا، وجئنا بغيره من نمط آخر «أَوْ بَدِّلْهُ» إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسول مبلِّغ عن الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

١٦ - ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك، ومشيئته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوكم من عندي، ولا اقتريته: أنكم عاجزون عن معارضته، وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم، إلى حين بعثني الله عزوجل، لا تتقدون علي شيئا تغمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟!.

ولهذا لما سأل هرقل - ملك الروم - أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

(١) رواه مسلم في صحيحه في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) بنحوه، وأحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، (٦/ ١٥، ١٦) وغيرهما.

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بَعَثَ اللهُ فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة، والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

١٧- يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً «ممن افتري على الله كذباً» وتقول على الله وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً، ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتهه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة، على بره أو فجوره ما هو أظهره من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما، أظهر من بين وقت الضحى، وبين نصف الليل في حندس الظلماء، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه، يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

ولما قدم وقد ضمّام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر، قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله»، قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله»، قال: ومن سطّح هذه الأرض؟ قال: «الله»، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطّح هذه الأرض، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم»، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام. ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، وقال حسّان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبَيِّنَةٌ كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ» إلى آخرها، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين. وقوله قبحه الله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منه نسمة تسعى، من بين صفاق وحشاً. وقوله خلده الله في نار جهنم، وقد فعل: الفيل، وما أدراك ما الفيل؛ له خرطوم طويل. وقوله أبعد الله عن رحمته: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقمماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون. إلى غير ذلك من الخرافات والهديانات التي يأنف الصبيان أن يلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم الحديقة

(١) رواه أحمد (٤٥١ / ٥) والترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥٢).

حتفه، ومزق شمله، ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاءوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه، أن يقرءوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرءوا شيئاً منه، ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرءوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق ﷺ: ويحكم أين يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إل^(١).

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي فقال: **﴿وَالْعَصْرِ﴾** **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾** إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل علي مثله، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبريا وبر، إنما أنت أذان وصدر، وسائرك حفر نقر. كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك تعلم أنني أعلم أنك تكذب.

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي؟ وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجا؟

ولهذا قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾**، وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾** وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله: رجل قتل نبياً أو قتله نبي»^(٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون (١٩) **﴿﴾**

١٨ - ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: **﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾**. وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟

ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال: **﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**.

١٩ - ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ثم وقع

(١) أي: لم يخرج من ربوبية وإلهية (اللسان).

(٢) رواه أحمد (٤٠٧ / ١) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، ولفظه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتل نبياً أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين». أما ما ذكره المصنف هنا، فقريباً منه ما رواه أحمد أيضاً (١٨٧ / ٢) (٤ / ٣٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «إن أعتى الناس على الله عز وجل: من قتل في الحرم، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، وهو حديث صحيح أيضاً».

الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته، وحججه البالغة، وبراهينه الدامغة **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِي وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِي﴾**. وقوله: **﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾** الآية، أي: لولا ما تقدم من الله تعالى: أنه لا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين، وأغنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لَلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)
 ٢٠- أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يُحوّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين أو نهراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾** بل كذبوا بالساعة وأغتننا لمن كذب بالساعة سعيراً. وكقوله: **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾** الآية. يقول تعالى: إن سنتي في خلقي: أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا **﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾** أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور **﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾** أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم، فانظروا حكم الله فيّ وفيكم.

هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إداره، فانشق اثنتين: فرقة من وراء الجبل، فرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية، مما سألوا ومالم يسألوا.

ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾** الآية. وقوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾** الآية، ولما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: **﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّن السَّمَاءِ﴾** الآية، وقوله تعالى: **﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّن السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾**.

فمثل هؤلاء أقل من أن يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدة في جوابهم، لأنه دائرٌ على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: **﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾**.

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢٢) فلما أنجاهم إذا هم

يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

٢١- يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية؛ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي مطر - ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فذاك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُورِ كَذَا، وكذا فذاك كافرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرّة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهَمِّ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُقرِّدونه بالدعاء والابتهاال، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَاكُمُ إِلَٰهُ الْبَرِّ ائْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ وقال ههنا: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي: هذه الحال ﴿لَنكوننَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً، ولنُفردنك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء ههنا.

٢٣- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَجَاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: كان لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسِّهِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر من أن يُعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطعة الرحم»^(١).

وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ﴾ أي: إنما لكم متاع، في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢) والترمذي (٢٦٤٢) وابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

٢٤- ضَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِثْلًا لَزَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيْتِنِهَا، وَسُرْعَةَ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا، بِالنبات الذي أخرجهُ اللهُ مِنَ الأَرْضِ، بِمَاءِ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنَ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ مِنْ أَبٍ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ **﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾** أَي: زَيْتِنِهَا الْفَانِيَةِ **﴿وَازْيَنْتَ﴾** أَي: حَسُنْتَ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَايَا مِنْ زَهْرٍ نَضْرَةٍ، مَخْتَلِفَةِ الأشْكَالِ والألْوَانِ **﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾** الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا **﴿أَنْهَمُ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾** أَي: عَلَى جُذَائِهَا وَحِصَادِهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْجَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ، أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ، فَأَيِسَتْ أَوْرَاقُهَا، وَأَتْلَفَتْ ثَمَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿أَتَاهَا أَمْرٌ تَالَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾** أَي: يَابَسًا بَعْدَ الْخَضْرَاءِ وَالنُّضَارَةِ **﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالأَمْسِ﴾** أَي: كَانَتْ مَا كَانَتْ حِينَئِذٍ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ﴾** كَانَتْ لَمْ تَنْعَمْ، وَهَكَذَا الأُمُورُ بَعْدَ زَوَالِهَا كَانَتْ لَمْ تَكُنْ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا، فَيُغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا»^(١).

وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُهْلِكِينَ: **﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾** كَانَتْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾** أَي: نَبِّينُ الْحُجُجَ والأدلة **﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا، وَتَمَكُّنِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا، وَنَقْلَتِهَا عَنْهُمْ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا، وَالطَّلَبَ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مِثْلَ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الأَرْضِ، فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: **﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾** وَكَذَا فِي سُورَةِ الزُّمَرِ وَالْحَدِيدِ يَضْرِبُ اللهُ بِذَلِكَ، مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٢٥- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَ اللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾** الآيَةُ. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَسَمَّاهَا دَارَ السَّلَامِ، أَي: مِنَ الآفَاتِ، وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَبَاتِ، فَقَالَ: **﴿وَ اللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ، كَأَنَّ جَبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مِثْلًا، فَقَالَ: اسْمِعْ سَمِعْتَ أذْنِكَ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبِكَ، إِنَّمَا مِثْلُكَ وَمِثْلُ أَمْتِكَ: كَمِثْلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللهُ الْمَلِكُ، وَالدَّارُ الإِسْلَامُ، وَالبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا» رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ، إِلَّا وَبِجَنَّتِيهَا مَلَكَانُ يُنَادِيَانِ، يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللهِ كُلِّهِمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى» قَالَ: وَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنَ، فِي قَوْلِهِ: **﴿وَ اللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** الآيَةُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جُرَيْرٍ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٣/ ٢٥٣-٢٥٤) وَمُسْلِمٌ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ (٤/ ٢١٦٢) وَابْنُ مَاجَةَ وَاللَّفْظُ لَهُ تَقْرِيْبًا، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خالدون (٢٦) ﴿

٢٦- يُخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا، بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلته ورحمته.

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم: عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجرتنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم» وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قاتم وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة، من القترة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلته ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ

وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴿

٢٧- لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك ﴿وترهقهم﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلك، من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إنما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿مُهْطَعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الآيات.

وقوله: ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع، ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا إِذْ نُرْسِلُ بِالْغَمَامِ زَلِيلًا فَتُفَارِقُ الْوَجْهَ الْغَابِرَ﴾ الآية، وإخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ وَقوله تعالى: ﴿وَجوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ مُّسْحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٩﴾ وَوَجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ ﴿٣٠﴾ الآية .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

٢٨- يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَحْشَرْنَاَهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاننا معينا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَضْرَقُونَ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدَّعُونَ﴾ أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل: ذلك^(١) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى، أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كؤم فوق الناس»^(٢).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة، إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ الآية، وقوله في هذه الآية، إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم، عند ادعائهم عباداتهم:

٢٩- ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به، ولا أراد، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تُختبر كل نفس، وتعلم ما سلف من عملها، من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ اقرأ كتابك كفى

(١) يياض بالأصل.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) ومسلم في الإيمان (١/ ١٧٧-١٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه. والكوم: المكان المرتفع العالي.

بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا ﴿٣١﴾

وقد قرأ بعضهم ﴿هَذَا كَلِمَةٌ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وفسرها بعضهم: بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى: تتبع ما قدمت من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «لَتَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَّا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيَةَ الطَّوَاغِيَةَ» الحديث (١). وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿وَوَضِعْنَا لَهُمْ مِنْهَا آيَاتٍ لِّمَنْ هَدَيْنَاهُمْ وَآيَاتٍ لِّمَنْ كَفَرَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

٣١- يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته، على وحدانيته الإلهية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيبته، فيخرج منها ﴿حَبًّا وَعِنْبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدائقَ غَلْبًا﴾ وفاكهة وآباء؟ إله مع الله؟ فسيقولون: الله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾. وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة؛ ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ الآية؛ وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة لذلك كله.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يستل عما يفعل وهم يستلون ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك، ويعترفون به ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه، أن تعبدوا معه غيره، بأرائكم وجهلكم.

٣٢- وقوله: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتكم بأنه فاعل ذلك كله، هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: فكل معبودٍ سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟ وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

٣٣- وقوله: ﴿كَلِمَاتُكَ حَقَّتْ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم، وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق، المتصرف في الملك

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة، ونحوه أيضاً من حديث أبي سعيد (١/ ١٦٧).

وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلماذا حقت عليهم كلمة الله: أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

٣٤- وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: مَنْ بدأ خلق هذه السموات والأرض؟ ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق؛ ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا، ويستقبل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل.

٣٥- ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقبّل القلوب من الغي إلى الرشد: الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق، ويُبصّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ والله خلقكم وما تعملون إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: ما بالكم أن يُذهب بعقولكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الربّ جلّ جلاله - المالك الحاكم الهادي من الضلالة - بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟

٣٦- ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا يرهاناً، وإنما هو ظنّ منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم، ووعد شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾

٣٧- هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من

مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته، ووجازته، وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا تكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وبيننا الأحكام، والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً، حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين.

٣٨- وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

أي: إن ادعيتهم وافتريتم وشككتهم في أن هذا من عند الله، وقتلتم كذباً وميناً إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه، من إنس وجان؛ وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا.

وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن منهم بما عرّف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له، وأشهرهم له انقياداً، كما عرّف السحرة - لعلمهم بفنون السحر - أن هذا الذي فعله موسى ﷺ، لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد، مرسل من الله، وأن هذا لا يُستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى ﷺ بُعث في زمان علماء الطب، ومعالجة المرضى، فكان يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله.

ولهذا جاء في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

٣٩- وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم

يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يُحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق، إلى حين تكذيبهم به، جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن

يُصِيبِكُمْ مَا أَصَابَكُمْ .

٤٠- وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد، مَنْ يُؤْمِنُ بهذا القرآن، ويتبعك ويتنتفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك، ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، و مَنْ يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور؛ بل يُعطي كلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الْأَصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾

يَظْلِمُونَ (٤٤)

٤١- يقول تعالى لنبيه ﷺ: وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكُونَ، فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها؛ وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

٤٢- وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة، النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة؛ ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم، وهو: الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

٤٣- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُّودة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك، لأولى البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ الآية.

٤٤- ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى، وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وأذناً صماً، وقلوباً غُلْفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وفي الحديث: عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»- إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم، ثم أوفيتكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم بطوله.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَلْقَاءَ اللَّهِ

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

٤٥- يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ وكقوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرباب بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الآيات.

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُكَلِّبِينَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

٤٦- يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ ﴿وَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ أي: نتقم منهم في حياتك، لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

٤٧- وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، فكل أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر، موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة، وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضي لهم، كما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق». فأتمته إنما حازت قصب السبق، بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين، في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم، فقال:

٤٩- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الآية، أي: لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية.

٥٠، ٥١- ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلاً أو نهاراً. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة، يقال لهم هذا تبيكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا﴾ ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿أَفْسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿اصْلَوْهَا فاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ (٥٤)

٥٣- يقول تعالى: ويستخبرونك: ﴿أَحَقُّ هُوَ؟﴾ أي: المعاد، والقيامة من الأحداث، بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم تراباً، بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فإنما ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن، إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به، على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة، يودُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هو يحيي

ويميت وإليه ترجعون (٥٦)

٥٥، ٥٦ - يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي الموتى وإليه مرجعهم؛ وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام، وتمزق في سائر أقطار الأرض، والبحار والقفار.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧)
 قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

٥٧ - يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما أنزله من القرآن العظيم، على رسوله الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، وشفاء لما في الصدور، أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين، الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا بِهِ وَرَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية.

٥٨ - وقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله، من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي: من حطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية، الزاهية لا محالة.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

٥٩ - قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين، فيما كانوا يحلون ويحرمون، من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذُرًّا مِنَ الْحَرثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيحًا ﴾ الآيات. وروى الإمام أحمد: عن أبي الأحوص - وهو عوف ابن مالك بن نضلة - يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إذا آتاك الله مالا فلير عليك» وقال: «هل تنتج إبلك صحاحاً أذانها، فتعمد إلى موسى فتقطع أذانها، فتقول: هذه بُحْر، وتشق جلودها وتقول: هذه صُرْم، وتحرّمها عليك وعلى أهلِكَ» قال: نعم، قال: «فإن ما آتاك الله لك حلٌّ، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى أحدٌ من موساك» وذكر تمام الحديث. وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على من حرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرّم، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها.

٦٠ - ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد: لذو فضل على الناس فيما أباح

لهم، مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحرّم عليهم إلا ما هو ضارٌّ لهم، في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنْ أَكْرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

٦١- يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة، في حقارتها وصغرها، في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر، إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار، وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذي يراك حين تقوم ﴿وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم رءون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

٦٢- يخبر تعالى أن أولياءه: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسّرهم ربهم، فكل من كان تقياً، كان لله ولياً ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا، ذُكر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، كما روى البزار: عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤوا، ذُكر الله».

وروى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ»، قيل: من هم يا رسول الله، لعنا نحبهم؟ قال: «هم قومٌ تحابوا في الله، من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نورٌ على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ ﴿إِنَّا أَنْبِئُكَ بِأَنَّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث عمر بمثله.

وروى الإمام أحمد: عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٣٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

الآخرة قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له» ورواه ابن جرير.
وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل، ويحمده الناس عليه، ويشنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم.
وروى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»: «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وروى أيضاً ابن جرير: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» قال: «في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له، وهي في الآخرة الجنة».

وروى ابن جرير: عن أم كرز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات».
وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، أنهم فسروا ذلك: بالرؤيا الصالحة. وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن، عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٥﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٦٦﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ».

وفي حديث البراء بن العازب: أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة، إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء، وأما بشرهم في الآخرة: فكما قال تعالى: «لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» وقال تعالى: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وقوله: «لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف، ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

٦٥- يقول تعالى لرسوله ﷺ «وَلَا يَحْزَنُكَ» قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن العزة لله جميعاً، أي: جميعها له ولرسوله ﷺ وللمؤمنين «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

٦٦- ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً، ولا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخريصهم، وكذبهم وإفكهم.

٦٧- ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون من نصبهم، وكلالهم وحركاتهم

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴿

٦٨- يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ﴿وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: تقديس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿

٦٩- ثم توعدّ تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولدًا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا، ولا في الآخرة، فأما في الدنيا: فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم، متّعهم قليلاً ﴿ثُمَّ يَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ كما قال تعالى ههنا:

٧٠- ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: مدة قريبة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أي: الموجه المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم، وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ﴿

٧١- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار، ما أصاب أولئك ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عظم عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أولاً ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاءكم، الذين تدعون من دون الله، من

صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افضلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُنظِرُونَ﴾ أي: ولا تتأخرون ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء.

كما قال هود لقومه ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية.

٧٢- وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم، وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ قال ابن عباس: سبيلاً وسنة. فهذا نوح يقول ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ووصى بها إبراهيم نبيه ويعقوب نبيّه ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿أي: من هذه الأمة.

ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، وديننا واحد»^(١).

أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكْبِرِينَ﴾ أي: يا محمد، كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

٧٤- يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح، ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: الحجج والأدلة والبراهين، على صدق ما جاؤهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءهم به رسلكم، بسبب تكذيبهم إياهم أو ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَعْيُنَهُمْ وَابْصَارَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٤٧٨) ومسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٧) من حديث أبي هريرة بنحوه.

المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختتم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

و المراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية، وفي هذا إنذارٌ عظيم لمشركي العرب، الذين كذبوا سيد الرسل، وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

٧٥- يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، وكانوا قوماً مجرمين.

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذبٌ وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية.

٧٧، ٧٨- ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكرأ عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا﴾ أي: تُثِنَّا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

و كثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربي هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته، بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله تعالى، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر؛ وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوي رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله وعتى وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون، ويحوظهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام؛ ولم تزل المحاجة والمجادلة، والآيات تقوم على يد موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهز العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ

أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» وصمم فرعون وملؤه - قبهم الله - على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾

٧٩، ٨٠ - ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى ﷺ في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يبهرج على الناس، ويُعارض ما جاء به موسى ﷺ من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ قالوا: أمنا برب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار؛ على رسول الله عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ فلما جاء السحرة قال لهم موسى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿وَأَلْقَوْا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ أَلْقَىٰ﴾ قال بل أَلْقُوا ﴿فَأَرَادَ مُوسَىٰ أَنْ تَكُونَ الْبِدَاءَ مِنْهُمْ، لِيَرَى النَّاسَ مَا صَنَعُوا، ثُمَّ يَأْتِي بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَغُ بِأَطْلَهُمْ. ولهذا لما أَلْقُوا، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

٨١، ٨٢ - فعند ذلك قال موسى لما أَلْقُوا ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ. وروى ابن أبي حاتم: عن ليث وهو ابن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر ياذن الله تعالى، تُقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿وَالآيَةُ الْآخِرَىٰ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى آخر أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(١)

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾

٨٣ - يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم: الشباب، على وجل وخوف منه ومن ملئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة: الذرية القليل، وقال مجاهد: أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات أبائهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية، أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين. وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته، والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون، ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون، حذر كل الحذر، فلم يُجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وإذا تقرر هذا، فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: وأشرف قومه أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان، سوى قارون، فإنه ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ قَبْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به متعلقاً بحباله. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

٨٤- يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا:

٨٥- ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تُظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا، لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال ابن أبي نجیح وغيره عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا، وروى عبد الرزاق: عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

٨٦- وقوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بِيوتًا وَاجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

٨٧- يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله

تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوا أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فروى الثوري وغيره: عن ابن عباس ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم، وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيّقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى، أخرجه أبو داود.

ولهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب. وقال مجاهد ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لَمَّا خَافَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُقْتَلُوا فِي الْكِنَائِسِ الْجَامِعَةِ، أَمُرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ مَسَاجِدَ، مُسْتَقْبِلَةَ الْكَعْبَةِ، يَصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا. وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبیر ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: يقابل بعضها ببعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

٨٨- هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﷺ على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كقوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتناك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سكرهم حجارة.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح ﷺ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى ﷺ فيهم هذه الدعوة، التي آمنَ عليها أخوه هارون.

٨٩- فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون، أي: قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه

الآية: مَنْ يَقُولُ: إِنَّ تَامِينَ الْمَأْمُومِ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، يُنَزَّلُ مِنْزَلَةً قَرَأَتْهَا، لِأَنَّ مُوسَى دَعَا وَهَارُونَ أَمَنَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَجَبْتِ دُعَاؤَكُمْ فَاسْتَجِيبَا﴾ الآية، أَي: كَمَا أُجِيبَتْ دُعَاؤُكُمَا، فَاسْتَجِيبَا عَلَى أَمْرِي.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾

٩٠- يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى ﷺ، وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل، سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة، لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُعْتَرِكُونَ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى ﷺ عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبط واحد، وأمر الله الرياح فنشفت أرضه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ مَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايبك، ليرى كل قوم الآخرين، لثلا يظنوا أنهم هلكوا. وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم^(١) سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر واستجيب الدعوة. وجاء جبريل ﷺ على فرس وديق حائل^(٢) فمر إلى جانب حصان فرعون فحمم إليها، وتقدم جبريل فافتحم البحر ودخله، فافتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فافتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقاتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيت سكرات الموت، فقال وهو كذلك ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩١- ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون، حين قال ما قال: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا

(١) الأدهم: الأسود من الخيل.

(٢) الفرس الوديق: التي أرادت الفحل. والحائل: التي لم تلتق (القاموس).

الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك، من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ، ولهذا روى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر^(١) فأدسه في فم فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض - وهو المكان المرتفع - ليتحققوا موته وهلاكه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِيَدِنَا﴾ قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبدالله بن شداد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك.

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه».

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾

٩٣- يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل، من النعم الدينية والدنيوية. وقوله: ﴿مَبُوءاً صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده، استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأوردْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿فَأخرجناهم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٠﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٠١﴾ كَذَلِكَ وَأوردناها بني إسرائيل﴾ وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسى ﷺ طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل ﷺ، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى ﷺ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى بن مريم ﷺ في تلك المدة، فاستعانت اليهود قبحهم الله على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يُفسد عليكم الرعايا، فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو **﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** بل رفعه الله إليه **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾**.

ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى، قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس، والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل والمعابد والقلايات، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر، على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران، كبصرى وغيرها من البلدان، بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد، إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والله الحمد والمنة.

وقوله: **﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: **﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾** أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم، وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثلثان وسبعون في النار» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد.

ولهذا قال الله تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾** أي: يفصل بينهم **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ﴾**.
﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) **﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** (٩٥) **﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** (٩٦) **﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ﴾**

الآلِيم (٩٧)

٩٤، ٩٥ - قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أشك ولا أسأل» وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾** الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون

ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به، مع قيام الحجة عليهم.

٩٦- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام فرعون وملاه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨)

٩٨- يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة، الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول، إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُ وَمَعَهُ الْفَتَاهُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم، ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس - وهم أهل نينوى - وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب، الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الآخروي مع الدنيوي، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والثاني: فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الآخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل. وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف. وكان ابن مسعود يقرؤها ﴿فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾.

وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وما

كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

٩٩- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جنتهم به، فأمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى: هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله.

١٠٠- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

١٠١- يُرشد تعالى عباده إلى التفكر في آياته، وما خلق الله في السموات والأرض، من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار، واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرور والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار، وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسول بآياتها وحججها وبراهينها، الدالة على صدقها ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٠٢، ١٠٣- وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد، من النعمة والعذاب، إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم، من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿قُلْ فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسول ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقاً أوجب الله على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كُتِبَ

رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿ وكما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

١٠٤ - يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ الدِّينِ الْحَنِيفِ، الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَنَا لَا ﴿ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ﴾ وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع، هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

١٠٥، ١٠٦ - وقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٠٧ - وقوله: ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر، إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: لمن تاب إليه، وتوكل عليه، من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

١٠٨ - يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس: أن الذي جاءهم به من عند الله، هو الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي: وما أنا موكل بكم، حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

١٠٩ - وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أي: خير الفاتحين، بعدله وحكمته.

ترتيبها ١١	سورة هود - مكية	آياتها ١٣٣
---------------	-----------------	---------------

روى أبو عيسى الترمذي: عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت. قال: «شيتني هودٌ والواقعةُ والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». وفي رواية: «هودٌ وأخواتها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبيرٍ ﴿١﴾ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ﴿٢﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يومٍ كبيرٍ ﴿٣﴾ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيءٍ قديرٌ ﴿٤﴾﴾

١ - قد تقدم الكلام على حروف الهجاء، في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، وبالله التوفيق. وأما قوله: «أحكمت آياته ثم فصلت» أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى؛ هذا معنى ماروي عن مجاهد و قتادة، واختاره ابن جرير. ومعنى قوله: «من لدن حكيمٍ خبيرٍ» أي: من عند الله الحكيم، في أقواله وأحكامه، خبير بعواقب الأمور.

٢ - «ألا تعبدوا إلا الله» أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل، لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» وقال: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت». وقوله: «إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ» أي: إنني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه. كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش، الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو خبرتكم أن خيلاً تُصَبِّحكم، أستم مصدقي؟» فقالوا: ما جرنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

٣ - وقوله: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله» أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك «يمتعكم متاعاً حسناً» أي: في الدنيا «إلى أجلٍ مسمى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله» أي: في الدار الآخرة. قاله قتادة، كقوله: «من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً» الآية، وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل في امرأتك».

وقوله: «وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يومٍ كبيرٍ» هذا تهديدٌ شديد، لمن تولّى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة «إلى الله مرجعكم» أي: معادكم و مرجعكم يوم

القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء، من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة؛ وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

٥- قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. روى البخاري: أن ابن عباس قرأ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية، فقلت يا أبا العباس ما تثنونني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي، فنزلت ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾.

وفي لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ثم روى عن عمرو قال: قرأ ابن عباس ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾. قال البخاري: وقال غيره عن ابن عباس ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم.

وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم، أي: أنهم كانوا يثنون صدورهم، إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول ﴿مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكن صدورهم، من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيُدَّخَرُ ليوم حساب أو يُعجل فيُنقَمُ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع، وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

و عود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقرأ ابن عباس ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾

٦- أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوى ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت، وعن مجاهد ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام، وكذا روي ابن عباس والضحاك وجماعة، وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك في كتاب عند الله، مبين عن جميع ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَمَّمْ آمثَالِكُمْ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ وقوله:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

٧- يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «أقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، قال: «أقبلوا البشرى يا أهل اليمن» قالوا: قد قبلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء»، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء» قال: فأتاني آت، فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي. فهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بالفاظ كثيرة.

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» .

وروى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار» وقال: «أفرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخفض ويرفع» .

وقال مجاهد ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: قبل أن يخلق شيئاً، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ينبتكم كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه.

وقال محمد بن إسحاق: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعّال لما يريد.

وعن سعيد بن جبيرة قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الرياح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده، الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فعلى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية. وقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن

عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشريطين، حبط وبطل.

وقوله: **﴿وَلَيْنَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مُبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾** الآية، يقول تعالى، ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين، أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: **﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** **﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾** وقال تعالى: **﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٍ وَاحِدَةٍ﴾**. وقولهم **﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

٨- وقوله: **﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾** الآية. يقول تعالى: ولئن أخرجنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين، إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: **﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾** أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و «الأمة» تستعمل في القرآن والسنة في معادن متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية **﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾**، وقوله في يوسف **﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾**. وتُستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَلُكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**. وتُستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا **﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾**. وتُستعمل في الجماعة، كقوله: **﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ﴾** ١٠ وقوله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**.

والمراد من الأمة ههنا: الذين يُبعث فيهم الرسول، مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصرانيٌ، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**. وفي الصحيح: «فأقول أمي أمي». وتُستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: **﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** وكقوله: **﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِتَةٌ﴾** الآية.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ كَفُورٌ ۙ﴾ (٩) ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور (١٠) إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (١١)

٩، ١٠- يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي

الحال، كأنه لم ير خيراً، ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: يقول ما ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرحٌ بما في يده، بطرٌ فخور على غيره.

١١ - قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنُ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ، وَلَا نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ، وَلَا حَزَنٌ حَتَّى الشُّوْكَ يَشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(١).

وفي الصحيحين: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قِضَاءً، إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سُرَّاءٌ فَشَكَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضُرَّاءٌ فَصَبَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ»^(٢).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآيات.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢) أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (١٣) فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون (١٤)

١٢ - يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنّت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أو يُلقَىٰ إليه كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إليه ^(١) يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك، ولا يُثنيته عن دعائهم إلى الله عز وجل، آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة ياخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأذوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

١٣ - ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سورٍ مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يُشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يُشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

١٤ - ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزلٌ من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

(١) رواه مسلم في صحيحه في البر (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣) بالفاظ مقاربة عن عائشة وأبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهم.

(٢) الحديث بنحوه في صحيح مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) ولم يخرج البخاري كما سبق التنبيه عليه.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

١٥ ، ١٦ - قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يُعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: مَنْ عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعملها إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعملها لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد. وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى.

وقال قتادة: مَنْ كانت الدنيا همه وسدَمه^(١) ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُقضى إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا^(٢).

وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَنُومًا مَدْحُورًا ﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٦﴾ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءِ وَهَوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٧﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ نَدْرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٨﴾ وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧)

١٧ - يخبر تعالى عن حال المؤمنين، الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية. وفي الصحيح: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» الحديث. وفي صحيح مسلم: عن عياض بن حمار رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وفي المسند والسنن: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على هذه الملة، حتى يُعربَ عنه لسانه» الحديث.

فالمؤمن باق على هذه الفطرة.

وقوله: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع

(١) السدم: الولوع بالشيء واللهمج به.

(٢) يريد ما أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيقطع بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة له يُجزى بها».

المطهرة، المكملة المعظمة، المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليةم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد أنه: جبريل عليه السلام، وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة، وقيل: هو علي! وهو ضعيف، لا يثبت له قائل، والأول والثاني هو الحق، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَّةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾** وهو القرآن، بلغه جبريل إلى النبي ﷺ، وبلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته.

ثم قال تعالى: **﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾** أي: ومن قبل القرآن: كتاب موسى، وهو التوراة **﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾** أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾**. ثم قال متوعداً لمن كذب بالقرآن، أو بشيء منه **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾** أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، ومشركهم وكافرهم وأهل الكتاب، وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: **﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾** وقال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾** وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾**.

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

وعن سعيد بن جبيرة قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه، إلا وجدت مصداقه، أو قال: تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: «وقلما سمعت رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾** قال: من الملل كلها».

وقوله: **﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾** الآية، أي: القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وقال تعالى: **﴿أَلَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**.

وقوله: **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** كقوله تعالى: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ

أَوْلِيَاءُ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿

١٨- بين تعالى حال المفترين عليه، و فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، من الملائكة والرسول والأنبياء وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إن الله عز وجل يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويُقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرفُ ذنبك كذا؟ أتعرفُ ذنبك كذا؟ أتعرفُ ذنبك كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يُعطي كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الآية.

أخرجه البخاري و مسلم في الصحيحين.

١٩- و قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يردون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ويجنبونهم الجنة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

٢٠- ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبيته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمِ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾. وفي الصحيح: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الآية، أي: يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ وَنَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الآية، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه، ولهذا كان أصح الأقوال: أنهم مكلفون بفروع الشرائع، أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

٢١- و قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يُقْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةٌ عَيْنٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ زُنُوبُهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجد عنهم شيئاً، بل ضررتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وقال الخليل لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ

الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم .
 ٢٢- ولهذا قال : ﴿لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا الدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم أن، وعن شرب الرحيق المختوم، بسموم وحميم، وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْتَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣)
 مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴿٢٤﴾

٢٣- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، قولاً وفعلاً، من الإتيان بالطاعات، وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمأكول المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون، ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يتفوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

٢٤- ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي : الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق، في الدنيا وفي الآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية، وأما المؤمن : ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتتفكرون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ و كقوله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

٢٥- يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، من المشركين عبدة الأصنام، أنه قال لقومه : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي : ظاهر النذارة لكم من عذاب الله، إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ أي : إن استمررتم على ما

أنتم عليه ، عَذَّبَكُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا ، موجعاً شاقاً ، في الدار الآخرة .
 ٢٦- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ و الملاء هم السادة و الكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أي : لست بملك و لكنك بشرٌ ، فكيف أوحى إليك من دوننا ، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، كالباعة و الحاكة و أشباههم ، و لم يتبعك الأشراف و لا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك ، لم يكن عن تروٍّ منهم و لا فِكرٍ و لا نظرٍ ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، و لهذا قالوا ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِ الرَّأْيِ﴾ أي : في أول بادئ الرأي ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق و لا خلق ، و لا رزق و لا حال ، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا .

﴿بَلْ نَطْنُكُمْ كَانِبِينَ﴾ أي : فيما تدعونه لكم من البر و الصلاح ، و العبادة و السعادة ، في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ، هذا اعتراض الكافرين على نوح ﷺ و أتباعه ، وهو دليل على جهلهم و قلة علمهم و عقلهم ، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيحٌ ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه : أن أتباع الحق هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، و الذين يابونه هم الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، و الغالب على الأشراف و الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ . و لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخرين حرب ، عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

و قولهم : ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة و لا عيب ، لأن الحق إذا وضح ، لا يبقى للرأي و لا للفكر مجال ، بل لا بد من اتباع الحق و الحالة هذه ، لكل ذي زكاء و ذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عبي ، و الرسل صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين - إنما جاءوا بأمر جلي واضح .

و قوله : ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك ، لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون و لا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون ، في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون ، الأقلون الأراذلون ، وهم في الآخرة هم الأخسرون .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)

٢٨- يقول تعالى مخبراً عما ردّ به نوح على قومه في ذلك ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي : على يقين و أمر جلي ، و نبوة صادقة ، وهي الرحمة العظيمة من الله به و بهم ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ، و لا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها و ردها ﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا﴾ أي : نغصبكم بقبولها ، و أنتم لها كارهون !

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

٢٩ ، ٣٠- يقول لقومه : لا أسألكم على نصحي لكم مالا ، أجرة أخذها منكم ، إنما أبتغي الأجر من الله

عز وجل ﴿وما أنا بطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَن بَيْنَنَا أليسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الآية.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾

٣١- يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمالك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقرونها وتزدرونها، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطنياً - كما هو الظاهر من حالهم - فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحدٌ بشرٌ بعد ما آمنوا، لكان ظالماً، قائلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢)﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾

٣٢، ٣٣- يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله، وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعوننا به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم: الله الذي لا يُعجزه شيء.

٣٤- ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم، وإنذاري إياكم ونصحي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمّة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر، هو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾

٣٥- هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكداً لها، مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افتري هذا، وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِي إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك عليّ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدِ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ وَأَصْنَعْ

الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴿

٣٦- يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح، لما استعجل قومه نقمة الله بهم و عذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته، التي قال الله تعالى مخبراً عنه، أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَلْزَمْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِر﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم، ولا يهمتك أمرهم.

٣٧- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ﴿وَوَحَيْنَا﴾ أي: تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تَخَاطِبُنَا فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يفرز الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجرها في مائة سنة أخرى. وقيل: في أربعين سنة، والله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً و عرضها خمسين ذراعاً، وأن يُطلي باطنها و ظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جُوجُؤاً أزوراً يشق الماء، وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

٣٨- وقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يهزءون به، ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ الآية. وعيدٌ شديد و تهديد أكيد.

٣٩- ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبداً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

٤٠- هذه موعدة من الله تعالى لنوح ﷺ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتان الذي لا يُقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ و فَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿وَ حَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَ دُسُرٍ﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِرَ.

و أما قوله: ﴿وَ فَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عُيُونًا تفور، حتى فار الماء من التناير، التي هي مكان النار صارت تفور ماءً. وهذا قول جمهور السلف و علماء الخلف. فحينئذ أمر الله نوحاً ﷺ أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: و غيرها من النباتات اثنين ذكراً و أنثى.

وقوله: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كان نوح وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة، وامرأة يام، وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة! وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت، لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ (٤٣)﴾

٤١- يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوها، وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور. عند الركوب على السفينة، وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الآية، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه، كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين، بإغراقهم أجمعين، فذكر أنه غفور رحيم، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه.

٤٢- وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله، وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتتانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾.

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع، واسمه يام، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة، أن يؤمن ويركب معهم، ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون.

٤٣- ف ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من

الإسرائيليات، والله أعلم بصحته، والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْغُرُقِ، فقال له أبوه نوح ﷺ ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمُ الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

٤٤- يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم، إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها، الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وغيض الماء﴾ أي: شرع في النقص ﴿وقضى الأمر﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله لم يبق منهم دينار ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح ﷺ. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح ﷺ على الجودي من أرض الجزيرة^(١)، عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت وصارت رماداً.

وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور!

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)

٤٥- هذا سؤال استعلام وكشف، من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق، وقال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟

٤٦- ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم، لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره، ومخالفته أباه نبي الله نوحاً ﷺ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته، عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ويقوله: ﴿فَخَاتَمَتَاهُمَا﴾ فمن قاله: الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته، وهذا

(١) الجودي: جبل في الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر، والجزيرة: محافظة في الشمال الشرقي من سورية.

يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، وأراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيياً عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال وقوله: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** أي: الذين وعدتك نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق لا محيد عنه، فإن الله تعالى أغير من أن يُمكن امرأة نبي هذه الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**. إلى قوله - **﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾**. وروى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: هو ابنه، غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة في بعض الحروف: **﴿إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ﴾**، والخيانة تكون على غير باب. وروى عبد الرزاق أيضاً: عن سليمان ابن قتة قال: سمعت ابن عباس سئل - وهو إلى جنب الكعبة - عن قول الله **﴿فَخَاتَمَ الْبُيُوتَ﴾** قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ **﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾**. (وجاء) عن سعيد بن جبير قال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب، قال تعالى: **﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾** قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. وكذا روي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون ابن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

٤٨ - يخبر تعالى عما قيل لنوح ﷺ حين أرسى السفينة على الجودي، من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع، كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان، أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر، وأبواب السماء، يقول الله تعالى: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾** الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)

٤٩ - يقول تعالى لنبيه ﷺ: هذه القصة وأشباهها **﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾** يعني: من أخبار الغيوب السالفة، نوحياً إليك على وجهها، كأنك شاهدتها **﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾** أي: نُعلمك بها وحياً منا إليك **﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾** أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ**

﴿أَمْنُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٠﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَالَّذِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

٥٠، ٥١- يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، واختلفوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصيح والبلاغ من الله، إنما يعني ثوابه من الله الذي فطره ﴿أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة، من غير أجره.

٥٢- ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾. وفي الحديث: «مَنْ لَزِمَ الاستغفَارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(١).

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

٥٣- يخبر تعالى أنهم قالوا لنبیهم ﴿ما جئتنا ببينة﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك﴾ أي: بمجرد قولك أتركوهم نتركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين.

٥٤، ٥٥- ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيك عن عبادتها، وعيبك لها ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ من دونه يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: طرفه عين.

٥٦- وقوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة: الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه،

(١) رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وأحمد (٢٤٨ / ١)، والحاكم (٢٦٢ / ٤) وصححه وغيرهم، وصححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى، وفي سننه الحكم بن مصعب، مجهول، لكن تشهد له ظواهر الكتاب والسنة، وقد احتج به شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع.

وقهره و سلطانه ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

٥٧- يقول لهم هود ﴿فإن تولوا﴾ عما جئتمكم به من عبادة الله ربكم ، وحده لا شريك له ، فقد قامت الحجة ، بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي : شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزيهم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٥٨- ﴿ولما جاء أمرنا﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هوداً وأتباعه ، من عذاب غليظ ، برحمته تعالى ولطفه .

٥٩- ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود ، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل . ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .
٦٠- فلهذا ﴿اتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ من الله و من عباده المؤمنين ، كلما ذكروا ، ويُنادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ الآية ، قال السدي : ما بُعث نبي بعد عاد ، إلا لعنوا على لسانه .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

٦١- يقول تعالى ولقد أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ ، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن «الحجر» بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿أخاهم صالحاً﴾ ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال : ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي : ابتداء خلقكم منها ، خلق منها أياكم آدم ﴿واستعمركم فيها﴾ أي : جعلكم عمّاراً تعمرونها و تستغلونها ﴿فاستغفروه﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلونه ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ كما قال تعالى : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ الآية .

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

٦٢- يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد

في قولهم ﴿قَد كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك، قبل أن تقول ما قلت ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: شك كثير.

٦٣- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنصِرْتُمْ مِنَ اللَّهِ إِنَّ عَصِيَّتَهُ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق، وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي خسارة.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ (٦٨) ﴿

٦٤ - ٦٨ - تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، فله الحمد والمنة^(١).

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣) ﴿

٦٩- يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتي البقر ﴿حَنِيذٌ﴾ مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحممة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

٧٠- وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همّة لهم إلى الطعام، ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رأهم أجلمهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به، فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين

(١) انظر (ص ٢٠٥ - ٢٠٧) من هذا المجلد.

يقول «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود **﴿فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾** قالوا يا إبراهيم: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُقَّ لهذا أن يتخذه ربه خليلاً. **﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ﴾** يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا! وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة **﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾** أي: قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم.

٧١- فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس، وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب، وهم في غفلة.

وقوله: **﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾** قال العوفي عن ابن عباس: فضحكت أي: حاضت. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** أي: بولد لها، يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في سورة البقرة **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**.

ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية: على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، و وعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبينه، والله الحمد.

٧٢- **﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾** الآية، حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها **﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾** وفي الذاريات **﴿فَأَقْبَلتْ امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾** كما جرت به عادة النساء، في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

٧٣- **﴿قَالُوا أتعجبين من أمر الله﴾** أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له «كن» فيكون. فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ﴾** أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين: أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾** (٧٥) **﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾** (٧٦)

٧٤- يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروح، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك ﴿إِنَّ فِيهَا لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيناه وأهله إلا امرأته﴾ الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه، وقال قتادة وغيره قريباً من هذا.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها^(١).

٧٦- وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحق عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ (٧٩)﴾

٧٧- يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة، بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام، وهو على ما قيل في أرض له، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله، وله الحكمة والحجة البالغة، فساء شأنهم، وضائق نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيفهم، أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك، وذكر قتادة: أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم، وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، وقال السدي: وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه.

٧٨- وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك. وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم، حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للامة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى ﴿اتَّقُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وتلدرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ألم ننهك

(١) انظر الآية (١١٤) من سورة التوبة، في هذا المجلد.

عن ضيافة الرجال **«قَالَ هَوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُتِمَ فَاعِلِينَ»** لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» وقال في هذه الآية الكريمة: **«هَوْلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرِ لَكُمْ»** قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته. وكذا روي عن قتادة وغير واحد.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم من بناته، هو نبيهم، ويقال في بعض القراءات «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وكذا روي عن الربيع بن أنس وقاتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقوله: **«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي»** أي: اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم **«اليس منكم رجل رشيد»** أي: فيه خير يقبل ما أمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟

٧٩- **«قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ»** أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن، ولا نشتهيهن **«وإنك لتعلم ما نريد»** أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي **«وإنك لتعلم ما نريد»**: إنما نريد الرجال.

«قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعَدُهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)»

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط **«لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»** إن لوطاً توعدهم بقوله: **«لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً»** الآية، أي: لكنك نكلتكم، وفعلت بكم الأفاعيل، بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله **«قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»** يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»^(١).

٨١- فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه **«قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ»** وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أي: يكون ساقية لأهله **«وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ»** أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين **«إِلَّا أَمْرَاتُكَ»** قال الأكرتون: هو استثناء من المثبت، وهو قوله: **«فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ»** تقديره **«إِلَّا أَمْرَاتُكَ»** وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء **«أَمْرَاتُكَ»** لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: **«وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ»** فجوزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء: أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت، وقالت: وا قوماء، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال: لهم أهلكوهم الساعة، فقالوا: **«إِنْ مَوْعَدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»**.

هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل **«فصرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى:**

(١) عجز حديث رواه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٤٨) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥) والترمذي (٣٣٣٢) وغيرهم. وأصله في البخاري (٦/ ٤١٧) (٨/ ٣٦٢) دون ذكر لوط، ومسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٩).

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ الآية .
 ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مِّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

٨٢- يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله : ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ أي : أمطرتنا عليها حجارة من سجيل ، وهي بالفارسية : حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أي : من «سك» هو الحجر و «كل» وهو الطين ، وقد قال في الآية الأخرى : ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي : مستحجرة قوية شديدة ، وقال بعضهم : مشوية ، وقال البخاري : «سجيل» الشديد الكبير ، سجيل وسجين ، اللام والنون أختان .

وقوله : ﴿مِّنْضُودٍ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء ، أي : معدة لذلك . وقال آخرون ﴿مِّنْضُودٍ﴾ أي : يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم ، وقوله : ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أي : معلّمة مختومة ، عليها أسماء أصحابها ، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه ، وقال قتادة وعكرمة ﴿مُسَوِّمَةً﴾ : مطوقة بها نضح من حمرة ، وذكروا : أنها نزلت على أهل البلد ، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها ، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث ، إذ جاء حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره ، فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم ، فلم يبق منهم أحد ، وقال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرّحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن ، قال : ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها .

وقال قتادة : بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ، ثم ألوى بها إلى جوف السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ، ثم دمر بعضهم على بعض ، ثم أتبع شدّاذ القوم صخراً ، قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى ، في كل قرية مائة ألف ، وفي رواية : ثلاث قرى ، الكبرى منها : سدوم .

وقوله : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي : وما هذه النعمة ، ممن تشبّه بهم في ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروي في السنن : عن ابن عباس مرفوعاً : «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» . وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء : إلى أن اللائط يقتل ، سواء كان مُحصناً أو غير مُحصن ، عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة : إلى أنه يُلقَى من شاهق ، ويُتبع بالحجارة ، كما فعل الله بقوم لوط ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

٨٤- يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى «مدین» وهم قبيلة من العرب ، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ، قريباً من معان ، بلاداً تعرف بهم يقال لها : مدین ، فأرسل الله إليهم شعيباً ، وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال : ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي : في معيشتكم ورزقكم ، وإنني أخاف أن تُسلبوا

ما أنتم فيه، بانتهاكم محارم الله ﴿وإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ محيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾

٨٥- ينهاهم أولاً: عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن

بالقسط، آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

٨٦- وقوله: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير

لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة:

حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة، وقال أبو

جعفر بن جرير ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان، خير لكم من أخذ

أموال الناس، قال: وقد روي هذا عن ابن عباس.

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: بربيق ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه

ليراكم الناس، بل الله عز وجل.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾

٨٧- يقولون له على سبيل التهكم قبهم الله: ﴿أَصْلَوَاتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قراءتك ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ

تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك، وهي

أموالنا نفعل ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: إي والله، إن صلواته

لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون: الزكاة.

وقولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وأسلم وابن جرير:

يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء قبهم الله، ولعنهم عن رحمته، وقد فعل.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا

أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾

٨٨- يقول لهم أرايتم يا قوم إن كنت ﴿عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ

رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثوري ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ

أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر، فأفعله خفية عنكم، كما قال

قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: فيما أمركم وأنهاكم، إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي:

في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد.

روى الإمام أحمد: عن حكيم بن معاوية عن أبيه: أن أخاه مالكا قال: يا معاوية إن محمداً أخذ جيرانني، فانطلق إليه فإنه قد كلمك و عرفك، فانطلقت معه، فقال: دع لي جيرانني، فقد كانوا أسلموا، فأعرض عنه فقام مغضباً، فقال: أما والله لئن فعلت، إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر و تخالف إلى غيره!! وجعلت أجره وهو يتكلم، فقال رسول الله: «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر، و تخالف إلى غيره، قال فقال: «أو قد قالوها - أو قائلهم - ولئن فعلت ذلك، ما ذاك إلا علي، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه».

ومن هذا القبيل: الحديث الذي رواه الإمام أحمد: سمعت أبا حميد و أبا أسيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، و تلين له أشعاركم و أبشاركم، و ترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، و إذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، و تنفر منه أشعاركم و أبشاركم، و ترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدهم منه» إسناده صحيح. و معناه - والله أعلم - مهما بلغكم عني من خير، فأنا أولاكم به، و مهما يكن من مكروه، فأنا أبعدهم منه «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه».

و عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، قالت: فعلة بعض نسائك، فقال: ما حفظت وصية العبد الصالح إذا «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه».

و روى عثمان بن أبي شيبة: عن أبي سليمان الضبي قال: كانت تجيئنا كتبُ عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: و ما كنتُ من ذلك، إلا كما قال العبد الصالح «وما توفيقِي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ».

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾

٨٩- يقول لهم: «ويا قوم لا يجرمَنَّكم شِقَاقِي» أي: لا تحملنكم عداوتي و بغضي، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر و الفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح و قوم هود و قوم صالح و قوم لوط، من النعمة و العذاب، و قال قتادة: لا يحملنكم فراقِي، و قال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال و الكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي ليلى الكندي قال: كنتُ مع مؤلاي أمسكُ دابته، و قد أحاط الناس بعثمان بن عفان، إذ أشرف علينا من داره، فقال: «ويا قوم لا يجرمَنَّكم شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ» يا قوم لا تقتلونني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا: و شبك بين أصابعه. و قوله: «وما قوم لوطٍ منكم ببعيدٍ» قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، و قيل: في المكان، و يحتمل الأمران.

٩٠- «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» من سالف الذنوب «ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة. و قوله: «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» أي: لمن تاب.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ

عَلَيْنَا بَعَزِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

٩١- يقولون ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كثيراً﴾ من قولك ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: و كان ضرير البصر^(١) و قال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء. قال السدي ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾: أنت واحد؛ و قال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿و لولا رهطك لرجمناك﴾ أي: قومك لولا معزتهم علينا ﴿لرجمناك﴾ قيل: بالحجارة، و قيل: لسببناك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعَزِينَ﴾ أي: ليس عندنا لك معزة.

٩٢- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يقول: أتركوني لأجل قومي، و لا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك و تعالی، أن تنالوا نبيه بمساءة، و قد اتخذتم كتاب الله ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه و لا تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم و سيجزيكم. ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

٩٣- لما يشس نبي الله شعيب من استجابتهم له، قال يا قوم ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: طريقتكم، و هذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريقتي ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿و من هو كاذب﴾ أي: مني و منكم ﴿وارتقبوا﴾ أي: انتظروا ﴿إني معكم رقيب﴾.

٩٤- قال الله تعالى: ﴿و لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. و قوله: ﴿جاثمين﴾ أي: هامدين لا حراك بهم، و ذكر ههنا: أنه أتتهم صيحة، و في الأعراف: رجفة، و في الشعراء: ﴿عذاب يوم الظلة﴾ و هم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، و إنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾ و الذين آمنوا معك من قريتنا ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، و أرادوا إخراج نبيهم منها، و ههنا لما أساءوا الأدب في مقالاتهم على نبيهم، ذكر الصيحة التي أسكتهم و أخدمتهم، و في الشعراء لما قالوا ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ قال: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ إنه كان عذاب يوم عظيم، و هذا من الأسرار الدقيقة، و لله الحمد و المنة كثيراً دائماً.

٩٥- و قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بُعداً لمدنين كما بعدت ثمود﴾ و كانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، و شبيهاً بهم في الكفر و قطع الطريق، و كانوا عرباً مثلهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ

(١) في الطبري (٤٥٨ / ١٥) عن الثوري: كان ضعيف البصر. و في وصفه بالعمي نظراً! فإن الأنبياء أكمل الناس خلقاً و خلقاً، و الله أعلم.

لَعْنَةُ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

٩٦، ٩٧- يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة، إلى فرعون ملك القبط وملكه ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: منهجه ومسلكه، وطريقته في الغي ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهلٌ وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخْلَنَاهُ أَخْلَانًا وَيْلًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾.

٩٨- وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. وكذلك شأن المتبوعين، يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية.

٩٩- وقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي: أتبعناهم زيادة على عذاب النار، لعنة في الدنيا ﴿وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك وقتادة، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿ وَأَتَّبِعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ

تَتَّبِيبِ ﴿١٠١﴾

١٠٠- لما ذكر تعالى خبر الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين، ونجى المؤمنين، قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي: أخبارهم ﴿نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي: عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك.

١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم، ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّبِيبٍ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم، إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

١٠٢- يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة، المكذبة لرسولنا، كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفي الصحيحين: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى

إذا أخذه لم يُقلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية .
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٠٣)
 وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿ (١٠٥) ﴾
 ١٠٣- يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين، وإنجائنا المؤمنين ﴿لآية﴾ أي: عظة واعتباراً، على صدق موعودنا في الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: أولهم وآخرهم، كقوله: ﴿وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نُفَايِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن، والطيور والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

١٠٤- وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما تؤخر إقامة القيامة، إلا أنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين، من ذرية آدم، وضرب مدة معينة، إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم، قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدة مؤقتة، لا يزداد عليها ولا ينتقص منها.

١٠٥- ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وقال: ﴿وَوَخَّشَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية .
 وفي الصحيحين من حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم». وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي، ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ (١٠٧) ﴾

١٠٧- يقول تعالى لهم: ﴿فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً، قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر أبناء سمير، وما لألات العير بأذناها. يعنون بذلك كله أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بهم، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ولهذا قال الحسن البصري: سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن مجاهد عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال عبد الرحمن بن

يزيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، والسماء سماء.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله: ﴿النَّارُ مَشْوَاكُمُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه، واختار هو: ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً، أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك، من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روي في تفسيرها (عن الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة) أقوال غريبة، وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير: عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بشيئه. وقال السدي: منسوخة بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ

غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾

١٠٨ - يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ أي: فما أوامهم الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كثرين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين، الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها، وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ أي: غير مقطوع، قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد، لثلاثي توهم بعد ذكره المشيئة، أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ وهنا طيب القلوب، وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾.

وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلودوا فلا موت، ويا أهل النار خلودوا فلا موت». وفي الصحيحين أيضاً: «فيقال يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ

غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

١٠٩ - يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون إنه باطل و جهل و ضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه، إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً، وإن كان لهم حسنات، فقد وفّاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. روي عن ابن عباس ﴿وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص.

١١٠ - ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به و من كافر به؛ فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهمنك ذلك، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لو لا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بـ «الكلمة» أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مَعْدِينَ حَتَّىٰ نُنْعِكَ رَسُولًا﴾ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرِزَامًا وَاجِلٌ مُّسَمًّى ۖ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١١١ - ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم، و يجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعاً، جليلها و حقيرها، صغيرها و كبيرها، و في هذه الآية قرأت كثيرة، يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾

١١٢ - يأمر تعالى رسوله و عباده المؤمنين، بالثبات و الدوام على الاستقامة، و ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، و مخالفة الأضداد، و نهى عن الطغيان وهو: البغي، فإنه مصرعة، حتى ولو كان على مشرك، و أعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، و لا يخفى عليه شيء.

١١٣ - وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنوا.

وقال العوفي عن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك، و قال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، و قال ابن جريج عن ابن عباس: و لا تميلوا إلى الذين ظلموا. و هذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، و لا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾

(١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴿١١٥﴾

١١٤ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **«وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ»** قال: يعني الصبح والمغرب. وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحسن - في رواية - وقتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر مرة أخرى **«وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ»** قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء، وقال الحسن - في رواية - يعني: المغرب والعشاء، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول، والله أعلم.

وقوله: **«إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»** يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحدٌ استحلفتة، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»**. وفي الصحيحين: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: **«مَنْ تَوَضَّأَ وَضَوَّيْتُ هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**.

وروى الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير: عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء، أظنه سيكون فيه قدر مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: **«مَنْ تَوَضَّأَ وَضَوَّيْتُ هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى صَلَاةَ الظُّهْرِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ صَلَّى العِشَاءَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ المَغْرِبِ، ثُمَّ لَعَلَهُ يَبِيْتُ يَتَمَرَّغُ لَيْلَتَهُ، ثُمَّ إِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى الصُّبْحَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَلَاةِ العِشَاءِ، وَهِنَّ الحَسَنَاتِ يَذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»**.

وفي الصحيح: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أُرَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَابَ أَحَدِكُمْ نَهْرًا غَمْرًا يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ، هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا؟»** قالوا: لا، يا رسول الله، قال: **«كَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا»**.

وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبْتَ الكِبَايِرَ»**.

وروى البخاري عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله **«فَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يَذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»** فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: **«لجميع أمتي كلهم»**. ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه: عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلتُ بها كلَّ شيءٍ غير أني لم

أجامعها، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت؛ فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، ثم قال: «ردوه علي»، فرده عليه، فقرأ عليه **﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُلْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾** فقال معاذ - وفي رواية عمر - : يا رسول الله أله وحده؟ أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة».

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾

١١٦ - يقول تعالى: فهلاً وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور، والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: **﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة، أن يكون فيها من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**.

وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب». ولهذا قال تعالى: **﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾** وقوله: **﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾** أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجأهم العذاب **﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾**.
١١٧ - ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية، إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط، حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: **﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾**، وقال: **﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾**.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾

١١٨ - يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان وكفران، كما قال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾**. وقوله: **﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾** إلا من رحم ربك أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم، واعتقادات مللهم ونحلهم، ومذاهبهم وآرائهم، وقال عكرمة: مختلفين في الهدى. وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، سخر بعضهم بعضاً، والمشهور الصحيح الأول.

وقوله: **﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾** أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في

المسائيد والسنن من طرق يشد بعضه بعضاً: «إن اليهود افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افتقرت على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدرکه بهذه الزيادة.

وقال عطاء **«وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»** يعني: اليهود والنصارى والمجوس **«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ»** يعني: الحنيفية. وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته: أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: **«وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ»** قال الحسن البصري في رواية عنه: وللأختلاف خلقهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: **«فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ»** وقيل: للرحمة خلقهم. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: **«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»**.

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه: الناس مختلفون على أديان شتى **«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ»** فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له **«لِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ»** قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: **«وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»** **«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ»** قال: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد والفراء.

وقوله: **«وَوَدَّعْتُمْ كَلِمَةً رَبُّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»** يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام، وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين: الجن والإنس، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أورثت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشأ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قَطُّ قَطُّ وعزتك».

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴿

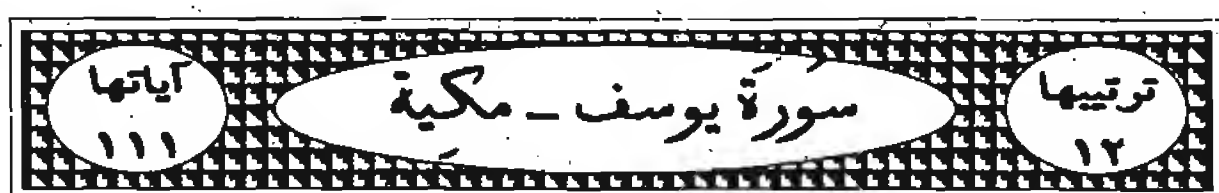
١٢٠ - يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله المؤمنين، وخذل أعداء الكافرين، كل هذا مما ثبت به فؤادك يا محمد، أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

وقوله: **«وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ»** أي: هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف،

وعن الحسن في رواية عنه و قتادة في هذه الدنيا ، و الصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله المؤمنين بهم ، و أهلك الكافرين ، جاءك فيها قصصُ حقٍ ، و نبأ صدقٍ ، و موعظة يرتدع بها الكافرون ، و ذكرى يتذكَّر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

١٢٣ - يخبر تعالى : أنه عالم غيب السموات و الأرض ، و أنه إليه المرجع و المآب ، و سيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق و الأمر ؛ فزمر بعبادته و التوكل عليه ، فإنه كافٍ من توكل عليه و أناب إليه ، و قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليمٌ بأحوالهم و أقوالهم ، و سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا و الآخرة ، و سينصرك و حزبك عليهم في الدارين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣)﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي: الواضح الجلي، الذي يُفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرهما ويبينها.

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فأكمل من كل الوجوه.

٣- ولهذا قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات، ما رواه ابن جرير: عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية، وذكر الحديث، ورواه الحاكم.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب، ما رواه الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب، وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه؛ والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني».

ورواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ، وقال: «والذي نفسي محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتهم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

ساجدين (٤) ﴾

٤- يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد، في قصصك عليهم من قصة يوسف، إذ قال لأبيه، وأبوه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخاري. وروى البخاري أيضاً: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس: يوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فغن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً، عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبوه على العرش وهو سريره، وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ

مبين (٥) ﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف، حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه، تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين، إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب ﷺ أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالون لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره».

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن: من رواية معاوية بن حميد القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَّر، فإذا عبَّرت وقعت».

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة، حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود»^(١).

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا

أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف، إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (ص ١٨٧) والسهمي في تاريخ جرجان (ص ١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٤٥٣).

الشمس والقمر ساجدة لك **﴿كذلك يجتبيك ربك﴾** أي: يختارك ويصطفيك لنبوته **﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾** قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا **﴿ويؤتم نعمته عليك﴾** أي: بإرسالك والإيحاء إليك. ولهذا قال: **﴿كما أتمها على أبوتك من قبل إبراهيم﴾** وهو الخليل **﴿وإسحاق﴾** ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح ^(١) **﴿إن ربك حكيم عليم﴾** أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما في الآية الأخرى.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ (٧) إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين (٨) اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين (٩) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين (١٠)

٧- يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته **﴿آيات﴾** أي: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيب يستحق أن يستخبر عنه.

٨- **﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾** أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه **﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾** أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة **﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾** يعنون في تقديمهما علينا، ومحبتة إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾** وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

٩- **﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾** يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، اعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي، تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم **﴿وتكونوا من بعده قوما صالحين﴾** فأضرموا التوبة قبل الذنب.

١٠- **﴿قال قائل منهم﴾** قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روييل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون. **﴿لا تقتلوا يوسف﴾** أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً، لا بد من إتمامه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روييل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقيه في **﴿غيابة الجب﴾** وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس.

﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله **﴿إن كنتم فاعلين﴾** أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

(١) وإنما الراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه، على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

١١- لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ما بالك **﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾** وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

١٢- **﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا﴾** أي: ابعته معنا **﴿غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾** وقرأ بعضهم بالياء **﴿يرتع ويلعب﴾** قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم **﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لئن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

١٤- يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب، أنه قال لنبيه في جواب ما سألوا، من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء **﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾** أي: يشقُّ عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: **﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾** يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون.

فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: **﴿لئن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾** يقولون: لئن عدّا عليه الذئب، فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذا لها لكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

١٥- يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه، بعد مراجعتهم له في ذلك **﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾** هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهِرونه له، إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه. فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له.

وقوله: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته، وإنزاله اليسر في حال العسر، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجاتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** قال مجاهد وقتادة: **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حَقِّك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

١٦- يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغمون لأبيهم.

١٧- وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا **﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾** أي: نترامى **﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾** أي: ثيابنا وأمتعتنا **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** تُلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا. والحالة هذه. لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

١٨- **﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾** أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة. فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد. فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم، إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: **﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾** أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه **﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾** أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وروى الثوري: عن ابن عباس **﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾** قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه. وقال عبد الرزاق، قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. وذكر البخاري ههنا: حديث عائشة في الإفك، حتى ذكر قولها: والله، لا أجد لي ولكم مثلاً، إلا كما قال أبو يوسف **﴿فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون﴾**.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾

بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرُّهُ بِشْمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴿

١٩ - يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾.

وقرأ بعض القراء ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ فزعم السدي أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً، وهذا القول من السدي غريب! لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا، إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو، يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها، كما تقول العرب: يا نفس اصبري، ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء، مخافة أن يشاركوهم فيه. إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير. هذا قول، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه، مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وفي هذا تعريض لرسوله محمد عليه السلام وإعلام له، بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة، والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرُّهُ بِشْمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بشمن قليل. قال مجاهد وعكرمة: والبخس هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: اعتاض عنه إخوته بشمن دون قليل، ومع ذلك ﴿كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرُّهُ﴾ عائد على إخوة يوسف؛ وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَوَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به، وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شَرُّهُ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿بِخْسٍ﴾ الحرام؛ وقيل: الظلم، وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد

هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كلُّ أحدٍ، أن ثمنه حرامٌ على كل حال وعلى كل أحد، لأنه نبيُّ ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس: الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته وقد باعوه ومع هذا يأنقص الأثمان، ولهذا قال: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً﴾ فعن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة، وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً، وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً.

وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل، وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يابق، حتى وقفوه بمصر، فقال: مَنْ يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

٢١- يخبر تعالى بالطفاه بيوسف عليه السلام، أنه قبض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير؛ قال العوفي عن ابن عباس: وكان اسمه: قطفير. وقال محمد بن إسحاق: اسمه: اطفير بن رويح، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان ابن الوليد رجل من العماليق، قال واسم امرأته: راعيل بنت رعائيل، وقال غيره: اسمها زليخا. وعن عبد الله ابن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ^(١).

يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد، ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد ابن جبير ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: فعال لما يشاء، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقولون: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه، وفعله لما يريد.

٢٢- وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: استكمل عقله، وتم خلقه، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة، أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنه كان مُحْسِنًا في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وعن ابن عباس: بضع وثلاثون (وقيل غير ذلك). وقال الإمام مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي: الأشد الحلم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَاوَدتُّهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾

(١) هو من رواية أبي عبيدة عنه، وفيها انقطاع، ولكنني أبقيته لصحة معناه وحسنه.

أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

٢٣- يخبر تعالى عن امرأة العزيز، التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوضاها زوجها به وياكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها **﴿وقالت هيت لك﴾** فامتنع من ذلك أشد الامتناع **﴿وقال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾** وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي، وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله **﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾** قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقد اختلف القراء في قوله: **﴿هيت لك﴾** فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان التاء، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس **﴿هيت لك﴾** تقول: هلم لك، وكذا قال زر بن حبیش وعكرمة والحسن وقتادة، وقال السدي: أي: هلم لك، وهي بالقبطية، وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها، وقال البخاري: وقال عكرمة **﴿هيت لك﴾** أي: هلم لك بالهورانية، هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحب هذه القراءة - يعني **﴿هيت لك﴾** - ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

وقرأ ذلك آخرون: **﴿هيت لك﴾** بكسر الهاء والهمز وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، وممن روي عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبر وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقرأ عبد الله بن إسحاق: **﴿هيت﴾** بفتح الحاء وكسر التاء وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة **﴿هيت﴾** بفتح الهاء وضم التاء.

روى عبد الرزاق: عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود - وقد سمع القراء متقاربين - فاقروا كما علمتم وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. ثم قرأ عبد الله: **﴿هيت لك﴾** فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤونها **﴿هيت﴾** قال عبد الله: أن أقرأها كما علمت أحب إلي، وروى ابن جرير: عن ابن مسعود قال: **﴿هيت لك﴾** بنصب الهاء والتاء ولا تهمز، وقال آخرون: **﴿هيت لك﴾** بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: هيت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لك، وهيت لكم، وهيت لكما وهيت لكن، وهيت لهن.

﴿ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من

عبادنا المخلصين ﴿٢٤﴾

٢٤- اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره، والله أعلم، وقيل: المراد بهم بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا: حديث أبي هريرة **﴿قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن**

هم بسببته فلم يعملها، فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرّائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها» هذا الحديث مخرّج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة هذا منها.

وقيل: هم بضربها، وقيل: تمنّاها زوجة، وقيل: **«همّ بها لولا أن رأى برهان ربه»** أي: فلم يهّم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية! حكاه ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه، ففيه أقوال أيضاً، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عاضاً على أصبعه بضمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله، تزجره عما كان همّ به؛ وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يُطلق كما قال الله تعالى.

وقوله: **«كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء»** أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء، في جميع أموره **«إنه من عبادنا المخلصين»** أي: من المجتبيين المطهرين، المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

«واستبقا الباب وقدت قميصه من دبرٍ وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبرٍ فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبرٍ قال إنه من كيدك إن كيدك عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩)

٢٥- يخبر تعالى عن حالهما، حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقه في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قدماً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة، وقاذفة يوسف بدائها **«ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً»** أي: فاحشة **«إلا أن يسجن»** أي: يحبس **«أو عذاب أليم»** أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.

٢٦- فعند ذلك انتصر يوسف **«بالحق»** وبالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و**«قال»** باراً صادقاً **«هي راودتني عن نفسي»** وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها، حتى قدت قميصه **«وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل»** أي: من قدّامه **«فصدقت»** أي: في قولها إنه راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه، دفعته في صدره فقدت قميصه، فيصح ما قالت.

٢٧- **«وإن كان قميصه قد من دبرٍ فكذبت وهو من الصادقين»** وذلك يكون كما وقع، لما هرب منها وتطلبت، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه؛ وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف: فعن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس قال: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير، وقد ورد فيه حديث مرفوع (١).

٢٨- وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف، وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ﴾ أي: إن هذا البُهت واللطخ، الذي لطخت عرض هذا الشاب به، من جملة كيدك ﴿إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾.

٢٩- ثم قال أمراً ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: اضرب عن هذا صفحاً، أي: فلا تذكره لأحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يقول لامراته - وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه - فقال لها: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجَ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

٣٠- يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث به الناس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرون على امرأة العزيز - وهو الوزير - ويعين ذلك عليها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو: غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغْفُ: الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومرادتها إياه عن نفسه.

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين، من أترج ونحوه.

(١) وهو ضعيف سنداً، ومن جهة النظر أيضاً، إذ لو كان كذلك لكان برهاناً قاطعاً، ومعجزة ظاهرة ليوسف ﷺ وصدقه، وروى البخاري في صحيحه (٤٧٦ / ٦) ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر عيسى ﷺ وصبي جريج وصبي بني إسرائيل. وانظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (٨٨٠).

ولهذا قال تعالى: **﴿وَأْتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾** وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته **﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ﴾** وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر **﴿فلما﴾** خرج و**﴿رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾** أي: أعظم شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين. والمراد: أنهن حَزَزْنَ أيديهن بها، قاله غير واحد. وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم.

وقد ذكر غير واحد: أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن يخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسن بالألم جعلن يُولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا؟ فكيف ألام أنا؟ **﴿فَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه، ولا قريباً منه، فإنه **﴿يُوسُفُ﴾** كان قد أُعطي شَطْرَ الحُسْنِ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: في حديث الإسراء: أن رسول الله **﴿ﷺ﴾** مرَّ بيوسف **﴿ﷺ﴾** في السماء الثالثة قال: **﴿فإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ﴾**.

وعن أنس قال: قال رسول الله **﴿ﷺ﴾**: **﴿أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ﴾** (١). قال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف **﴿ﷺ﴾** كان على النصف من حسن آدم **﴿ﷺ﴾**، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أُعطي شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته **﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾** قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله **﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾** وقرأ بعضهم ما هذا **﴿بَشِيرًا﴾** أي: بمشترى بشراء **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**.

٣٢- **﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ﴾** تقول هذا معتذرة إليهن، بأن هذا حقيق أن يُحبَّ لجماله وكماله **﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾** أي: فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة، التي تخفى عنهن وهي «العفة» مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده **﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾**.

٣٣- فعند ذلك استعاذ يوسف **﴿ﷺ﴾** من شرهن وكيدهن، وقال: **﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾** أي: من الفاحشة **﴿وَالْإِصْبَاحُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾** أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فاستجاب له ربه. الآية. وذلك أن يوسف **﴿ﷺ﴾** عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله، تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله، ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين: أن رسول الله **﴿ﷺ﴾** قال: **﴿سبعةٌ يظلهم في ظله، يومَ لا ظلَّ إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ معلقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحاببا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شماله ما أنفقتَ يمينه، ورجلٌ﴾**

(١) رواه الطبراني، في تفسيره (١٢٣ / ١٢) - طه لاق - والحاكم في المستدرک (٥٧٠ / ٢).

دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه.»

﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) ﴾

٣٥- يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه، أنهم يسجنونه إلى ﴿حينٍ﴾، أي: إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته، وظهرت الآيات، وهي: الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث، إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج، حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقي العِرض، صلوات الله وسلامه عليه، وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لثلاث أسباب ما كان منها في حقه، وبيراً عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ

رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾

٣٦- قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه.

قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما، أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجدود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السميت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به، وأحباها حباً شديداً، وقالوا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد، إلا دخل علي من محبته ضرر، أحببني عمتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحببني امرأة العزيز فكذلك، فقالوا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى: أنه يعصر خمراً - يعني عنباً - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود (إني أراي أعصر عنباً) ورواه ابن أبي حاتم. (وكذا قال الضحاك وزاد): وأهل عمان يسمون العنب خمراً.

وقال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم: أني غرست حبلّة من عنب، فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن، ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقه خمراً، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُهُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ الآية. والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، أنهما رأيا مناماً. وطلبا تعبيره.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي

تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾

٣٧- يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال مجاهد: يقول ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ

تُرْزَقَانِهِ ﴿ فِي يَوْمِكُمْآ ﴾ إِلَّا نَبَاتِكُمْآ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْآ ، وكذا قال السدي .

٣٨- ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الآية ، يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال مَنْ سلك طريق النهدي ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يُقْتَدَى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ هذا التوحيد ، وهو : الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ﴿ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أي : أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاءً لهم إلى ذلك ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل إليهم ، بل ﴿ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم : عن عطاء عن ابن عباس : أنه كان يجعل الجد أباً ، ويقول : والله لمن شاء لاعتته عند الحجر ، ما ذكر الله جدّاً ولا جدة ، قال الله تعالى - يعني إخباراً عن يوسف - : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْراً أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

٣٩- ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما ، فقال : ﴿ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي : الذي ذل كل شيء لعز جلاله ، وعظمة سلطانه .

٤٠- ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هي جعلٌ منهم ، وتسميه من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستندة من عند الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي : حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيشة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة ، أن لا يعبدوا إلا إياه . ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي : هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان ، الذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فلماذا كان أكثرهم مشركين ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد قال ابن جريج : إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا ، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما ، فأحب أن يشغلها بغير ذلك ، لئلا يعاودوه فيها ، فعادوه فأعاد عليهم الموعدة .

وفي هذا الذي قاله نظر ! لأنه قد عددهما أولاً بتعبيرها ، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام ، وصلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام ، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير ، والإقبال عليه ، والإنصات إليه ، ولهذا لما فرغ من دعوتهما ، شرع في تعبير رؤياهما ، من غير تكرار سؤال ، فقال :

﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ

الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

٤١ - يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يُعَيِّنْه لثلاث يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا فِي الْآخِرِ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، ثم أعلمهما أن هذا فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وقعت.

وروى الثوري: عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله: أن من تحلّم بباطل وفسّره، فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم. وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد: عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وقعت».

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ

سِنِينَ ﴿٤٢﴾

٤٢ - ولما ظن يوسف ﷺ أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم - لثلاث يشعره أنه المصلوب - قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يُذَكَّرَ مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلاث يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائذ على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائذ على يوسف ﷺ. رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم.

وأسند ابن جرير ههنا حديثاً: عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله!» وهذا الحديث ضعيف جداً، وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا، لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وَأَمَّا الْبُضْعُ: فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع.

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال: ثنتا عشرة سنة،

وقال الضحاك: أربعة عشرة سنة.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

يَأْسَاتُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿

٤٣ - هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معزراً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة، وكبار دولته وأمراءه فقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها:

٤٤ - ﴿أضغاث أحلام﴾ أي: أخلاط أحلام، اقتضته رؤياك هذه ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها.

٤٥ - فعند ذلك تذكَّر الذي نجا، من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بعد أمة﴾ أي: مدة، وقرأ بعضهم ﴿بعد أمة﴾ أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي: للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أي: هذا المنام ﴿فأرسلون﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام: فبعثوه فجاء فقال:

٤٦ - ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها، من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصَّاه به، ومن غير استشراف للخروج قبل ذلك.

٤٧، ٤٨ - بل قال: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسَّر البقر بالسنين، لأنها تُشير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضراء، ثم أرشدنهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له، وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحل، التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهم لا يبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون﴾.

٤٩ - ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي، بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عام فيه يغاث الناس﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، من زيت ونحوه وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وفيه يعصرون﴾ يحلبون.

﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ (٥٠) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن

الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) ﴿

٥٠- يقول تعالى إخباراً عن الملك، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من يبده من رعاياه، فقال **﴿اتوني به﴾** أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج، حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: **﴿ارجع إلى ربك﴾** الآية.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحاحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾** الآية، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، لأجبت الداعي».

وفي لفظ لأحمد: عن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن أعلم﴾** فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كنت أنا لأسرت الإجابة، وما ابتغيت العذر».

٥١- وقوله تعالى: **﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾** إخباراً عن الملك، حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، وقال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن **﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾** أي: شأنكن وخبركن **﴿إذ رَاوَدْتَنِّي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾** يعني: يوم الضيافة **﴿قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾** أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك **﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق، وظهر وبرز **﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أي: في قوله: **﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾**.

٥٢، ٥٣- **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾** تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** وما أبرئ نفسي، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته، لأن **﴿النفسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** أي: إلا من عصمه الله تعالى **﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وهذا القول هو الأشهر، والأليق والأنسب بسياق القصة، ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة.

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام، يقول **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾** في زوجته **﴿بِالْغَيْبِ﴾** الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز **﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾** في زوجته **﴿بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** الآية. وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وهكذا قال

مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي . والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

٥٤- يقول تعالى إخباراً عن الملك، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أ جعله من خاصتي، وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملك، وعرفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة .

٥٥- فقال يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه .

وقال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعني، عليم بسني الجذب . رواه ابن أبي حاتم .
وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعل على خزائن الأرض، وهي: الأهرام التي يُجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُنْصِبُ لَهُ رِزْقًا مِنْ شَاءِ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

٥٦- يقول تعالى: ﴿و كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي: أرض مصر ﴿يتبعونها من حيث يشاء﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار ﴿نُنْصِبُ لَهُ رِزْقًا مِنْ شَاءِ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فللهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿و لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

٥٧- ﴿و لأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولأه ملك مصر «الريان بن الوليد» الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر، زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام . قاله مجاهد .

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ

اَتُّونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿

٥٨- ذكر السدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر: أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع سنين المخصبة، ثم تلتها السبع سنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وبعياليهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمانه، فأخذوا معهم بضاعة يتعاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف: فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم **﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾** أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلماذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمُنكر عليهم ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: اتُّونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ، لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ **﴿الْأَتْرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾** يرغبهم في الرجوع إليه.

٦٠- ثم رهَّبهم فقال **﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾** الآية، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة **﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾**

٦١- **﴿قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾** أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهود لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي: أنه أخذ منهم رهائن، حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر! لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم **﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾** أي: غلماناه **﴿اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ﴾** أي: التي قدموا بها، ليمتاروا عوضاً عنها **﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾** أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** بها؛ قيل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى، يرجعون للميرة بها، وقيل:

تذمم^(١) أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم، تخرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ ﴾ (٦٣)
 قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)
 ٦٣- يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون. قرأ بعضهم بالياء، أي: يكتل هو ﴿وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا في يوسف ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾.

٦٤- ولهذا قال لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيّبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وقرأ بعضهم ﴿حَافِظًا﴾ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي، ووَجْدِي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٦)

٦٥- يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياته بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ماذا نريد ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى أنكيل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف ﷺ كان يُعطي كل رجل حمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً. كذا قال! ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير، في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرّون على تخليصه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكدّه عليهم فقال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بداً من بعثهم، لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا

(١) تذمم: استنكف. وأخذتني منه مذمة: أي: رقة وعار من ترك الحرمة (القاموس).

﴿عَلَّمَنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

٦٧ ، ٦٨ - يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنبيه لما جهّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه. وروى ابن أبي حاتم: عن إبراهيم النخعي في الآية قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب.

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أن هذا الاحتراز لا يردُّ قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يُغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿وإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمَنَاهُ﴾. قال قتادة والثوري: لدو علم يعلمه، وقال ابن جرير: لدو علم لتعليمنا إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يَوْسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

٦٩ - يخبر تعالى عن إخوة يوسف، لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه «بنيامين» وأدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له ﴿لَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يقيه عنده، معزراً مكرماً معظماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠)
قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ

زَعِيمٌ (٧٢)

٧٠ - لما جهّزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانته أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة، في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب. قال ابن زيد: كان يشرب فيه ويكيل للناس به، من عزة الطعام إذ ذاك. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: صواع الملك قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا:

٧١ ، ٧٢ - ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ قالوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ﴿أَي: صاعه الذي يكيل به﴾ ولِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ

بَعِيرٍ ﴿وهذا من باب: الجعالة﴾ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿وهذا من باب: الضمان والكفالة﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رِحْلِهِ فهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ

بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿٧٦﴾

٧٣- لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ٧٤- ﴿فما جزاؤه﴾ أي: السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته، إن وجدنا فيكم من أخذه؟

٧٥- ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام.

٧٦- ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله تورية ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، والزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد، الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. و قوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره: وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ الآية.

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل، وكذا روى عبد الرزاق: عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بش ما قلت، الله العليم، فوق كل عالم. وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾: حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: ﴿وفوق كل عالم عليم﴾.

﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾ (٧٧)

٧٧- وقال إخوة يوسف، لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به: يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير و قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه، فكسره.

و قوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، في منشورها وأخبارها وأشعارها، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال أسرفي نفسه: ﴿أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾.

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ (٧٨) قال معاذ

اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾

٧٨- لَمَّا تَعَيَّنَ أَخْذَ بَنِيَامِينَ ، وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يَوْسُفَ بِمَقْتَضَى اعْتِرَافِهِمْ ، شَرَعُوا يَتَرَقَّقُونَ لَهُ ، وَيُعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ﴿فَقَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يَعْنُونَ : وَهُوَ يَحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا ، وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنِ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ أَي : بَدَلَهُ ، يَكُونُ عِنْدَكَ عَوْضًا عَنْهُ ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي : الْعَادِلِينَ الْمُتَّصِفِينَ ، الْقَابِلِينَ لِلْخَيْرِ .

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أَي : كَمَا قَلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ﴾ أَي : إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِسَقِيمٍ .

﴿فَلَمَّا اسْتِيَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

٨٠- يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يَوْسُفَ : أَنَّهُمْ لَمَّا يَتَسَوَّأُوا مِنْ تَخْلِيصِ أَخِيهِمْ «بَنِيَامِينَ» الَّذِي قَدْ التَزَمُوا لِأَيِّهِمْ بَرْدُهُ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿خَلَصُوا﴾ أَي : انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿نَجِيًّا﴾ يَتَنَاجُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وَهُوَ : رُوَيْبِلُ ، وَقِيلَ : يَهُودَا ، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِإِلْقَائِهِ فِي الْبُئْرِ عِنْدَمَا هَمُّوا بِقَتْلِهِ ، قَالَ لَهُمْ ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لِتَرْدِنَهُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعْذَرُ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يَوْسُفَ عَنْهُ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أَي : لَنْ أَفَارِقَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قِيلَ : بِالسَّيْفِ ، وَقِيلَ : بِأَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْ أَخْذِ أَخِي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

٨١- ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْبِرُوا آبَاءَهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ ، حَتَّى يَكُونَ عِذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ ، وَيَبْرُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَعُكْرَمَةُ : مَا عَلَّمْنَا أَنَّ ابْنَكَ يَسْرُقُ .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ : مَا عَلَّمْنَا فِي الْغَيْبِ أَنَّهُ سَرَقَ لَهُ شَيْئًا ، إِنَّمَا سَأَلْنَا مَا جَزَاءُ السَّارِقِ ؟

٨٢- ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قِيلَ : الْمَرَادُ مِصْرَ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَقِيلَ : غَيْرَهَا ﴿وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَي : الَّتِي رَافَقْنَاهَا ، عَنْ صَدَقْنَا وَأَمَانَتْنَا ، وَحَفِظْنَا وَحِرَاسَتَنَا ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ ، مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذُوهُ بِسَرِقَتِهِ .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

٨٣- قال لهم ، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب ، وأخبروه بما جرى ، اتهمهم فظن أنها كفتهم بيوسف ، قال ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، أسحب حكم الأول عليه ، وضح قوله : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وأخاه بنيامين وروبييل ، الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ؛ ولهذا قال : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي : العليم بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره .

٨٤- ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُونُسَ﴾ أي : أعرض عن بنيه ، وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم ﴿يَا أَسَفَا عَلَى يُونُسَ﴾ جدَّ له حزن الابنين ، الحزن الدفين . روى عبد الرزاق : عن سعيد بن جبير : أنه قال لم يُعط أحدٌ غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿يَا أَسَفَا عَلَى يُونُسَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . قاله قتادة وغيره . وقال الضحاك : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كتيب حزين .

٨٥- فعند ذلك رق له بنوه ، وقالوا له على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه ﴿تَاللَّهِ تَفَتُّوا تَذَكَّرُوا يُونُسَ﴾ أي : لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي : ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلال والتلف .

٨٦- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي : أجابهم عما قالوا بقوله : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ أي : همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي : أرجو منه كل خير ، وعن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني : رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها .

﴿يَا بَنِي إِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين (٨٨) ﴿

٨٧- يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض ، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس : يكون في الخير ، والتجسس : يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا يياسوا من روح الله ، أي : لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرمونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ، و﴿لَا يِيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

٨٨- وقوله : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ﴾ يعنون : من الجذب والقحط ، وقلة الطعام ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي : ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره ، وهو ثمن قليل ، قاله مجاهد والحسن وغير واحد ، وقال ابن عباس : الرديء لا ينفق ، مثل خلق الغرارة والحبل والشيء ، وفي رواية عنه : الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان . وكذا قال قتادة والسدي ، وقال سعيد بن جبير : هي الدراهم الفسول . وأصل الإزجاء : الدفع لضعف الشيء .

وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل، ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَأَوْقِرْ رِكَابَنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجاوز فيها، وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء، قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؟ رواه ابن جرير. وروي عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهداً: وسئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يتغي الثواب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾

الراحمين (٩٢)

٨٩- يقول تعالى مخبراً عن يوسف ﷺ، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق، وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر آياه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة، ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرّف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة، وقال ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ الآية.

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف ﷺ إنما تعرّف إليهم بنفسه، بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأولين، بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال، واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

٩٠- فعند ذلك قالوا: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسَ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُونُسَ﴾ وقرأ ابن محيصن ﴿أَنْتَ يُونُسَ﴾ والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك، أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلماذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي﴾. وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بجمعه بيننا، بعد التفرقة وبُعد المدة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٩١- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل، والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك والتصرف، والنبوة أيضاً، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقرّوا بأنهم أساءوا إليه، وأخطأوا في حقه.

٩٢- ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ يقول: أي: لا تأنيب عليكم، ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنوبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال **﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** يقول: لا أذكر لكم ذنبكم، وقال ابن إسحاق والثوري: أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم **﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾** أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم **﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣) ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون (٩٤) قالوا تالله إنك لفي ضلالك

القديم (٩٥)

٩٣- يقول، اذهبوا بهذا القميص **﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾** وكان قد عمي من كثرة البكاء **﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: بجميع بني يعقوب.

٩٤- **﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ﴾** أي: خرجت من مصر، **﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾** يعني: يعقوب **﴿لَمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِي﴾** **﴿إِنِّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾** تنسبوني إلى الفند والكبر.

روى عبد الرزاق: عن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: **﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ﴾** قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال **﴿إِنِّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾** قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وقوله: **﴿لَوْلا أَن تَفْنَدُونَ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبيرة: تسفهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون.

٩٥- وقولهم **﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾** قال ابن عباس: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله **﴿وَكذًا قَالَ السَّادِي وَغَيْرِهِ﴾**.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾** (٩٧) **﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾**

الرحيم (٩٨)

٩٦- قال ابن عباس والضحاك **﴿الْبَشِيرُ﴾** البريد، وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به، لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك **﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** أي: أعلم أن الله سيرده إليّ، وقلت لكم **﴿إِنِّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾**.

٩٧- فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له **﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾** قال **﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يَوْسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَنصَرًا إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ (٩٩) ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن

بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

٩٩- يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام، وقدمه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف، لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، وأوى إليه أبويه ورفعهما على العرش. ورد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف أوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد، قال ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ وفي هذا نظر أيضاً! لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وفي الحديث: «مَنْ أَوَى مَحْدَثًا وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ بَعْدَ مَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَأَوَاهُمْ إِلَيْهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ؟ وَضُمَّتْهُ اسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ، أَي: مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْقَهْطِ؟»

ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجذبة، بركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة، حين قال: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِ يَوْسُفَ» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم فرُفِعَ عنهم بقية ذلك، بركة دعائه عليه السلام. وقوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أبوه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً! وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمّه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يبق دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره هو المتصور الذي يدل عليه السياق.

١٠٠- وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريريه ﴿وَجَرُّوا لَهُ سُجُودًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصتها على أبيه من قبل ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحُرِّمَ هذا في هذه الملة، وجُعِلَ السُّجُودُ مختصاً بجانب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث: أن معاذاً قديم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنتُ امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ، لأمرتُ امرأةً أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها»^(١).

والغرض: أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خرُّوا له سجداً، فعندها قال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا

(١) رواه ابن ماجه (١/١٨٥٣) وابن حبان (١٢٩٠- زوائد) وغيرهما. انظر تعليقنا على الوصية الكبرى (ص ٥٠).

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا أَي: هذا ما آل إليه الأمر، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أَي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر. وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أَي: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أَي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا من أهل البادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربيات من أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أَي: إذا أراد أمراً، قِيضَ لَهُ أَسْبَاباً، وَقَدَّرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده، قال أبو عثمان النهدي عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وروى أيضاً: عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)

١٠١ - هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل، لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه **﴿بِالصَّالِحِينَ﴾** وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً.

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحيينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأله ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس: يقول ماتمني نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾**.

ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا،

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضُرِّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مَتَمَّنِيَا الْمَوْتَ، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» وأخرجاه في الصحيحين.

وعندهما: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضُرِّ نَزَلَ بِهِ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَيَزِدَادُ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتَبُ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

وهذا فيما إذا كان الضرُّ خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين، فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة، لما أرادهم فرعون عن دينهم، وتهدهم بالقتل ﴿قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو: الطلق إلى جذع النخلة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج، وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: في قصة المنام والدعاء الذي فيه «وإذا أردت بقوم فتنة، فاقبضني إليك غير مفتون».

وروى الإمام أحمد: عن محمود بن لبيد مرفوعاً: أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: يكره الموت، والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب».

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته، لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهم خذني إليك، فقد سئمتهم وسئمونني. وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك الفتنة، وجرى له مع أمير خراسان ما وقع - قال: اللهم توفني إليك.

وفي الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُرُّ بِالْقَبْرِ - أَي فِي زَمَانِ الدَّجَالِ - فيقول يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتن والزلال، والبلابل والأمور الهائلة، التي هي فتنة لكل مفترين، قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

وذكر السدي: أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يُدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليه السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسَأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾

١٠٢ - يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد، من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به يا محمد، لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم، ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

به، ولكننا أعلمناك به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك، كقوله ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ الآية، وقال: ﴿وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ الآية، وقال ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين».

يقول تعالى: إنه رسوله، وإنه قد أطلعه على أبناء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال:

١٠٣- ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، كقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

١٠٤- وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد ﴿من أجر﴾ أي: من جعالة ولا أجر، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقه ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وكآين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (١٠٥) وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦) أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون (١٠٧)﴾

١٠٥- يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض، من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين: إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: إنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد». أي: حسب حسب، لا تزيدوا على هذا.

وقال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين: عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ وثم شرك آخر خفي، لا يشعر به غالباً

فاعله، كما روي عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو انتزعه - ثم قال: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**.

وفي الحديث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شُرَكَاءَ». وفي لفظ لهما: «الطَّيْرَةُ شُرَكَاءُ، وَمَا مِثْلُهَا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ».

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندني عجوز ترقيني من الحُمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقِي لي فيه، فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شُرَكَاءَ» قالت: قلت له: لم تقول هذا؟ وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقئها، فكان إذا رقاها سكنت؟ فقال: إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا ذَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، كَانَ يَنْخَسُهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا رَقَاها كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَذْهَبَ البَّاسُ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يَغَادِرُ سَقَمًا».

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ» رواه مسلم.

و عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوْلِيَيْنَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ، يُنَادِي مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ» رواه الإمام أحمد.

وروى أحمد: عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرِّبَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا جَازَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءَوْنَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جِزَاءً؟».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»، قالوا يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وروى الإمام أحمد: عن أبي علي رجل من بني كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنائين عمر ماذونا لنا أو غير ماذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف

نتقيه، وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم إنا نعوذُ بك من أن نُشركَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفرُك لما لا نعلمه». وقد روي من وجه آخر، وفيه: أن السائل في ذلك هو الصديق.

وقد روى الإمام أحمد: وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي: من حديث أبي هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، يا رسول الله، علّمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي، قال: قل: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذُ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه». رواه أبو داود والنسائي وصححه، وزاد الإمام أحمد في رواية له: «وأن أترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم».

وقوله: «**أفامنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله**» الآية، أي: أفامن هؤلاء المشركون بالله، أن يأتيهم أمرٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: «**أفامن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون**» أو يأخذهم في قلبهم فما هم بمعجزين» أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم»، وقوله: «**أفامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون**» أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» أفامنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون».

﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من**

المشركين (١٠٨) ﴿

١٠٨ - يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقليين الجن والإنس، أمرأله أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يعد إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ﴿**على بصيرة**﴾ ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿**وسبحان الله**﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه، عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه، وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً**﴾.

﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف**

كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون (١٠٩) ﴿

١٠٩ - يخبر تعالى أنه إنما أرسل رُسُلَه من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، إن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات آدم وحيّ تشريع، وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران، وأم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقولون: ﴿**و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه**﴾ الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم، وبشرها بعيسى ﷺ، ويقولون تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**﴾ يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى

الكلام معه : في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجردة، أم لا؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صدّيقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهنّ مريم بنت عمران، حيث قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدّيقة بنص القرآن.

وقال الضحّاك عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي : ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية، وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ثم صدّقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المُسْرِفِينَ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية .

وقوله : ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ المراد بالقرى المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم من أجفَى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف، أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل بواديهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية، وقال قتادة في قوله : ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العمور.

وفي الحديث الآخر : أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقه، فلم يزل يُعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ : «لقد هممت أن لا أتعب هبة، إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقيفي، أو دوسي» (١).

وروى الإمام أحمد : عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش : هو ابن عمر - عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» . وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني : هؤلاء المكذّبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي : من الأمم المكذّبة للرسول، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين، ونجّى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي : وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خيرٌ لهم من الدنيا بكثير، كقوله : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وأضاف الدار إلى الآخرة، فقال ﴿وَلِدَارِ الْآخِرَةِ﴾ كما يقال : صلاة الأولى، ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس .

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠)

﴿الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠)

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٥)، ومعناه : أن لا أقبل هدية إلا من هؤلاء، لأنهم أصحاب مدن وقرى، وهم أعرف بمكارم الأخلاق... (نهاية).

١١٠ - يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، عند ضيق الحال ، وانتظار الفرج من الله ، في أحوج الأوقات إلى ذلك ، كقوله تعالى : **﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾** الآية ، وفي قوله : **﴿كُذِّبُوا﴾** قراءتان : إحداهما بالتشديد **﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾** ، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها . روى البخاري : عن عروة بن الزبير : عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ﴾** قال : قلت : أكذبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة : كُذِّبوا ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن؟ قالت : أجل لعمرى ، لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : **﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية؟ قالت : هم أتباع الرسل ، الذين آمنوا بربهم وصدقهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ﴾** ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . وروى أيضاً عن عروة : فقلت : لعلها **﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾** مخففة؟ قالت : معاذ الله ، انتهى ما ذكره .

و عن ابن مليكة أن ابن عباس قرأها **﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** خفيفة ، قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس : كانوا بشراً ، ثم تلا **﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا أَنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبًا﴾** وقال لي ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة عن عائشة : أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت : ما وعد الله محمد ﷺ من شيء ، إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل ، حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها **﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** مثقلة من التكذيب .

وروى ابن أبي حاتم : عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد ، فقال : إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** فقال القاسم : أخبروه عني أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** تقول : كذبتهم أتباعهم . إسناد صحيح أيضاً . والقراءة الثانية بالتخفيف ؛ واختلفوا في تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم .

و عن ابن مسعود : فيما رواه الثوري عنه أنه قرأ **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** مخففة ، قال عبد الله : هو الذي تكره . وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما عن ابن عباس : فروى مسلم عنه قال : لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك **﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ﴾** . وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله .

وروى ابن جرير : عن إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال : سألت فتى من قریش سعيد بن جبير قال : أخبرنا أبا عبد الله ، كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُولُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** قال : نعم ، حتى إذا استيسر الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاک بن مزاحم : ما رأيت كاللوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ لورحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً . ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر : أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابته بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتنقه ، وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني ، وهكذا روى من غير وجه عن

سعيد ابن جبير أنه فسرها كذلك . وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف ، حتى أن مجاهداً قرأها ﴿ووظنوا أنهم قد كذبوا﴾ بفتح الذال . رواه ابن جرير .

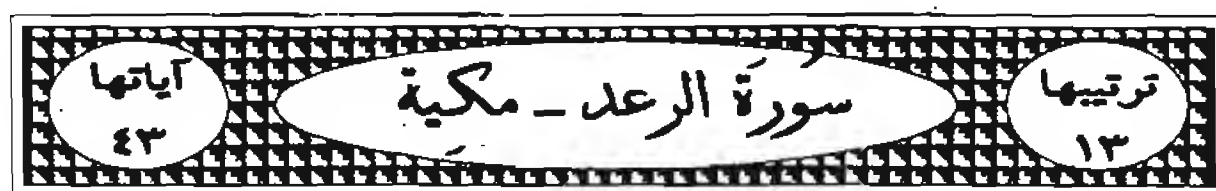
إلا أن بعض من فسرها كذلك ، يُعيد الضمير في قوله : ﴿ووظنوا أنهم قد كذبوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين ، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم ، أي : وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا ، مخففة فيما وعدوا به من النصر .

وأما ابن مسعود فروى ابن جرير عن تميم بن حذلم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف . فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ، ووجه المشهور عن الجمهور ، وزيف القول الآخر بالكلية ، وردّه وأباه ، ولم يقبله ولا ارتضاه ، والله أعلم .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

١١١ - يقول تعالى لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين ، وأهلكنا الكافرين ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾ وهي العقول ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي : وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي : يكذب ويختلق ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي : من الكتب المنزلة من السماء ، هو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .

﴿وتفصيل كل شيء﴾ من تحليل وتحريم ، ومحسوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات ، وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى ، بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدّمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه، ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر! بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة، أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والجلء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد والنفاق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

٢- يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيرها، رفعها عن الأرض، بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماوات الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها، من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماوات الدنيا وما حوت، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكيف ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملته يحملونه، ولا يُتصور هذا في الفلك المستدير، هذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿يُقِصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات، الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٣- لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته، وأحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات، المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من كل شكل صنفان ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان، كما يتصرف في المكان والسكان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.

٤- وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد، ويدخل في هذه الآية: اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل

متجاورات، فهذه نصفها وهذه نصفها الآخر، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك؛ وغير الصنوان ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه». وروى الثوري: عن البراء رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات. وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

وقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿وَوُفِّضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال: «الدَّقْلُ والفارسي والحلو والحامض» رواه الترمذي. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفْصٌ، وهذا عذب، وهذا جَمَعَ هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

٥- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه، ودلائله في خلقه، على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكوتها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره: في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا، ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل، أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق، فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: يُسحبون بها في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما كُتِبَ فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ﴾

عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

٦- يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ما نُزِّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا﴾ الآية، أي: عقابنا وحسابنا، كما قال مخبراً عنهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ رِنَ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلْتُمْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتِ﴾ أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه، لعاجلهم بالعقوبة، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ﴾ أي: أنه تعالى ذو عفوٍ وصفحٍ وسترٍ للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار.

ثم قرن هذا الحكم بأنه: شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بِأَسْئَتِهِمْ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات، التي تجمع الرجاء والخوف.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

٧- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد، وقال أبو صالح ويحيى بن رافع ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: قائد، وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل، وعن عكرمة والضحاك ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَالَمٌ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

٨- يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: **﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾** أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: **﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾** أي: خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۖ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتْبِ رِزْقِهِ وَعَمْرِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ﴾** وفي الحديث الآخر: **﴿فَيَقُولُ: «الْمَلَكُ»: أَي رَبِّ، أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَي رَبِّ أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ﴾**.

وقوله: **﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** روى البخاري: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **﴿مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ﴾**.

وقال العوفي عن ابن عباس **﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ﴾** يعني: السقط **﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾** يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت، حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاک عن ابن عباس نحوه.

وقال مجاهد **﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاک، وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة، زاد على التسعة مثل أيام الحيض، وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد؛ وقال مجاهد أيضاً **﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ﴾** إراقة المرأة حتى يخس الولد **﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾** إن لم تهرق المرأة، ثم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه؛ فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدت وعقلت، قلت: هو الموت أو القتل، أنى لي بالرزق؟! ثم قرأ مكحول: **﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾** الآية.

وقال قتادة **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾**: أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وأجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن

يحضره، فبعث إليها يقول: «إنَّ الله ما أخذَ وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى؛ فمُرَّها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه.

وقوله: «عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء «الكبير» الذي هو أكبر من كل شيء «المتعال» أي: على كل شيء «قد أحاط بكل شيء علماً» وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب، ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۚ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۗ﴾ (١١)

١٠- يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وإنه سواءٌ منهم من أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى» وقال: «ويعلم ما تخفون وما تعلنون» وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله «قد سمع قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير».

وقوله: «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ» أي: مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل «وساربٌ بالنهار» أي: ظاهر ماشٍ في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: «ألا حين يستغشون ثيابهم» الآية، وقوله تعالى: «وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآنٍ ولا تعملون من عملٍ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزبُ عن ربك من مقالٍ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين».

١١- وقوله: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون، لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والمعقبات من أمر الله: هي الملائكة. وقال عكرمة عن ابن عباس «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملكٌ موكلٌ، يحفظه في نومه ويقظته، من الجن والإنس والهوام، فما منها شيءٌ

يأتيه يريد، إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه. وروى الثوري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس، وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء الموابك من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: هو السلطان المحروس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر - والله أعلم - أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا، أن حرس الملائكة للعبد، يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم، وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟! قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير» انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال قتادة: وفي بعض القراءات (يحفظونه بأمر الله)، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدرُ خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بأمر الله.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (١٢) وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

المحال (١٣)

١٢ - يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع، ساطعاً من خلل السحاب. وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم، يرجو بركته، ويطمع في رزق الله ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشاءً جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: ﴿السحاب الثقال﴾ الذي فيه الماء.

١٣ - قال: ﴿وَيُسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

روى الإمام أحمد: عن شيخ من بني غفار: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن الله يُنشِئُ السَّحَابَ، فينطقُ أحسنَ النطق، ويضحكُ أحسنَ الضحك». والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد وضحكها البرق. وروى عن علي رضي الله عنه: أنه كان إذا سمع صوت الرعد، يقول: سبحان من سبَّحت له^(١). وكذا روي عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك، وقال الأوزاعي كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه الصاعقة. وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. ويقول: إن هذا لوعيدٌ شديد لأهل الأرض. رواه مالك في موطنه والبخاري في كتاب الأدب.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا

(١) رواه عنه ابن جرير (١٦ / ٣٨٩) وسنده ضعيف جداً، لكنه حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تكثر في آخر الزمان، كما روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تكثر الصواعقُ عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول: مَنْ صُعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

وقد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «أذهب فادعه لي» قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: مَنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أراه فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال: «ارجع إليه فادعه»، فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه، إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ» الآية، ورواه ابن جرير والحافظ أبو بكر البزار عن أنس نحوه.

وقوله: «وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» قال ابن جرير: شديدة مُمَاحِلَتِهِ في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: «وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ» وعن علي رضي الله عنه «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١٤)

١٤- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ» قال: التوحيد، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ» لا إله إلا الله «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الآية، أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله «كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ» قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد «كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ» يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد كقباض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء.

كما قال الشاعر:

فإني وإياكم وشوقاً إليكم كقباض ماء لم تسقه أنامله

ومعنى الكلام: أن الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً، في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ».

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥)

١٥- يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل

شيء، طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ﴿وِظَلَالُهُمْ بِالْغَدُوِّ﴾ أي: البكرات ﴿وَالْأَصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو: آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُوهُ ظُلُمَاتٌ﴾ الآية.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦)

١٦- يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا نفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً، أي: لا تحصل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبده هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟

ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب، وتمائله في الخلق، فخلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له، ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة، هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ لقد أحصاهم وعداهم عدداً. وكلهم آتية يوم القيامة فرداً.

فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسوله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَغْلِبُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١٧)

١٧- اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين، مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبيرٌ وسع كثيراً من الماء، وهذا صغيرٌ فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه

الماء الذي سال في هذه الأودية زيداً عال عليه ، هذا مثل ، وقوله : **﴿وَمَا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾** الآية ، هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار ، من ذهب أو فضة ، **﴿ابْتِغَاءَ حَلِيَةٍ﴾** أي : ليُجعل حلية ، أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زيد منه ، كما يعلو ذلك زيد منه **﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾** أي : إذا اجتمعا ، لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال : **﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً﴾** أي : لا يُنتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال : **﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾** كقوله تعالى : **﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾** وقال بعضُ السلف : كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه ، بكيت على نفسي ، لأن الله تعالى يقول : **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾** .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا﴾** الآية : هذا مثلٌ ضربه الله ، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله : **﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ﴾** وهو الشك **﴿يَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾** وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار ، فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ، ويترك الشك .

وقال العوفي عن ابن عباس ، قوله : **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾** : احتمل السيل ما في الوادي من عودٍ ودمنة **﴿وَمَا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾** فهو الذهب والفضة ، والحلية والمتاع ، والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت ، فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السيئ يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض ، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار ، فتأكل خبثه ويخرج جوده فينتفع به ، فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال ، فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق .

وهكذا روى في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين : نارياً ومائياً ، وهما قوله : **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾** الآية ، ثم قال : **﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾** الآية ، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين : أحدهما : قوله : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾** الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين : «يقال لليهود يوم القيامة فما تريدون؟ فيقولون : أي رينا عطشنا فأسقنا ، فيقال : ألا تردون؟ فيردون النار ، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً» .

ثم قال تعالى في المثل الآخر : **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾** الآية ، وفي الصحيحين : عن أبي موسى

الأشعري رحمته الله : أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلاً والعُشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» ، فهذا مثل مائي .

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها» قال : «فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا أخذٌ بحُجركم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني فتقتحمن فيها» وأخرجاه في الصحيحين أيضاً ، فهذا مثل نارِي .

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

١٨ - يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي : أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿الحسنى﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردُّ إلى ربه فيُعذِّبُه عذاباً نكراً﴾ وأما من آمن وعمل صالحاً فله ﴿جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي : لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي : في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ، ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي : في الدار الآخرة ، أي : يناقشون على النقيير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال : ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ .

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ ﴿١٩﴾﴾

١٩ - يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر ، فأخبره كلها حق ، وأوامره ونواهيها عدل ، كما قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي : صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب .

فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدي إلي خير لا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه ، كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ أي : أفهذا كهذا؟ لا استواء ، وقوله : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ أي : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل ، أولو العقول السليمة

الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴿

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدكم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان .

٢١- ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي : فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة، في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

٢٢- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي : عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل، ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها، وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي : على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقربات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي : في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي : في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي : يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً، وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وما يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء، المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة، بأن لهم عُقْبَى الدار .

٢٣- ثم فسر ذلك بقوله : ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ والعدن الإقامة، أي : جنات إقامة يخلدون فيها . وقال الضحاك في قوله : ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد، والجنات حولها، رواه ابن جرير . وقوله : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها، من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، امتناناً من الله وإحساناً، من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية .

وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي :

وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا، للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها، تفد عليهم الملائكة مُسَلِّمِينَ مَهْنَثِينَ لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرُونَ أولَ من يدخلُ الجنةَ من خَلْقِ الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أولُ من يدخلُ الجنةَ من خَلْقِ الله الفقراءُ المهاجرون، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغُورُ، وتَتَّقَى بهم المكارهُ، ويمُوتُ أحدهمُ وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتَّوَهُم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سماءك، وخيرتك من خَلْقِكَ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتُسدُّ بهم الثُّغُورُ، وتتَّقَى بهم المكاره، ويمُوتُ أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاءً، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»، ورواه أبو القاسم الطبراني.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾

٢٥- هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان». وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي: الإبعاد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي: سوء العاقبة والمآل ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين، إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أئتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم، أظهروا الثلاث خصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا وإذا أئتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾

٢٦- يذكر تعالى أنه هو الذي يُوسِّعُ الرِّزْقَ على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا، استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما

ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وقال: ﴿بَلْ تُوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وروى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة، رواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بجدي أسك ميت - والأسك الصغير الأذنين - فقال: «والله، للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه» (١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ أَن يُهْتَدِيَ﴾ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَثَابُ (٢٩)﴾

٢٧- يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كقولهم ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سأله أن يُحوَّلَ لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: «إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة» فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة» (٢).

ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ أَن يُهْتَدِيَ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بَعَثَ الرسل بآية على وفق ما اقترحوا، أولم يجيبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ أَن يُهْتَدِيَ﴾ أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به وتضرع لديه.

٢٨- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

٢٩- وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فرح وقرّة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم. ﴿وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ قال: هي أرض الجنة بالحشبية، وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة

(١) رواه مسلم أيضاً في الزهد (٤/٢٢٧٢) بنحوه، وقد ساقه المصنف هنا مختصراً.

(٢) رواه الإمام أحمد (١/٢٤٢) بنحوه.

بالهندية . وكذا روى السدي عن عكرمة **«طوبى لهم»** أي : الجنة . وبه قال مجاهد .

وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : طوبى شجرة في الجنة ، كل شجر الجنة منها ، أغصانها من وراء سور الجنة . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سليمان وأبي إسحاق السبيعي ، وغير واحد من السلف ، أن طوبى : شجرة في الجنة ، في كل دار منها غصن منها . وروى الإمام أحمد : عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : **«طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى ، لمن آمن بي ولم يرني»** قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : **«شجرة في الجنة ، مسيرتها مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»** .

وروى البخاري ومسلم جميعاً : عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : **«إن في الجنة شجرة ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»** . قال : فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقني ، فقال : حدثني أبو سعيد الخدري : عن النبي ﷺ قال : **«إن في الجنة شجرة ، يسير الراكب الجواد المضمر السريع ، مائة عام ما يقطعها»** .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى : **«و ظلٌ ممدودٌ»** قال : **«في الجنة شجرة ، يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها»** .

وفي صحيح مسلم : عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ : عن الله عز وجل : **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر»** الحديث بطوله .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلْتُوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ (٣٠) ﴾

٣٠ - يقول تعالى ، وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة **«لَتَلْتُوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»** أي : تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كُذِّبَ الرُّسُلُ من قبلك ، فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين ، قال الله تعالى : **«تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ»** الآية ، وقال تعالى : **«وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ»** أي : كيف نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : **«وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ»** أي : هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله : بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديدية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا : ما ندري ما الرحمن الرحيم . قاله قتادة ، والحديث في صحيح البخاري ، وقد قال الله تعالى : **«قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»** . وفي صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن أحب الأسماء إلى الله تعالى : عبد الله وعبد الرحمن»** .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : هذا الذي تكفرون به ، أنا مؤمن به معترف ومقر له بالربوبية

والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي: في جميع أموري ﴿وإليه متاب﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحدٌ سواه.

﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةً أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾ (٣١)

٣١- يقول تعالى مادحاً للقرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، مفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية، كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، مع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل.

وقد يُطلق اسم «القرآن» على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتقٌ من الجمع. روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه» انفرد بإخراجه البخاري، والمراد بالقرآن هو: الزبور.

وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي: من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل، لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الأباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، لفعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي: لا يصنع من ذلك إلا ما شاء، ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون ﴿أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾.

وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةً أو تحل قريبا من دارهم﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾، وقال: ﴿أفلم يروا أننا ناتي الأرض نقصها من

أَطْرَافِهَا أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٢﴾ .

قال قتادة عن الحسن ﴿أَوْ تَحِلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق، وروى أبو داود الطيالسي: سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ قال: سبيرة ﴿أَوْ تَحِلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ قال: محمد ﷺ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحِلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم، وقتاله إياهم. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس ﴿قَارِعَةً﴾ أي: نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسوله بالنصر لهم، ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ .

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

٣٢- يقول تعالى مسلماً لرسوله في تكذيب من كذبه من قومه ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة ﴿فَاَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أنظرتهم وأججتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، وأملت لهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّأَيْنَ مِنْ قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ .

وفي الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقَلِّتْهُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا لِيَوْمِ إِذَا أَخَذُوا الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ .

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

٣٣- يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب، على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقال: ﴿سِوَاهُ مَنْكُم مِّنْ أَسْرَارِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

أفمن هو كذلك، كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَهُمَا بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أَمْ بظاهر من القول﴾ قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم أي: ما هم عليه من الضلال، والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فزِينُوا لَهُمْ﴾ الآية.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنه لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ

النَّارُ (٣٥)

٣٤- ذكر تعالى عقاب الكفار، وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين، وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدخر، مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه فإنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ، وَذَلِكَ دَائِمٌ أَبَدًا، فِي نَارِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوِثَاقٌ لَا يَتَّصِرُ كَثَافَتَهُ وَشِدَّتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِثَاقَهُ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لا تدعوا اليوم ثُبُورًا واحدًا وادعوا ثُبُورًا كثيرًا ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرًا، أي: يصرفونها كيف شاءوا، أين شاءوا، كقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ الآية.

وقوله: ﴿أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، رأيناك تكعكت، فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتَهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جُشاء كريح المسك، ويُلهمون التسبيح والتقديس، كما يُلهمون النفس» رواه مسلم. وروى الإمام أحمد والنسائي: من حديث زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل منهم، ليُعطي قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة، قال: إن الذي يأكل ويشرب، تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك، فيضمر بطنه».

وقد قال الله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾.

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ ﴿و ظل ممدود﴾.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة، ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله: هل جاءكم مخبرٌ يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تقبل منكم، أو أن شيئاً من خطاكم غفرت لكم؟ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا، لاستقلتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجل دنياكم، ولا تنافسون في جنة ﴿أكلها دائم﴾ رواه ابن أبي حاتم.

﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَاب (٣٦) وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق (٣٧)﴾

٣٦- يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا - إلى قوله - إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا، من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً، مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده ﴿ويخرون للأذقان ينجون ويزيدهم خشوعاً﴾.

وقوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ومن الأحزاب﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية ﴿قل﴾

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴿٣٧﴾ أي: إنما بُعثتُ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس ﴿وإِلَيْهِ مَأْبُ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

٣٧- وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شَرَفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ، بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وقوله: ﴿وَلْتَنَ اتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من الله سبحانه وتعالى: ﴿مَالِكٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا وَاقٍ﴾. وهذا وعيد لأهل العلم، أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه، من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

٣٨- يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريا، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وكان الضحاك ابن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجل، يعني: لكل كتاب أنزله من السماء، مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ منها ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني: حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسول صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت، وفي رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما، وقال مجاهد ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاء أحدهما يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ الآيتين، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة، من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يغير. وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق ابن سلمة: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، رواه ابن جرير.

وروي أيضاً: عن أبي عثمان النهدي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول: بما رواه الإمام أحمد: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرِدُ الْقَدْرَ إِلَّا الدَّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعَمْرِ إِلَّا الْبِرُّ» ورواه النسائي وابن ماجه.

وثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إنَّ الدَّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لِيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١). وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتابٌ يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. وروي عن سعيد بن جبير: أنها بمعنى «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» يقول: يبذل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبذله «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبذل وما يثبت، كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» كقوله: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئَهَا» الآية، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» قال: قالت كفار قريش لما نزلت «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ما نرى محمداً يملك شيئاً، وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، من أرزاق الناس ومصائبهم، وما يُعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

وقوله: «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي: جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين؛ وقال ابن جرير: عن ابن عباس «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» قال: الذكر.

﴿وَأَنْ تَأْتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (٤٠) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (٤١)

٤٠ - يقول تعالى لرسوله: «وَأَمَّا نُورِنَا» يا محمد، بعض الذي نعد أعداءك، من الخزي والنكال في الدنيا «أَوْ تَوْفِينَا» أي: قبل ذلك «فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به «وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» أي: حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: «فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿

٤١ - وقوله: «أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال في رواية: أولم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: «نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣٣) والحاكم (١/ ٤٩٢) وغيرهما. ويعتجلان: أي: يتصارعان (نهاية).

على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها . وقال مجاهد : نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، وقال الشعبي : لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشْكُ ، ولكن تنقص الأنفس والثمرات . وكذا قال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص ، لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن عباس في رواية : خرابها بموت علمائها وفقهائها ، وأهل الخير منها ، وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء .

والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك ، قرية بعد قرية ، كقوله : ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ الآية ، وهذا اختيار ابن جرير .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى﴾

الدَّارِ (٤٢)

٤٢- يقول تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين ، كقوله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا وَمَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿فَتِلْكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآيتين .

وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي : أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله ﴿وسيعلم الكافر﴾ والقراءة الأخرى : الكفار ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ لمن تكون الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ، والله الحمد والمنة .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ﴾

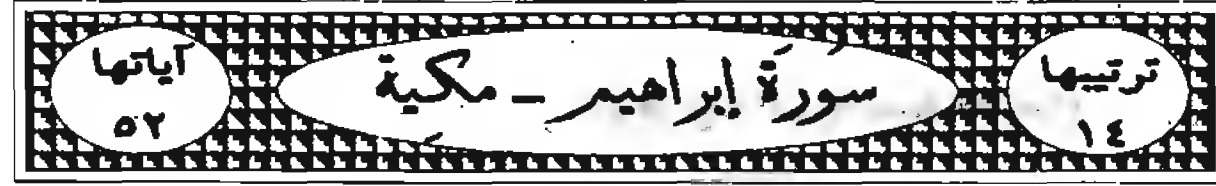
الْكِتَابِ (٤٣)

٤٣- يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ، ويقولون ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي : ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي : حسبي الله ، هو الشاهد علي وعليكم ، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

وقوله : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل : نزلت في عبد الله بن سلام . قاله مجاهد ، وهذا القول غريب ، لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا : ما قاله العوفي عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى . وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول هي مكية وكان يقرأها ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ويقول : من عند الله ، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري .

والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس علماء أهل الكتاب ، الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة ، من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿٤٣﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الآية، وأمثال ذلك مما فيه من الأخبار عن علماء بني إسرائيل، أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي

ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾

١- قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها، عربهم وعجمهم ﴿تُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي، لمن قَدَّرَ له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره. يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

٢- وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتيان صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

٣- ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً، مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال، بعيد من الحق، لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ (٤)﴾

٤- هذا من لطفه تعالى بخلقه، أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما

أرسلوا به إليهم ، كما روى الإمام أحمد : عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه» . وقوله : «**فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**» أي : بعد البيان وإقامة الحجّة عليهم ، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق **«وَهُوَ الْعَزِيزُ»** الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن **«الْحَكِيمُ»** في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه ، أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واخص محمد ابن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس .

كما ثبت في الصحيحين : عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَصَمُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» . وله شواهد من وجوه كثيرة ، وقال تعالى : **«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا»** .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

٥- يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد ، وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا . قال مجاهد : وهي التسع الآيات **«أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ»** أي : أمرناه قائلين له **«أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»** أي : ادعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان **«وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ»** أي : بأيادي ونعمه عليهم ، في إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره ، وظلمه وغشمه ، وإنجائهم إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم ، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه : عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى : **«وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ»** قال : «بنعم الله» . وزواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقوله : **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»** أي : إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبرة **«لِّكُلِّ صَبَّارٍ»** أي : في الضراء ، **«شَكُورٍ»** أي : في السراء ، كما قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطى شكر .

وكذا جاء في الصحيح : عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلِّهِ عَجَبٌ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»** .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن موسى ، حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يُذَبِّحُونَ من وُجَدَ من أبنائهم ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال : **﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** أي : نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك ، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل : وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل **﴿بَلَاءٌ﴾** أي : اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون المراد هذا - والله أعلم - كقوله تعالى : **﴿وَيَلْوَنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** .

٧- وقوله : **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾** أي : آذنتكم وأعلمكم بوعدته لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذا أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كقوله تعالى : **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** . وقوله : **﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾** أي : لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها **﴿وَلَنْ كَفَرْتُمْ﴾** أي : كفرتم النعم ، وسترتموها وجحدتموها **﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها ، وقد جاء في الحديث : **﴿إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ﴾** (١) .

٨- وقوله تعالى : **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** أي : هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كقوله : **﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾** الآية ، وقوله : **﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** .

وفي صحيح مسلم : عن أبي ذر : عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» فسبحانه وتعالى الغني الحميد . **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾** (٩)

٩- قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول ، وفيما قال ابن جرير نظراً والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه ، وقصصه عليهم ، لأوشك أن تكون هاتان القصتان في التوراة ، والله أعلم . وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول ، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل **﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي : بالحجج والدلائل ، الواضحات الباهرات القاطعات .

و عن عبد الله أنه قال في قوله : **﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾** : كذب النسّابون . وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان . وقوله : **﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾** اختلف المفسرون في معناه ، قيل :

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢) وابن ماجه (٩٠) وحسنه العراقي ، كما في الزوائد للبوصيري .

معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمر ونهم بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وضَعُوا أيديهم على أفواههم، تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة، يعنون في الجنة.

قلت: ويؤيد قول مجاهد، تفسير ذلك بتمام الكلام «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعونا إليه مريب» فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى «فردوا أيديهم في أفواههم»، وروى الثوري عن عبد الله قال: عضوا عليها غيظاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين «وإذا خلواً عرضوا عليكم الأنامل من الغيظ» وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله، عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: «إنا كفرنا بما أرسلتم به» الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

١٠ - يخبر تعالى عما دار بين الكفار، وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل «أفي الله شك؟» وهذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته، بأنه «فاطر السموات والأرض» الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير، ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإله ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم «أفي الله شك؟» أي: أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط، التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم رسلهم «يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم» أي: في الدار الآخرة «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي: في الدنيا، كما قال تعالى: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله» الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه «إن أنتم إلا بشر مثلنا» أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم

معجزة ﴿فأتونا بسلطانٍ مُبين﴾ أي: خارق نقترحه عليكم.

١١- ﴿قالت لهم رسولهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي: صحيح إنا بشرٌ مثلكم في البشرية ﴿ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: في جميع أمورهم.

١٢- ثم قالت الرسل ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ولنصبرنَّ على ما آذيتُمونا﴾ أي: من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين (١٣) ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤) واستفتحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد (١٥) من ورائه جهنم ويسقى من ماءٍ صديد (١٦) يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كلِّ مكانٍ وما هو بميتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظٌ (١٧)﴾

١٣- يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسولهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له، ولمن آمن به ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط ﴿أخرجوا آل لوطٍ من قريتك﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وإن كادوا ليستغزؤنك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثونَّ خلافك إلا قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ يمكركم الذين كفروا ليبتئوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾.

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة: أنصاراً وأعواناً، وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يُرقيه تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، في أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين﴾ ولنسكننهم من بعدهم﴾ وكما قال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ إنهم لهم المنصورون﴾ وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسولنا إن الله قويٌ عزيز﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ الآية، ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾.

١٤- قوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدي﴾ أي: وعيدي هذا: لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو: تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من ظنى﴾ وأثر الحياة الدنيا﴾ فإن الجحيم هي المأوى﴾ وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان﴾.

١٥- وقوله: **﴿و اسْتَفْتَحُوا﴾** أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾** الآية، والله أعلم.

﴿و خاب كل جبار عنيد﴾ أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: **﴿القياء في جهنم كل خنار عنيد﴾** **﴿مناع للخير معتد مريب﴾** الذي جعل مع الله إلهاً آخر فالقياء في العذاب الشديد. وفي الحديث: **﴿إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد﴾** الحديث^(١). خاب وخسر، حين اجتهد الأنبياء في الابتغال إلى ربها العزيز المقتدر.

١٦- وقوله: **﴿من ورائه جهنم﴾** وراء هنا بمعنى أمام، كقوله: **﴿و كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾** وكان ابن عباس يقرؤها **﴿و كان أمامهم ملك﴾** أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد. **﴿ويسقى من ماء صديد﴾** أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والتن، كما قال: **﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾** **﴿وآخر من شكله أزواج﴾** وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم، وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم، وفي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: **﴿صديد أهل النار﴾**^(٢)، وفي رواية: **﴿عصارة أهل النار﴾**^(٣).

وقوله: **﴿يتجرعه﴾** أي: يتغصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: **﴿ولهم مقامع من حديد﴾**. **﴿و لا يكاد يسيغه﴾** أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه، وحرارته أو برده، الذي لا يستطيع **﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾** أي: يألم له جميع بدنه، وجوارحه وأعضائه، قال عمر بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده حتى من أطراف شعره، وقال ابن جرير **﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾** أي: من أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاك عن ابن عباس **﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾** قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع، إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت، لأن الله تعالى قال: **﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾** ومعنى كلام ابن عباس **﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾**: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب، إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه، لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: **﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾**.

(١) أخرجه أحمد (٤٠ / ٣) و الترمذي (٢٧١٣)، والطبراني في الأوسط (٣٢٠) وغيرهم بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٠ / ٦) وهو صحيح لغيره.

(٣) المصدر السابق (١٧١ / ٥).

وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال، عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ طلعتها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لا ياكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم، ثم إن مرجعهم إلى الجحيم.

فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ كالمهل يغلي في البطن كغلي الحميم، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم، إن هذا ما كنتم به تمترون، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ في سموم وحميم، وظل من يخموم، لا بارد ولا كريم، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرًّا مَّابٍ﴾ جهنم يصلونها فبئس المهاد، هذا فليذوقوه حميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

١٨ - هذا مثل ضربته الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وهدمتها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم القيامة، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً، إلا كما يتحصّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصف﴾ أي: ذي ربح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَلَّمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّثُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله في هذه الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠)

١٩، ٢٠ - يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها،

وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقال تعالى: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ و ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿فستبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾.

وقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه، إذا خالفتكم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين، على غير صفتكم كما قال: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ وقال: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾، وقال: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾.

﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴿٢١﴾﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿وبرزوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها، لله الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم: الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي: مهما أمرتمونا، ائتمرنا وفعلنا ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحققت كلمة العذاب على الكافرين. ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه، إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار، بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد، وقال تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أذركوا فيها جميعاً قالت أُولاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ وقالت أولاهم لأولاهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ وقال تعالى: ﴿ربنا أظننا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً.

و أما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم

إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتم مجرمين ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأعلان في أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴿٢٢﴾ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها

سلام ﴿٢٣﴾ ﴿

٢٢- يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدهم الشيطان إلا غروراً﴾. ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي: ما كان لي دليل فيما وعدتكم إليه، ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل: الحجج والأدلة الصحيحة، على صدق ما جاؤكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلوموني﴾ اليوم ﴿ولوموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتوني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتمون من قبل.

وقال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل. وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدَاءً﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل، ﴿لهم عذاب أليم﴾. والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا. وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ قال لهم إبليس ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى

ابن مريم: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ - إلى قوله -: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله، فيقول ﴿مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء، وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا، وأين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكينين أبداً، لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾

٢٤ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله **﴿كشجرة طيبة﴾** وهو المؤمن **﴿أصلها ثابت﴾** يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن **﴿وفرعها في السماء﴾** يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وأن المؤمن كشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح، في كل حين ووقت وصباح ومساء. وهكذا روي عن ابن مسعود قال: هي النخلة، وعن أنس، وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والضحاك وقتادة وغيرهم.

وروي البخاري: عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم - لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا.

وروي أحمد: عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتني بجُمَارٍ فقال: «من الشجر شجرة، مثلها مثل الرجل المسلم» فأردت أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه.

٢٥ - وقوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل: كل شهرين، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل: كل سبعة أشهر، وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت، من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له

عمل صالح، آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين **﴿يَاذُنِ رَبِّهَا﴾** أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً **﴿ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتذكرون﴾**.

٢٦- وقوله تعالى: **﴿ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ﴾** هذا مثلُ الكافر، لا أصل له ولا ثبات، مشبهٌ بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان. رواه أبو بكر البزار عن أنس موقوفاً.

وقوله: **﴿اجتثت﴾** أي: استؤصلت **﴿من فوق الأرضِ ما لها من قرار﴾** أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

٢٧- روى البخاري: عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِلَ في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله **﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**» ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم.

وروى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولمَّا يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني خلقتهم فيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويُفَسِّحُ له في قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عمليك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من

الآخرة، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُوْدُ الْوَجْهِ، مَعَهُمُ الْمَسْوُوحُ فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرَ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرَجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ مِنْهُ وَغَضَبِهِ، قَالَ: فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّقُودُ مِنَ الصَّنُوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا، لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تَلْكَ الْمَسْوُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا فَلَا يَفْتَحُ لَهَا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحَهُ طَرْحاً، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتَعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلِكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أُدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أُدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أُدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مَمْتَنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ، فَوَجَّهَكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثِ، فَيَقُولُ: رَبُّ لَا تُقِمُ السَّاعَةَ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَسْنَدِهِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلِكَانِ فَيَقْعَدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرْنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيَمْلَأُ عَلَيْهِ خَضْرَاءً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ بَنِ حَمِيدٍ بِهِ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

وَرَوَى ابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ، أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: أَخْرَجِي إِلَى رُوحِ اللَّهِ، فَتَخْرُجُ كَأَطِيبِ رِيحِ مَسْكَ، حَتَّى إِذَا لِينَاوَلَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشْمُونَهُ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بِبَابِ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ، وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرْحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فَلَانٌ فَيَقُولُونَ: دَعَا حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ، فَيَقُولُ: قَدِمَاتِ، أَمَا أَتَاكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمَسْحٍ، فَيَقُولُونَ: أَخْرَجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ، فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ».

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلِكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: مَنْكَرٌ وَالْآخَرُ نَكِيرٌ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، وَيُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ:

نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس، الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: التثمي عليه، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ»** قال: «ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فأمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشتَ وعليه متَّ، وعليه تُبعثُ» (١).

وروى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجله فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال: اجلس، فيجلس قد مثَّلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: عم تسألوني؟ فيقال: رأيت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حيتت، وعلى ذلك متَّ، وعليه تُبعثُ إن شاء الله، ثم يُفصح له في قبره سبعون ذراعاً، ويُثَوَّر له فيه، ويُفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعدَّ الله لك فيها، فيزداد غبطةً وسروراً، ثم تجعل نسمة في النسم الطيب، وهي طيرٌ أخضرٌ يعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب» وذلك قول الله عزوجل **«يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ»** ورواه ابن حبان، وذكر جواب الكافر وعذابه.

وروى عبد الرزاق: عن ابن طاوس عن أبيه **«يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»** قال: لا إله إلا الله **«وفي الآخرة»** المسألة في القبر، وقال قتادة: أما الحياة الدنيا: فيثبتهم بالخير والعمل الصالح **«وفي الآخرة»** في القبر، وكذا روي عن غير واحد من السلف.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

٢٨، ٢٩ - قال البخاري: قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا»** ألم تعلم؟ كقوله: **«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ»**، **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا»** البوار: الهلاك، باريور بوراً، و**«قوماً بوراً»** هالكين. ثم روى عن عطاء سمع ابن عباس **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا»** قال: هم كفار أهل مكة. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن

(١) رواه ابن جرير (١٥ / ٥٩٦).

عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفر دخل النار، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن **«الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار»** قال: هم كفار قريش يوم بدر. وفي رواية قال: منافقو قريش. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب ﷺ فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني، وإن كان من وراء البحار لأتيته؛ فقام عبد الله بن الكواء فقال: **«الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار»**؟ قال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر.

٣٠- وقوله: **«وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله»** أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدداً لهم، ومتوعداً لهم، على لسان نبيه ﷺ **«قُلْ تَمَتُّعُوا فَإِن مَّصِيرِكُمْ إِلَى النَّارِ»** أي: مهتما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهتما يكن من شيء **«فإِن مَّصِيرِكُمْ إِلَى النَّارِ»** أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: **«نُتَمِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ»**، وقال تعالى: **«مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ»**.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١)

٣١- يقول تعالى أمراً عباده بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القربات، والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها: هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية والعلانية، وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم **«مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ»** وهو يوم القيامة **«لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ»** أي: ولا يقبل من أحد فدية أن تباع نفسه، كما قال تعالى: **«فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»**.

وقوله: **«وَلَا خِلَالٌ»** قال ابن جرير: يقول ليس هنالك مخالفة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هناك العدل والقسط، والخلال مصدر، من قول القائل: خاللت فلاناً فأنا أخاله مخالفة وخلالاً.

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً، يتخالون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخال وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا: أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدٌ ببيع ولا فدية؛ ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده؛ ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: **«وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ»**

عن نفس شيئاً ولا يقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعُها شفاعَةٌ ولا هم يُنصرون» ، وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعُ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

٣٢- يعدد تعالى نعمه على خلقه ، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً ، والأرض فراشاً ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ما بين ثمار وزروع ، مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجري عليه بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ، لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر ، رزقاً للعباد ، من شرب وسقي ، وغير ذلك من أنواع المنافع .

٣٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ أي : يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ يُتَعَارَضَانِ ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ .

٣٤- وقوله : ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول هياً لكم كل ما تحتاجون إليه ، في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم . وقال بعض السلف : من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ، وقرأ بعضهم ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ . وقوله : ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلاً عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إنَّ حقَّ الله أنقل من أن يقوم به العباد ، وإنَّ نعم الله أكثر من أن يُحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وفي صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم لك الحمد ، غير مكفي ولا مُودَع ، ولا مستغنى عنه ربنا» ، وقال الإمام الشافعي رحمه الله : الحمد لله الذي لا تُؤدَّى شكر نعمة من نعمه ، إلا بنعمة حادثة تُوجب على مؤديها شكره بها ، وقال القائل في ذلك :

لو كل جارحةٍ مني لها لغةٌ تُثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرتُ به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾

٣٥- يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب ، بأن البلد الحرام مكة ، إنما وُضعت أول ما

وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة ، تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن ، فقال : **«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا»** وقد استجاب الله له ، فقال تعالى : **«أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً»** الآية ، وقال تعالى : **«إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين»** فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً» وقال في هذه القصة **«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا»** فعرّفه لأنه دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : **«الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق»** ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة ، فإنه دعا أيضاً ، فقال : **«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا»** كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً .

وقوله : **«واجنّبي وبنّي أن نعبد الأصنام»** ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

٣٦- ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ، وردّ أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام **«إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»** وليس فيه أكثر من الردّ إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجوز وقوع ذلك .

روى عبد الله بن وهب : عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام **«رَبِّ إِنهِن أَضَلَلنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ»** الآية ، وقول عيسى عليه السلام **«إن تعذبهم فإنهم عبادك»** الآية ، ثم رفع يديه ، ثم قال : **«اللهم أمّتي ، اللهم أمّتي ، اللهم أمّتي»** وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك ؟ فاتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمد ، فقل له : إنا سنرضيك في أمّتك ، ولا نسوؤك .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧)

٣٧- وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان ، بعد الدعاء الأول الذي دعا به عند ما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه ، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : **«عند بيتك المحرم»** ، وقوله : **«ربنا ليقيموا الصلاة»** قال ابن جرير : هو متعلق بقوله : **«المحرم»** أي : إنما جعلته محرماً ، ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده **«فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم»** قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس ، لازدحم عليه فارس والروم ، واليهود والنصارى ، والناس كلهم ، ولكن قال : **«من الناس»** فاخص به المسلمون .

وقوله : **«وارزقهم من الثمرات»** أي : ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : **«أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا»** وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته ، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها ، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣٨)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الحساب (٤١)

٣٨- قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: «رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ» أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

٣٩- ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» أي: أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

٤٠- ثم قال: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ» أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها «رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ» أي: فيما سألتك فيه كله.

٤١- «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» قرأ بعضهم «وَلِوَالِدَيَّ» بالإنفراد، وكان هذا أن يتبرأ من أبيه، لما تبين له عداوته لله عز وجل «وَلِلْمُؤْمِنِينَ» أي: كلهم «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، فخير وإن شراً فشر.

«وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً (٤٣)»

٤٢- يقول تعالى: ولا تحسبن الله يا محمد «غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم، ويعده عليهم عداً «إِنَّهُمُ يُؤَخَّرُونَ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ» أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

٤٣- ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: «مُهْطِعِينَ» أي: مُسْرِعِينَ، كما قال تعالى: «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» الآية، وقال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ - إِلَى قَوْلِهِ - وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقِيُومِ»، وقال تعالى: «يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سُرَاعًا» الآية.

وقوله: «مُقْنِعِي رءُوسِهِمْ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم «لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ» أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة، مديمون النظر لا يطفون لحظة، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة، والمخافة لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: «وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً» أي: وقلوبهم خاوية خالية، ليس فيها شيء، لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر، قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً، لشدة ما أخبر به تعالى عنهم. ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ

وَتَّبِعِ الرَّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ﴾ كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾ الآية، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة، أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم من زوالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ الآية.

٤٥- ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النَّثْرَ﴾. وفي قراءة عبد الله «وإن كاذم مكرهم». قلت: وكذا روي عن أبي ابن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهما قرآ «وإن كاذم» كما قرأ علي (كذلك).

وروي العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير: بأنني هذا الذي فعلوه بأنفسهم، من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم. قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لِن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلِن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِن كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَخَطَّوْنَ مِنْهُ﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

٤٧- يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رَسُولُهُ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة، لا يمتنع عليه شيء أرادته، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين: من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بِيضَاءِ عَفْرَاءٍ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ».

وروى الإمام أحمد: عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾** قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط» . رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه .

وروى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حَبْرٌ من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد، الذي سمَّاني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيءٌ إن حدثتكَ؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلِّمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين» فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «يُنحرُّ لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شربهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً» قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل أو رجلان، قال: أينفعك إن حدثتكَ؟ قال: «أسمع بأذني»، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلاً مني الرجل مني المرأة، أدكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آتبا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبى، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، ومالي علمٌ بشيءٍ منه، حتى أتاني الله به» .

عن عمرو بن ميمون قال: قال عبد الله بن مسعود **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** قال: أرضٌ كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً حتى يلجمهم العرق، وروي من (وجوه آخر)، أورد ذلك كله ابن جرير. وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن سعيد بن جبير في قوله: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** قال: تبدل الأرض خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وعن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نارٌ يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكوابها، والذي نفس عبد الله بيده، إنَّ الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون . وقوله: **﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾** أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله **﴿الواحد القهار﴾** أي: الذي قهر كل شيءٍ وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الأبواب .

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾

٤٩- يقول تعالى: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم **﴿مقرنين﴾** أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو

الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ وآخرين مقرنين في الأصفاد والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

٥٠- وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهْنَا به الإبل، أي: تُطلى. قال قتادة: وهو الصق شيء بالنار. ويقال فيه: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء.

وكان ابن عباس يقول: القطران: هو النحاس المذاب، وربما قرأها: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: من نحاسٍ حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقاتادة.

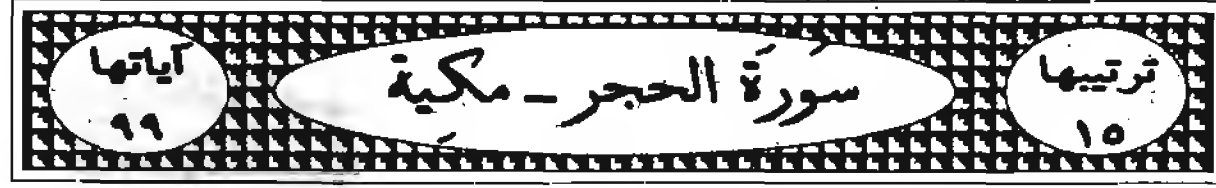
وقوله: ﴿وَتَغَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾. وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» انفراد بإخراجه مسلم.

٥١- وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده، سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً﴾ وهذا معنى قول مجاهد ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء.

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢)

٥٢- يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة ﴿الر﴾ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور الآية، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات، على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوي العقول.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾

١- قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور: عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، أن كفار قريش لما عرَضُوا على النار تَمَنُّوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: إن المراد: أن كل كافر يود عند احتضاره، أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وروى سفيان الثوري: عن عبد الله في قوله: ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: هذا في الجهنميين، إذا رأوهم يخرجون من النار.

وروى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك، قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، قال: فعند ذلك قوله: ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وهكذا روي عن الضحاک وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة.

فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ورواه ابن أبي حاتم، وزاد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» عوض الاستعاذة.

(الحديث الثاني) وروى الطبراني أيضاً: عن صالح بن أبي طريف قال: سألت أباسعيد الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله يقول في هذه الآية ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؟ قال: نعم، سمعته رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرِجُ اللَّهُ نَاساً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ، بَعْدَمَا يَأْخُذُ نَقْمَتَهُ مِنْهُمْ» وقال: «لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَمَا بِالْكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَإِذَا سَمِعَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، أَدْنَى فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فَتَشْفَعُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَيَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ، حَتَّى يُخْرِجُوا بِإِذْنِ

الله ، فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة ، فنخرج معهم ؛ قال : فذلك قول الله : ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فيسمون في الجنة : الجهنميين ، من أجل سوادٍ في وجوههم ، فيقولون : يا ربِّ ، أذهب عنا هذا الاسم ، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة ، فيذهب ذلك الاسم عنهم .

٣- وقوله : ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا﴾ تهديد شديد لهم ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقوله : ﴿كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ﴾ ولهذا قال : ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْاَمَلُ﴾ أي : عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي : عاقبة أمرهم .

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾
٤ ، ٥- يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية ، إلا بعد قيام الحجة عليها ، وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه ، من الشرك والعناد والإلحاد ، الذي يستحقون به الهلاك .

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

٦- يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي : الذي تدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي : في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

٧- ﴿لَوْ مَا﴾ أي : هَلَّا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ أي : يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ ، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً مخجوراً .

٨- وكذا قال في هذه الآية ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾ وقال مجاهد في قوله : ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ بالرسالة والعذاب .

٩- ثم قرّر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر ، وهو «القرآن» وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى : ﴿لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ على النبي ﷺ ، كقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ والمعنى الأول أولى ، وهو ظاهر السياق .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

١٠- يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش ، إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وأنه ما أتى أمة من رسول ، إلا كذبوه واستهزءوا به .

١١- ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين ، الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال

أنس والحسن البصري **«كذلك نسلكه في قلوب المُجرمين»** يعني: الشرك.

١٢- وقوله: **«قد خلت سنة الأولين»** أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار،

وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ

قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾

١٤، ١٥- يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم، ومكابرتهم للحق، أنه لو فتح لهم باباً من السماء

فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: **«إنما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا»** قال مجاهد وابن كثير والضحاك:

سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا، وقال العوفي عن ابن عباس: شُبِّه علينا وإنما

سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا، وقال ابن زيد **«سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا»** السكران الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ

اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)﴾

١٦، ١٧، ١٨- يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات،

لمن تأمل وكرّر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقاتادة

البروج ههنا: هي الكواكب.

(قلت): وهذا كقوله تبارك وتعالى: **«تبارك الذي جعل في السماء بُرُوجًا»** الآية. ومنهم من قال:

البروج هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور فيها الحرس.

وجعل الشهب حرساً لها من مرّدة الشياطين، لئلا يسمّعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم

لاستراق السمع، جاءه شهابٌ مبين فأتلفه، وربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى

الذي هو دونه، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي

السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ» قال علي: وقال غيره: صفوان

ينفذهم ذلك، فإذا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا

مَسْتَرِقُوا السَّمْعَ، وَمَسْتَرِقُوا السَّمْعَ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سَفْيَانَ بِيَدِهِ وَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى،

نصبها بعضها فوق بعض - وربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه

حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي

إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا

وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً، للكلمة التي سمعت من السماء».

١٩- ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي،

والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المناسبة، وقال ابن عباس **«من كل شيء»**

مَوْزُونٍ أي : معلوم . وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة . ومنهم من يقول : مقدر بقدر ، وقال ابن زيد من كل شيء يوزن ويقدر بقدر ، وقال : ما يزنه أهل الأسواق .

٢٠- وقوله : **﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾** يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض ، في صنوف الأسباب ، والمعاش وهي جمع معيشة . وقوله : **﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾** قال مجاهد : هي الدواب والأنعام ، وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام .

والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ، ووجوه الأسباب ، وصنوف المعاش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى .

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾** (٢٢) **وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾** (٢٣) **وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾** (٢٤) **وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ**

عَلِيمٌ (٢٥)

٢١- يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ، **﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾** كما يشاء وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة . وروى ابن جرير : عن الحكم بن عتيبة في قوله : **﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾** قال : ما عام بأكثر مطراً من عام ، ولا أقل ، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان في البحر ، قال : وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة ، أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت .

٢٢- وقوله تعالى : **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾** أي : تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها . وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم ، فإنه أفردها ووصفها بـ «العقيم» وهو عدم الإنتاج ، لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعداً . وعن عبد الله بن مسعود في قوله : **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾** قال : ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ، ثم تمرى السحاب ، حتى تدر كما تدر اللقحة . وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة ، وقال الضحاك : يبعثها الله على السحاب ، فتلقحه فيمتلئ ماء ، وقال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المباشرة فتقم الأرض قمماً ، ثم يبعث الله المباشرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ، ثم تلا : **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾** .

وقوله : **﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾** أي : أنزلناه لكم عذباً ، يمكنكم أن تشربوا منه ، لو نشاء جعلناه أجاجاً ، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة ، وهو قوله تعالى : **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾** **﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾** لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرونا وفي قوله : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾** . وقوله : **﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾** قال سفيان الثوري : بمانعين . ويحتمل

أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، حفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

٢٣- وقوله: **﴿وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾** إخبارٌ عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يعثمهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

٢٤- ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾** الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما «المستقدمون»: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، و«المستأخرون» من هو حي، ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وروى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقد ورد فيه حديث غريب جداً: فروى ابن جرير: عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تصلي خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، يعني: لثلا يروها، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾** وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما وابن ماجه من طرق، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة^(١) وقد رواه عبد الرزاق عن أبي الجوزاء يقول في قوله: **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾** في الصفوف في الصلاة **﴿وَالْمُسْتَأْخِرِينَ﴾** فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ**

السَّمُومُ (٢٧)

٢٦- قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾** وخلق الجن من مارج من نار، وعن مجاهد أيضاً **﴿الصلصال﴾** المتن، وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: **﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾** أي: الصلصال من حمأ وهو الطين. والمسنون الأملس.

ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك أن الحمأ المسنون هو: المتن، وقيل: المراد بالمسنون ههنا: المصبوب.

٢٧- وقوله: **﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾** أي: من قبل الإنسان **﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾** قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. روى أبو داود الطيالسي: عن عبد الله بن مسعود يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً، من السموم التي خلق منها الجن، ثم قرأ **﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾**. وعن ابن عباس: إن الجن خلق من لهب

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: تعليل الترمذي وابن كثير ليس بعله. (المسند ٤ / ٢٧٨).

النار، وفي رواية: من أحسن النار، وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.
وقد ورد في الصحيح: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». والمقصود من الآية: التنبيه على شرف آدم ﷺ، وطيب عنصره، وطهارة محتده.
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)﴾

٢٨ - ٣٢ - يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له، من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل.

٣٣ - ولهذا قال: ﴿الَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الآية.

﴿قَالَ فَأَخْرَجْ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾

٣٤ - يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً، لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم، وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنةً فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها، رواه ابن أبي حاتم.

٣٥ - ٣٨ - وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل - من تمام حسده لآدم وذريته - النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له، وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾

٣٩ - يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه، أنه قال للرب ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم أقسم بإغواء الله له (قلت) ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم ﷺ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، وأزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كما أغويتني وقدرت على ذلك.

٤٠ - ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرَجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٤١ - قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً **«هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ»** أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله تعالى: **«إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ»** وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد والحسن وقتادة، كقوله: **«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»** وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة **«هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ»** كقوله: **«وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيمٌ»** أي: رفيع، والمشهور القراءة الأولى.

٤٢ - **«إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»** أي: الذين قدّرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم **«إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ»** استثناء منقطع.

٤٣ - وقوله: **«وإن جهنم لموعدهم أجمعين»** أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن **«وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ»**.

٤٤ - ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب **«لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ»** أي: قد كتبت لكل بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجازنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذلك بقدر عمله. وعن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقاً بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن يريم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها، وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. روى الضحاك عن ابن عباس نحوه، وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً، وقال قتادة **«لها سبعة أبواب لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ»**: هي والله منازل بأعمالهم، رواه ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: **«لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ»** قال: **«إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجْرته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: «لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ»»** (١).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْونَ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْواناً عَلَيَّ سُرُوراً مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمْسُهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

٤٥ - لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

٤٦ - وقوله: **«ادْخُلُوها بِسَلامٍ»** أي: سالمين من الآفات، مُسَلِّمٌ عليكم **«آمِنِينَ»** أي: من كل خوفٍ وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

٤٧ - وقوله: **«وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْواناً عَلَيَّ سُرُوراً مُتَقَابِلِينَ»**، روى سنيدي في تفسيره: عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن، حتى ينزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح: أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ،**

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة (٤/ ٢١٨٥) إلى قوله: **«إلى ترقوته»** ودون ذكر الآية.

فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُوا، أُذِّنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

وروى ابن جرير: عن محمد هو ابن سيرين قال: استأذن الأشرع على علي رضي الله عنه، وعنده ابن طلحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما حبستني لهذا؟ قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. وروي أيضاً: عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به، وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك، من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

وروى وكيع عن ربعي بن خراش عن علي نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان، فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر قد تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟ وروى سفيان الثوري: عن إبراهيم قال: جاء ابن جرmoz قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بنحوه.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

٤٨- وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن

أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا

تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً». وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَفَوَّنَ عَنْهَا حِوَالًا﴾.

٤٩- وقوله: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم: أي: أخبر يا محمد

عبادي أنني ذو رحمة، وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف.

﴿وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا

تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا

بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

٥١، ٥٢- يقول تعالى وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف: يطلق على الواحد

والجمع كالزور والسفر، وكيف دخلوا عليه فقالوا: سلاماً ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم، لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيد.

٥٣- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة

هود:

٥٤- ثم ﴿قَالَ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ، ومتحققاً للوعد ﴿أَبَشِّرْ تُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسِّنِيَ الْكِبْرُ فَبِمَ تَبَشِّرُونَ﴾ .

٥٥- فأجابوه مؤكدين لما بشروه به ، تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ وقرأ بعضهم (القنطين) فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر ، وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾

٥٧- يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم ﷺ ، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري ، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له ، فقالوا:

٥٨ ، ٥٩- ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجئون آل لوط من بينهم ، إلا امرأته فإنها من الهالكين .

٦٠- ولهذا قالوا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ﴾ أي : الباقين المهلكين .

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)﴾

٦١- يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه ، فدخلوا عليه داره .
٦٢ ، ٦٣- قال : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾ . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، يعنون بعدابهم وهلاكهم ودمارهم ، الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم .

٦٤- ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كقوله تعالى : ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ . وقوله : ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

﴿فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾

٦٥- يذكر تعالى عن الملائكة ، أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط ﷺ يمشي وراءهم ، ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، وإنما يكون ساقية يزجي الضعيف ، ويحمل المنقطع . وقوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي : إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حلّ بهم من العذاب والنكال ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل .

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي : تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي : وقت الصباح ، كقوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴿

٦٧- يخبر تعالى عن مجيئ قوم لوطٍ لما علموا بأضيافه، وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين.

٦٨ ، ٦٩- ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ و﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه.

٧٠ ، ٧١- فقالوا له مجيئين ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهم من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصَبِّحهم من العذاب المنتظر.

٧٢- ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشریف عظيم، ومقام رفيع، وجاء عريض. وعن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً، أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ رواه ابن جرير.

وقال قتادة ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لعيشك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يترددون.

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴿

٧٣ ، ٧٤- يقول تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السَّجِيلِ عليهم، وقد تقدم الكلام على «السَّجِيلِ» في هود بما فيه كفاية.

٧٥- وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين، وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمتأملين.

وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ﴾ ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

٧٦- وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها، من القلب السوري

والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة^(١)، بطريق مهيع مسالكة مستمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ وقال مجاهد والضحاك ﴿وَأَنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّسَيِّمٍ﴾ قال: مُعَلِّمٌ، وقال قتادة: بطريق واضح، وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد، وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم.

٧٧- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوطٍ من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله، لدلالة واضحة جلية، للمؤمنين بالله ورسوله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

٧٨- أصحاب الأيكة هم: قوم شعيب، قال الضحاك وقاتدة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة، وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان.

٧٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه، قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

٨٠، ٨١- أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياًهم ﷺ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات، ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم، بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم، لها شربٌ ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها، قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

٨٢- وذكر تعالى أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أي: من غير خوفٍ ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، ففنع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢).

٨٣- وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم، التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيِّق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم، لما جاء أمر ربك.

(١) وهي المعروفة اليوم بـ «البحر الميت» ولا يعيش فيها شيء! نعوذ بالله من سخطه وعذابه.

(٢) الحديث في البخاري في الصلاة (١/ ٥٣٠) وفي الأنبياء (٦/ ٣٧٨-٣٧٩) وفي التفسير (٨/ ٣٨١) ومسلم في الزهد (٤/ ٢٢٨٥).

(٢٢٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بألفاظ متقاربة.

وقوله هنا: «فإن لم تبكوا فتباكوا» عزاها الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٠) لأحمد، ولم أجدها عنده، والله أعلم.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ

الْجَمِيلِ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾

٨٥- يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾ أي: بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم ﴿ ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له، وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿ فاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

و قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال .

وهو كما قالوا، فإن هذه مكة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة .

٨٦- وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه ﴿ الْخَلَّاقُ ﴾ الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾

٨٧- يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، حزناً عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ألن لهم جانبك، كقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطول، يعنون: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد ابن جبير، وقال شعبة: بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر .

وروى ابن أبي حاتم: عن سفيان: «المثاني» المثين: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ وأعطى موسى ﷺ منهن ثنتين. وقال: أوتي النبي ﷺ سبعا من المثاني: الطول، وأوتي موسى ﷺ ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقي أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطوال، ويقال: هي القرآن العظيم.

(و القول الثاني): أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها^(١)، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد

(١) ارواه الطبري عن ابن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، وهذا سند ضعيف، والد ابن جريج عبد العزيز بن جريج، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ: لين.

ابن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، والله الحمد.

وقد أورد البخاري رحمه الله تعالى ههنا حديثين: أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِه حتى صليت، فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنتُ أصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرتُ، فقال: «الحمد لله رب العالمين» هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم». فهذا نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينافي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

٨٨- وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم، عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(١) إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير.

قال العوفي عن ابن عباس ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. وقال مجاهد ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

٨٩- ٩٠- يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، أن يحل بهم على تكذيبه، كما حلَّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ الآية، أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ الآية، ﴿أهلوا الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾؟ فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا، إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبئته

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣ / ٥٠١).

وأهله.

وفي الصحيحين: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنني رأيتُ الجيشَ بعيني، وإنني أنا النذيرُ العُربان، فالنجاءُ النجاء، فأطاعه طائفةٌ من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفةٌ منهم، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ من أطاعني، واتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني، وكذب ما جئتُ به من الحق».

٩١- وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: جزوا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، روى البخاري: عن ابن عباس ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزءوه أجزاء، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وعنه قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك، وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: السحر، وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة. وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

٩٢- قوله: ﴿لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وروى عبد الرزاق: عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: عن عمك وعن مالك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ثم قال: ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴿

٩٤- يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه، والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امضه، وفي رواية: افعل ما تؤمر، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

٩٥- وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين، الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين - كما حدثني يزيد ابن رومان عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه،

فقال: «اللهم أعم بصره وأثكله ولده» ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلائع ابن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ إلى قوله - فسوف يعلمون ﴿ قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه، ومرَّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بستتين وهو يجرُّ إزاره، وذلك أنه مرَّ برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتفض به فتقلته، ومرَّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فتقلته، ومرَّ به الحارث بن الطلائع فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله.

و كذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا خمسة، وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

٩٦- وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

٩٧، ٩٨- وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد، أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يهيدنك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك، وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله، وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن نعيم بن همَّار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره» ورواه أبو داود والنسائي بنحوه. ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

٩٩- وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما رواه ابن جرير بسنده عنه. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، والدليل على ذلك قوله تعالى، إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿حَتَّىٰ أَنَا الْيَقِينُ﴾.

وفي الصحيح: عن أمِّ العلاء امرأة من الأنصار: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمك؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجوه للخير».

ويستدل بهذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلّي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري: عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ».

ويستدل بها على تخطئة مَنْ ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين: المعرفة! فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم! وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس، وأكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا: الموت كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

ترتيبها ١٦ سورة النحل - مكية آياتها ١٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

١ - يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي، الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «الله» ويحتمل أن يعود على «العذاب» وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده. وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكديماً؛ قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم، ثم ينادي الثالثة: أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشتغل الناس».

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه، من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

٢ - يقول تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: الوحي، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم: الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال: ﴿اللَّهُ يُصَنِّفُنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري،

وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُبِينٌ ﴿٤﴾

٣- يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي ، وهو : السموات ، والعالم السفلي ، وهو : الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق ، لا للعبث بل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ . ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له .

٤- ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي : مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه : عن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال : يقول الله تعالى ابن آدم : أنى تُعْجِزَنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتَكَ فَعَدَلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدِيكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَثِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقُومَ ، قُلْتَ : أَتُصَدِّقُ ؟ وَأَنْى أُوَانِ الصَّدَقَةَ ؟ .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ

رَحِيمٌ ﴿٧﴾

٥ ، ٦- يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ، وهي : الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، ومالهم فيها من الجمال وهو الزينة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وهو وقت رجوعها عيشاً من المرعى ، فإنها تكون أمده خواصر ، وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي : غدوة حين تبعثونها إلى المرعى .

٧- ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وهي : الأحمال الثقيلة ، التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال ، من ركوب وتحميل ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَايَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ .

ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم **﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: **﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾** **﴿وذلكناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾** وقال: **﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾** **﴿لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتيتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾** **﴿وإنا إلى ربنا لمقلبون﴾**.

قال ابن عباس **﴿لكم فيها دفاء﴾** أي: ثياب، والمنافع: ما يتفعون به من الأطعمة والأشربة، وقال مجاهد: **﴿لكم فيها دفاء﴾** أي: لباس ينسج **﴿ومنافع﴾** مركب ولحم ولبن، وقال قتادة: دفاء ومنافع، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨)

٨- هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتنُّ به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فضلها من الأنعام وأفردها بالذكر، استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك، على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء، بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون﴾** فهذه للأكل **﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾** فهذه للركوب، وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله، وقال مثل ذلك: الحكم ابن عتيبة أيضاً رحمه الله، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم، وفيه كلام (١).

فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصّاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل.

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم: عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل.

وفي صحيح مسلم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة. فهذه أدلُّ وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وروى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلَّها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها، مع أنه قد نهى عن إنزاع الحمير على الخيل، لئلا ينقطع النسل، روى الإمام أحمد: عن دحية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً أعلى فرس، فتنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون».

(١) هو ضعيف الحديث، فالحديث لا يصح.

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩)

٩- لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السُّبُل الحسية، نَبَّه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها، ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة؛ شَرَعَ في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله، وقال السدي ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي: يبيِّن الهدى والضلالة، وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طَرِيقاً تُسَلِّكُ إِلَيْهِ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. وقرأ ابن مسعود ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله، كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١١)

١٠- لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال المطر من السماء، وهو العلو، مما لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا ﴿وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقاتدة وابن زيد في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون، ومنه: الإبل السائمة، والسوم الرعى.

١١- وقوله: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة، على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَلَمْ﴾

قوم يَعْدِلُونَ ﴿١٢﴾ . ثم قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

١٢- يُنَبِّهُ تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيرهِ الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت، والسيارات في أرجاء السموات، نوراً وضياءً لِيُهْتَدَى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقَدَّرَةٌ لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيرهِ وتقديرهِ وتسهيلهِ، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة، وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

١٣- وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لما نبه تعالى على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض، من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنبات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

١٤- يخبر تعالى عن تسخيرهِ البحر المتلاطم الأمواج، ويمتنُّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيرهِ البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجؤجئها، وهو صدرها المُسَنَّم، الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا وما هنا إلى هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نعمه وإحسانه.

١٥- ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالجِبَالِ﴾

أَرْسَاهَا روى عبد الرزاق : عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خلقت الأرض كانت تميد ، فقالوا : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً ، فأصبحوا وقد خلقت الجبال ، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال .
وعن الحسن عن قيس بن عباد نحوه .

وروى ابن جرير : عن علي بن طالب رضي الله عنه قال : لما خلق الله الأرض قمصت ، وقالت : أي رب تجعل عليّ بني آدم يعملون الخطايا ، ويعملون على الخبث ؟ قال : فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون ، فكان إقرارها كاللحم يترجرج .

وقوله : **«وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا»** أي : جعل فيها أنهاراً ، تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والأكام ، فيصل إلى البلد الذي سُخِّرَ لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار وأودية ، تجري حيناً وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطئه ، بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

وكذلك جعل فيها **«سُبُلًا»** أي : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ، حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : **«وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا»** الآية .

١٦- وقوله : **«وَعَلَامَاتٍ»** أي : دلائل من جبال كبار ، وأكام صغار ، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق . وقوله : **«وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»** أي : في ظلام الليل ، قاله ابن عباس . وعن مالك في قوله : **«وَعَلَامَاتٍ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»** يقول : النجوم وهي الجبال .

١٧- ثم نبّه تعالى على عظمته ، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال : **«أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»** ؟

١٨- ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال : **«وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»** أي : يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازي على اليسير . وقال ابن جرير : يقول : **«إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ»** لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك ، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، **«رَحِيمٌ»** بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾

١٩- يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظواهر ، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٢٠- ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يُخلقون ، كما قال الخليل **«أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»** .

٢١- **«أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ»** أي : هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل **«وَمَا**

يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْشُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحبُّ المُستكبرين (٢٣) ﴿

٢٢- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِمْ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله، مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٢٣- ولهذا قال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥) ﴿

٢٤- يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ مُعرضين عن الجواب ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئا، إنما هذا الذي يُتلى علينا أساطيرُ الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: يفترون على الرسول، ويقولون أقوالا متضادة مختلفة، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلفه لهم شيخهم الوحيد، المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَرَّ وَقَدَّرَ﴾ فقتل كيف قدره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَسْحَرِ يُؤْتِرُ﴾ أي: يُنقل ويحكى، ففرقوا عن قوله ورأيه، قبجهم الله.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك، لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُؤَافِقُونَهُمْ، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ، مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» (١).

وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَثْقَالَهُمْ وَيُسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية (أنها مثلها)، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم، وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئا.

(١) رواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

٢٦- قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد نحوه. وروى عبد الرزاق: عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته وهو الذي بنى الصرح إلى السماء، الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾. وقال آخرون: بل هو بختنصر، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح ﷺ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾، وقال الله ههنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنه ضمائرهم، فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند إسته، بقدر غدرته، فيقال: هذه غدره فلان بن فلان».

وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يُسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مُقرعاً لهم وموبخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقَّت عليهم الكلمة، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴿

٢٨- يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم، ومجيء الملائكة إليهم، لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَالْقُوا السَّلْمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٩- ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان، من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله، واتباع رسوله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾

٣٠- هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا ﴿خَيْرًا﴾ أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسوله فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من أحسن عمله في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الآخرة والدنيا، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وقال لرسوله ﷺ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّاتٍ وَعَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين، أي: لهم في الآخرة جنات عدن، أي: مقام يدخلونها ﴿تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه، وأحسن عمله.

٣٢- ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والذنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ

عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ .

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر، عند قوله تعالى: ﴿يُسَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ .
﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣٣) فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ (٣٤) ﴾

٣٣- يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا، هل ينتظرون هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: يوم القيامة، وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم: أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله، وإنزال كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: بمخالفة الرسل، والتكذيب بما جاءوا به.

٣٤- فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وحق بهم﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ .

﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ (٣٥) ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٣٦) إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴿ (٣٧) ﴾

٣٥- يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقدر، بقولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنتنا منه!
قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون، أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي.

٣٦- وبعث ﴿في كل أمة﴾ أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك،

منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله. وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها، من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فهذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب الحق، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

٣٧- ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقال نوح لقومه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ كما قال الله: ﴿مَنْ يُضِلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان، على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم، ورداً عليهم ﴿بَلَى﴾ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

٣٩- ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد، وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعون إلى نار جهنم دعاءً، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِّمَ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون ❖

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سِوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾

٤٠- ثم أخرج تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، والمعاد من ذلك، إذا أراد كونه، فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةٍ بِلَبْسٍ﴾ وقال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: أن تأمر به مرة واحدة، فإذا هو كائن.

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ووروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة يقول: قال الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قال: وقلت: ﴿بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما شتمه إياي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ اللَّهُ الصَّمَدُ ۖ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢)

٤١- يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة، الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة، في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكّن الله لهم في البلاد، وحكّمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ﴾ أي: مما أعطيناكم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم، يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله.

٤٢- ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: صبروا على الأذى من

قومهم، متوكلين على الله، الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ

وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

٤٣- قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكر العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً، فلا تنكروا أن يكون محمداً ﷺ رسولاً. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وكذا روى عن مجاهد عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، قاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة: أهل الذكر، صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة. وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء، إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي وابن عباس، وابني علي الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسن وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة، أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ، كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً؟ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة، عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي: الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبور: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

٤٥- يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة، الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَاءَ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ أم أمتتم من في السماء أن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ.

٤٦- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي: في تقلبهم في المعاش، واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: تقلبهم أي: أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك وقاتدة ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ.

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

٤٧- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد. ولهذا قال العوفي عن ابن عباس ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقاتدة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيتهم». وفيهما: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ الْمَبْدُوعِ الْأَيْمَنِ﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظُلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سِجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

٤٨- يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ماله ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس، سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيؤه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

٤٩- ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تسجد لله، أي: غير مستكبرين عن عبادته.
٥٠- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: يسجدون، خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّهُ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا يَفِيءُ فَارْهَبُونَ﴾ (٥١) وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أغير الله تتقون (٥٢) وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٥٣) ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون (٥٤) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٥٥) ﴿

٥١- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي: دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: أي: واجباً، وقال مجاهد: أي: خالصاً، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخير، وأما على قول مجاهد، فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تُشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

٥٣- ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر، فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسالونه وتلجئون في الرغبة إليه، مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ مِنَ الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

٥٤- وقال ههنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكفروا بما آتيناهم: قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيصنا لهم ذلك.

٥٥- ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسَأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦) ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون (٥٩) للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠) ﴿

٥٦- يخبر تعالى عن قبائح المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة، ليسألهم عن ذلك الذي افتروه واثفكوه، وليقابلهم عليه، وليجازيهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

٥٧- ثم أخبر تعالى عنهم: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد، وهو: البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الْكُمُ الذُّكُرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ تلك إذا قسمة ضيزى وقوله ههنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ولد الله وإنهم لكاذبون ﴿اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ما لكم تحكُمون وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

٥٨- فإنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت، من شدة ما هو فيه من الحزن.

٥٩- ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سَوْءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُنسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة، لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يثدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة، ويأنفون لأنفسهم عنه، يجعلونه لله؟! ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

٦٠- وقوله ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١) ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنَى لا جرم أن لهم النار وأنهم مقرطون (٦٢) ﴿

٦١- يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا، ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، ويُنظر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يعالجهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

روى سفيان الثوري: عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ الآية: ﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

٦٢- وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: البنات، ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن

يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله : ﴿ وَتَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ إنكاراً عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا ، وإن كان ثمَّ معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم ، كقوله : ﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورًا ﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ، وقوله : ﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، وقال إخباراً عن أحد الرجلين إنه ﴿ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ فَمَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وما أظنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل ، بأن يجازوا على ذلك حسناً ، وهذا مستحيل !

وقال مجاهد وقتادة ﴿ وَتَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ أي : الغلمان ، وقال ابن جرير ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ أي : يوم القيامة . كما قدمنا بيانه ، وهو الصواب ، والله الحمد ، ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيتهم ذلك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي : حقاً لا بد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ وعن قتادة أيضاً : ﴿ مُفْرَطُونَ ﴾ ، أي : معجلون إلى النار ، من «الفرط» وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة ، لأنهم يُعَجَّلُ بهم يوم القيامة إلى النار ، وينسون فيها ، أي : يخلدون .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴿

٦٣- يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً ، فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة ، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل ، فإنما حملهم على ذلك تزوين الشيطان لهم ما فعلوا . ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي : هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصاً ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم .

٦٤- ثم قال تعالى لرسوله : أنه إنما أنزل عليك الكتاب ، ليبين للناس يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهُدًى ﴾ أي : للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : لمن تمسك به ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

٦٥- وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يُحْيِي الأرض بعد موتها ، بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴿

٦٦- يقول تعالى: ﴿وَأِنْ لَكُمْ فِيهَا نَاسٌ فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها، وقدرته ورحمته ولطفه ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أفردته ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۖ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: المال.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْتٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به، وقوله: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يفص به أحد.

٦٧- ولما ذكر اللبن، وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنان، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل، والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما ييس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء. وهو: الدبس - وخل ونبيذ حلال، يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة، صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۖ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾

٦٨- المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتيان في تسديسها ورضها، بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً: أن تأكل من الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمناً ولا يسرة، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

٦٩- وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم **«فاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا»** أي: مطيعة، فجعلناه حالاً من السالكة، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى: **«وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ»** قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته، من بلد إلى بلد، وهو يصبحهم؟ والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلُكِيها مذلة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح. وقد روى أبو يعلى الموصلي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«عُمر الذباب أربعون يوماً، والذباب كلُّه في النار، إلا النحل»** (١).

وقوله تعالى: **«يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»** ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها.

وقوله: **«فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»** أي: في العسل شفاء للناس، أي: من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: **«فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»** أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوي بضده، وقال مجاهد وابن جرير في قوله: **«فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»** يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: **«وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»**، وقوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مِّنْ عِظَةِ مَنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»**.

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: **«فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»** هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: **«اسقه عسلاً»** فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: **«اذهب فاسقه عسلاً»** فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: **«صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً»** فذهب فسقاه عسلاً فبرئ. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار، تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين: من حديث من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. هذا لفظ البخاري.

وفي صحيح البخاري: عن ابن عباس قال: قال رسول الله: **«الشفاء في ثلاثة: في شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شُرْبَةِ عَسَلٍ، أو كَيْتَةِ بِنَارٍ، وأنهى أمتي عن الكي»**. وروى البخاري: عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شُرْبَةِ عَسَلٍ، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن اكتوى»** ورواه مسلم.

وروى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول

(١) قوله: «والذباب كلُّه في النار» ليعذب بها أهلها، لا ليعذب هو، كذا قال الخطابي، انظر فيض القدير (٣/ ٥٦٩).

الله ﷻ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن» وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير موقوفاً وهو أشبهه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء: فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء. أي: من وجوه: قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾، وقال: ﴿فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وروى ابن ماجه أيضاً: عن إبراهيم بن أبي عبلة: سمعت أبا أبي بن أم حرام - وكان قد صلى القبلتين - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسُّنَا والسُّنُوتِ، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت». قال ابن أبي عبلة: «السُّنُوتِ» الشُّبْتُ، وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بِالسُّنُوتِ لَا أَلْسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يُقْرَدَا

كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لا ألس فيهم، أي: لا خلط، وقوله: يمنعون الجار أن يقردا، أي: يضطهد ويظلم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة، إلى السلوك في هذه المهامة، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها، ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

٧٠- يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الآية، وقد روي عن علي رضي الله عنه: ﴿أرذل العُمُرُ﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى، والخرف وسوء الحفظ، وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالماً، أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف.

ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو «أعوذُ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفِينِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

٧١- يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم، فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبید له، كما كانوا يقولون في تلييتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك! تملكه وما ملك. فقال تعالى

منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي، مالا ترضون لأنفسكم، وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته، وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزهه منك.

وقوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله؟ وأداؤه الحق الذي افترض عليه رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢)

٧٢- يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر، ما حصل الائتلاف والموودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهم الولد، وولد الولد.

وقال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري. وروى عبد الرزاق عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه. ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا، أي: يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل. وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبیر ومجاهد والقرظي، ورواه عكرمة عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى «الحفد»، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: «واليك نسعى ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وَحَفْدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد، أو الأصهار، لأن أزواج البنات وأولاد الزوجة. وكذا قال الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل، وفي حجره وخدمته. وأما من جعل الحفدة الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرأ على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّتْنَا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعًا؟».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾

٧٣- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل، الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه.

٧٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾

٧٥- قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربته الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً، لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾

٧٦- قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن، والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فمقاله حق، وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وبهذا قال السدي وقاتادة

وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

وروى ابن جرير: عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبيده، يعني قوله: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ - إِلَى قَوْلِهِ - وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾

٧٧- يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ﴾ أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

٧٨- ثم ذكر تعالى منتهى عبادته، في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي: العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَى بَارِئِي بِالْحَرْبِ؛ وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله: «ورجله التي يمشي بها»: «فبي يسمع، وببي يبصر وببي يبطش وببي يمشي». ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾،

كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾
﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها، ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافاتٍ ويقبضن ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

٨٠- يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عباده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، ويتفعلون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي: الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثَاثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث: البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة، وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مُّسَمًّى ووقت معلوم.

٨١- وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني الشجر ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي: الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ من الإسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ هذه السورة تُسَمَّى: سورة النعم.

وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وما جعل لهم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِّنْ جِبَالٍ

فيها من بردٍ لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سراييلَ تقيكم الحزن﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

٨٢- وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي: بعد هذا البيان، وهذا الامتتان فلا عليك منهم ﴿فإنما عليك البلاغُ

المبين﴾ وقد أدبته إليهم.

٨٣- ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل

به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وأكثروهم

الكافرين﴾.

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾ (٨٤) وإذا رأى الذين

ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ (٨٥) وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا

هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ (٨٦) وألقوا إلى الله

يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً

فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (٨٨)

٨٤- يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو

نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ أي: في الاعتذار، لأنهم

يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ فلماذا قال: ﴿ولا لهم

يستعتبون﴾.

٨٥- ﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾ أي: الذين أشركوا العذاب ﴿فلا يخفف عنهم﴾ أي: لا يفتتر عنهم

ساعة واحدة ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا

جاء بجهم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر

زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكُلت بكل جبار عنيدي، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا

وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف، كما يلتقط

الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كبيراً﴾ وقال تعالى: ﴿ورأى المجرمون

النارَ فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن

وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ بل تأتيهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم

ينظرون﴾.

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا

شركاءهم﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا

إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتن، ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿ومن

أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨٩﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

٨٧- وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَعَنْتَ الْوُجُوهَ لِلْحَيِّ الْقِيُومِ﴾ أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت، وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

٨٨- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الآية، أي: عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صددهم الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباعه، ويتعدون هم منه أيضاً ﴿وَأِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد روى الحافظ أبو يعلى: عن مسروق عن عبد الله في قول الله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال.

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

٨٩- يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني أمتك. أي: اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود، حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فقال ابن مسعود ﷺ: فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعي ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله أعلم - إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عما

«كَانُوا يَعْمَلُونَ»، «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ» أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن، لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

٩٠- يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو: القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرا للصَّابرين»، وقوله: «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجزه على الله» وقال: «والجرؤح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل، والندب إلى الفضل. وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: «إن الله يأمر بالعدل» قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية، من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته؛ وقوله: «وإيتاء ذي القربى» أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: «وأت ذا القربى حقاً والمستكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً».

وقوله: «وينهى عن الفحشاء والمنكر» فالفواحش المنكرات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن» وأما البغي: فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم».

وقوله: «يعظكم» أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر «لعلكم تذكرون». وعن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، رواه ابن جرير. وعن قتادة: قوله: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه، إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»^(١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢)

٩١- هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» ولا تعارض بين هذا وبين قوله: «ولا تجعلوا الله عرضة

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٨) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

﴿لَا إِيمَانَكُمْ﴾ الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِّإِيمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنِّي وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرَ أَمْنِهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا - وَفِي رِوَايَةٍ - وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي». لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأنَّ هذه الأيمان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحلف، أي: حلف الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً» وكذا رواه مسلم.

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإنَّ في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

و أما ما ورد في الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا. فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثونه به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى ابن جرير عن مزينة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

وروى الإمام أحمد: عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ - إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ - أَنْ يَبَايَعَ رَجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ، فَلَا يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدًا، وَلَا يَسْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَيَكُونَ صَيْلِمٌ^(١) بَيْنِي وَبَيْنَهُ». المرفوع منه في الصحيحين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. ٩٢- وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد انبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَاثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ أي: أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرأ ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم، ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا - والله الحمد - في سورة الأنفال: قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له

(١) الصيلم: القطيعة المنكرة، والداهية (نهاية).

عمرو بن عبسة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدراً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ ، فَلَا يَحُلُّنَّ عَقْدَةً حَتَّى يَنْقُضِي أَمْدَهَا » فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش .
قال ابن عباس « أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » أي : أكثر ، وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك .
وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه .

وقوله : « إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ » قال سعيد بن جبیر : يعني بالكثرة . رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن جرير : أي : بأمره إياكم بالوفاء بالعهد « وَليُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » فيجازي كل عامل بعمله ، من خير وشر .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزُلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

٩٣- يقول الله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ » أيها الناس أمة واحدة ، كقوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا » أي : لوفق بينكم ، ولما جعل اختلافاً ، ولا تباغض ولا شحناء « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » ، وهكذا قال ههنا : « وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم ، فيجازيكم عليها ، على الفتل والنقير والقطمير .

٩٤- ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان « دَخَلًا » أي : خديعةً ومكرًا ، لثلاث تزل قدمٌ بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة ، المشتعلة على الصدِّ عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهدته ، ثم غدر به ، لم يبق له وثق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال : « وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُمْ عَنْ سَبِيلِ رَبِّكُمْ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ثم قال : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أي : لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها ، لكان ما عند الله هو خير له ؛ أي : جزاء الله وثوابه ، خير لمن رجاه وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال : « إِنْ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

٩٦- « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ » أي : يفرغ وينقضي ، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ، ولا نفاد له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » قَسَمَ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى مُؤَكَّدًا بِاللَّامِ ، أَنَّهُ يَجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، أَي : وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئِهَا .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٧)

٩٧- هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذكرٍ أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمنٌ بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة: تشتمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسَّروها: بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها: بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها. والصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ» ورواه مسلم. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ مِنْ حَسَنَةٍ، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيَثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا» انفرد بإخراجه مسلم.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

٩٨- هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير، وغيره من الأئمة، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطاً في أول التفسير، والله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يُلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكى عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة، واحتجوا بهذه الآية، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي، والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقديمها على التلاوة، والله أعلم.

٩٩- وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وَهُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوا في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى، وقال آخرون: معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

١٠١- يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين، وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها، قالوا لرسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» أي: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقال مجاهد «بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ» أي: رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: «مَا نُنسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا» الآية.

١٠٢- قال تعالى مجيباً لهم: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ» أي: جبريل «مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» أي: بالصدق والعدل «لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا» فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم «وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين، الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿ وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾

١٠٣- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت، أن محمداً إنما يُعَلِّمُهُ هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشراً، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلماذا قال الله تعالى رداً عليهم في افتراءهم ذلك «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يُتَعَلَّمُ من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله «وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» وكذا قال عبد الله بن كثير. وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش.

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي! وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين: رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة قبحه الله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٤- يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له

قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة.

١٠٥- ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق **«الذين لا يؤمنون بآيات الله»** من الكفرة والملحدون، المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أباسفيان عن تلك المسائل، التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين **(١٠٧)﴾** أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون **(١٠٨)﴾** لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون **(١٠٩)﴾**

١٠٦-١٠٨- أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم وبيبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا يتفكرون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم.

١٠٩- **﴿لَا جَرَمَ﴾** أي: لا بد ولا عجب، أن من هذه صفته **«أنهم في الآخرة هم الخاسرون»** أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وأما قوله: **﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾** فهو استثناء ممن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً، لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك.

وروى ابن جرير: عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد». ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه: أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إن عادوا فعد» وفي ذلك أنزل الله: **﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ**

بالإيمان ﴿

ولهذا اتفق العلماء: على أن المكروه على الكفر، يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى أنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك.

وروى الإمام أحمد: عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تُعذبوا بعذاب الله» وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن عباس. رواه البخاري.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ. قال: أحسبه - شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه، فضربت عنقه، فقال: قضى الله ورسوله: «أن من رجع عن دينه فاقتلوه» أو قال: «من بدل دينه فاقتلوه». وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

١١٠ - هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم، فوافقهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعل، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

١١١ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي: تحتاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

١١٢، ١١٣ - هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَيْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ نِصْرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئاً

سهلاً **﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتُ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾** أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: **﴿الْمُتَرَالِي الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾** جهنم يصلونها وبئس القرار، ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال: **﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾** أي: ألبسها وأذاقها الجوع، بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسب يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز: وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

و قوله: **﴿وَالْخَوْفِ﴾** وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً، من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل مالهم في دمار وسفال، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ، الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم، في قوله: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** الآية، وقوله تعالى: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾** الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً، الآية، وقوله: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَا تَكْفُرُونَ﴾**.

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم. وهذا الذي قلناه: من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة، قاله العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** (١١٥) **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾** (١١٦) **﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (١١٧)

١١٤- يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين، بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

١١٥- ثم ذكر تعالى ما حرّمه عليهم، مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهّل لغير الله به، أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا **﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾** إليه أي: احتاج من غير بغي ولا عدوان، فإن الله غفور رحيم. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة، بما فيه كفاية عن إعادته، والله الحمد.

١١٦- ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حلّلوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه، واصطلحوا عليه من الأسماء، بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم، ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾**. ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة، ليس له فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئاً مما حرّم الله، أو حرّ شيئاً مما أباح

الله، بمجرد رأيه وتشهيه، و«ما» في قوله: ﴿لَمَّا تَصِفُ﴾ مصورية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة. ١١٧- أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

١١٨- لما ذكر تعالى أنه حرّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة. وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر، ولا يريد بها العسر. ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرّمه على اليهود في شريعتهم، قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والخرج، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا - إِلَىٰ قَوْلِهِ - لَصَادِقُونَ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

١١٩- ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين، أن من تاب منهم إليه، تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

١٢٠- يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما «الأمة» فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. روى سفيان الثوري: عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة مُعَلِّمُ الخَيْرِ، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي:

غلط أبو عبد الرحمن ، إنما قال الله : **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾** فقال : تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : الله أعلم ، فقال : الأمة : الذي يعلم الخير ، والقانت : المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ . وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود ، أخرجه ابن جرير ، وقال مجاهد : **﴿أُمَّة﴾** أي : أمة وحده ، والقانت : المطيع ، وقال مجاهد أيضاً : كان إبراهيم **﴿أُمَّة﴾** أي : مؤمناً وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار ، وقال قتادة : كان إمام هدى ، والقانت المطيع لله .

١٢١- وقوله : **﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾** أي : قائماً بشكر نعم الله عليه ، كقوله تعالى : **﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾** أي : قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وقوله : **﴿اجْتَبَاهُ﴾** أي : اختاره واصطفاه ، كقوله : **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾** . ثم قال : **﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** وهو : عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضى .

١٢٢- وقوله : **﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** أي : جمعنا له خير الدنيا ، من جميع ما يحتاج المؤمن إليه ، في إكمال حياته الطيبة **﴿وَأِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِن الصَّالِحِينَ﴾** وقال مجاهد في قوله : **﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** أي : لسان صدق .

١٢٣- وقوله : **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾** أي : ومن كماله وعظمته ، وصحة توحيده وطريقه ، أننا أوحينا إليك ، يا خاتم الرسل ، وسيد الأنبياء **﴿أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** ، كقوله في الأنعام **﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** .

ثم قال تعالى منكرًا على اليهود :

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤)

١٢٤- لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة ، يوماً من الأسبوع ، يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة ، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه ، وتمت النعمة على عباده ، ويقال : إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات ، الذي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصّاهم أن يتمسكوا به ، وأن يحافظوا عليه ، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ موابقتهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى : **﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة .

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به ، حتى بعث الله عيسى بن مريم ، فيقال : إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال : إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها ، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رُفِعَ ، وإن النصراني بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد ، مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة ، والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق» رواه مسلم.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾

١٢٥- يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ: أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: هو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، ﴿والموعظة الحسنة﴾ أي: بما فيه من الزواجر، والوقائع بالناس، ذكّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ الآية. فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون، في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾.

وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده، وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (١٢٨)﴾

١٢٦- يأمر تعالى بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾: إن أخذ منكم رجل شيئاً، فخذوا مثله. وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا، لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكة، إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثّل به.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قُتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين، لتمثلن بهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تُعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: أن رسول الله ﷺ آمنَ الأسود والأبيض، إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، فقال رسول الله ﷺ: «نصبرُ ولا نُعاقبُ».

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل، والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية. وقال: ﴿وَالجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ وقال في هذه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

١٢٧- وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيدٌ للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوله: ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من خالفك، فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك، وناصرك ومؤيدك ومظهرك، ومظفرك بهم.

١٢٨- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته، وهدية وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وقول النبي ﷺ للصدِّيق وهما في الغار: «لا تحزن إن الله معنا».

وأما المعية العامة: فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية.

ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: تركوا المحرمات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، وينظرهم على أعدائهم ومخالفهم.

وروى ابن أبي حاتم: عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان رضي الله عنه من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

بعون الله تعالى تم طبع الجزء الثاني من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير

و يليه الجزء الثالث إن شاء الله

و أوله تفسير سورة الإسراء

و الحمد لله أولاً و آخراً

٨٢	حكم كفارة اليمين
٨٣	تحريم الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام
٨٤	ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر
٨٦	تحريم قتل الصيد في الحرم
٨٩	ذكر أقوال السلف في هذا المقام
٩٠	إباحة صيد البحر و تحريم صيد البر للمحرم
٩٣	النهي عن كثرة السؤال لغير سبب
٩٧	الإشهاد على الوصية
٩٩	تفويض العلم إلى الله عز وجل
١٠٠	تذكير الله نبيه عيسى عليه السلام بنعمة نزول المائدة عليه
١٠٢	ذكر أخبار عن السلف في نزول المائدة
١٠٣	تبرؤ عيسى عليه السلام ممن اتخذها إلهاً
١٠٥	ما أعد الله للصادقين
١٠٦	تفسير سورة الأنعام
١٠٧	عناد المشركين و توعدهم الله لهم
١٠٨	اقتراحهم نزول الملائكة مع النبي ﷺ
١١٠	أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم
١١٧	الحث على العمل للأخرة
١٢٠	لا يعلم الغيب إلا الله
١٢١	بيان أن لكل آدمي حفظة من الملائكة
١٢٦	الأمر بإقامة الصلاة
١٢٦	النفخ في الصور
١٢٧	تبرؤ إبراهيم عليه السلام من الشرك و أهله
١٣١	تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾
١٣١	الأنبياء من ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام
١٣٤	المحافظة على الصلوات من صفات المؤمنين
١٣٧	الاهتداء بالنجوم
١٤٢	الأمر بالتمسك بالقرآن و العمل به
١٤٧	إباحة الأكل مما ذكر اسم الله عليه

٥	المقدمة
٧	تفسير سورة المائدة
٧	صيغة كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران
	الإجماع على قتل المشرك إن لم يكن له أمان
١٠	ولو لجأ إلى البيت الحرام أو بيت المقدس
١٢	المذاهب في حكم ما أمسكه كلب الصيد
١٥	الكلام على النطيحة
١٥	الكلام على ما قُتل على النصب و الاستقسام بالأزلام
١٧	الكلام على قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾
١٩	الأمر بقتل الكلاب
٢٠	ذكر الآثار فيما أمسك كلب الصيد
٢٢	الكلام على قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْ لَكُمْ﴾
٢٥	تفسير آية الوضوء و التيمم
٣٠	ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين و أنه لا بد منه
٣٢	أركان الوضوء
٣٤	وجوب العدل حتى مع الأعداء
٤٤	قصة قابيل و هابيل
٤٧	تحريم قتل النفس
٥٣	حد السارق
٥٥	وجوب الرجوع إلى كتاب الله عند الاختلاف
٥٨	وجوب القصاص
٦١	ذم من لم يحكم بما أنزل الله و درجاتهم
٦٢	الحث على المسابقة إلى الخيرات
٦٥	حرمة اتخاذ اليهود و النصارى أولياء
٦٦	صفات المؤمنين
٦٨	صفات المنافقين
٧١	تقوى الله سبب لتوسعة الرزق
٧٣	عصمة الله تعالى لرسوله ﷺ من الناس
٨٦	الحث على التوبة و الاستغفار

رسالة النبي محمد ﷺ عمت جميع الناس ٢٣٠
 قصة أصحاب السبت ٢٣٢
 أخذ العهد على ذرية آدم بالتوحيد ٢٣٦
 قصة بلعم بن باعوراء ٢٣٨
 صفات المنافقين ٢٤٠
 الدعاء بأسماء الله ٢٤١
 الحث على النظر في ملكوت السموات والأرض ٢٤٣
 علم الساعة عند الله وحده ٢٤٣
 لا يعلم الغيب إلا الله ٢٤٥
 الحث على الأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين ٢٤٩
 الأمر بالإنصات عند تلاوة القرآن ٢٥٢
 الأمر بذكر الله والتضرع إليه في السر ٢٥٣
تفسير سورة الأنفال ٢٥٥
 صفات المؤمنين ٢٥٧
 النهي عن التولي يوم الزحف ٢٦٥
 الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول ٢٦٨
 الله يقبل التوبة حتى من الكافر ويغفر له
 ما مضى من ذنوبه ٢٧٧
 أمر المؤمنين بالثبات و بذكر الله عند قتال الكفار ٢٨٤
 تبرؤ إبليس من الكفار يوم بدر حين رأى الملائكة ٢٨٥
 تعذيب الكفار عند الاحتضار ٢٨٧
 المعاصي سبب لزوال النعم ٢٨٧
 شر الدواب عند الله الكفار ٢٨٨
 الأمر بإعداد القوة لمحاربة الكفار ٢٨٩
 تأليف قلوب المؤمنين ٢٩٠
 حث المؤمنين على قتال الكفار ٢٩١
 إباحة الغنائم لرسول الله وللمجاهدين ٢٩٢
 المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ٢٩٧
 ما أعد الله للمهاجرين والأنصار ٢٩٧

النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ١٤٧
 ارتياح الصدر و انشراحه للإسلام دليل على الهداية ١٥٢
 دار السلام لأهل الإسلام ١٥٣
 الله غني عن العالمين ١٥٦
 الأمر بإيتاء الزكاة و النهي عن الإسراف ١٦٠
 الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ ١٦٦
 مضاعفة الحسنات ١٧٤
 الأمر بالإخلاص لله ١٧٦
تفسير سورة الأعراف ١٧٩
 فلاح من ثقل ميزانه و خسران من خف ميزانه ١٨٠
 أمر الملائكة بالسجود لآدم ١٨١
 طرد إبليس من الجنة ١٨٢
 توعيد إبليس لآدم عليه السلام ١٨٣
 وسوسة إبليس لآدم عليه السلام ١٨٤
 تحذير بني آدم من كيد الشيطان ١٨٦
 الأمر بالتزين بأحسن الثياب للصلاة ١٨٩
 تحريم الفواحش الظاهرة ١٩٠
 ما أعد الله للمتقين ١٩٤
 قصة أصحاب الأعراف ١٩٥
 الأمر بالدعاء و التضرع إلى الله ١٩٩
 الأمر بتقوى الله ٢٠٠
 مثل المؤمن و الكافر ٢٠٠
 دعاء نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده و تكذيبهم له و إغراقهم ٢٠١
 قصة عاد قوم هود عليه السلام ٢٠٢
 قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ٢٠٥
 قصة قوم لوط عليه السلام ٢٠٨
 قصة قوم شعيب عليه السلام ٢٠٩
 قصة موسى عليه السلام مع فرعون ٢١٤
 صفات المتقين ٢٢٨

- تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ ٣٤٩
- صفات المؤمنين ٣٤٩
- الحث على الصدق ٣٥٣
- الحث على التفقه في الدين ٣٥٧
- تفسير قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ٣٦١
- تفسير سورة يونس ٣٦٣
- الإيمان بالبعث ٣٦٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ ٣٦٤
- دعاء المؤمنين في الجنة ٣٦٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ٣٧٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ٣٧٣
- عجز البشر عن الإتيان بسورة من القرآن ٣٧٦
- المؤمن التقي ولي الله ٣٨٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ﴾ ٣٨٨
- إغراق فرعون و جنوده في البحر ٣٩٠
- توبة الله عز وجل على قوم يونس ٣٩٣
- تفسير سورة هود ٣٩٦
- الحث على الاستغفار و التوبة ٣٩٦
- تكفل الله تعالى لجميع خلقه بالرزق ٣٩٧
- أمر نبي الله نوح عليه السلام لقومه بعبادة الله وحده ٤٠٤
- أمره عليه السلام بصنع السفينة ٤٠٧
- حملة عليه السلام فيها من كل زوجين اثنين ٤٠٧
- جريها و إرساؤها باسم الله ٤٠٨
- نداء نوح عليه السلام ابنه ٤٠٨
- إرساء السفينة على البر ٤٠٩
- نداء نوح عليه السلام ربه ٤٠٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ الآية ٤١٠
- الأمر بالصبر و وعد المتقين بالفلاح ٤١٠
- أمر هود عليه السلام قومه بعبادة الله وحده ٤١١
- تفسير سورة التوبة ٢٩٨
- الأمر بقتال المشركين في جميع السنة عدا الأشهر الحرم ٣٠٠
- محبة الله للمتقين ٣٠٢
- شهادة الله عز وجل لمن يعمر المساجد بالإيمان ٣٠٥
- ما أعدده الله للمهاجرين و الممجاهدين في سبيله ٣٠٦
- النهي عن اتخاذ الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ٣٠٦
- نصر الله عز وجل للمؤمنين و تعذيب الكافرين ٣٠٧
- تحريم دخول المشرك المسجد الحرام ٣٠٩
- الأمر بقتال اليهود و النصارى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٣١٠
- تنزه الله عز وجل عن شرك اليهود و النصارى ٣١١
- إتمام الله عز وجل لنور الإسلام و لو كره الكافرون ٣١٢
- تفسير ما جاء في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ٣١٢
- أكل الأحرار و الرهبان أموال الناس بالباطل و صدهم عن سبيل الله ٣١٣
- وعيد مانع الزكاة ٣١٣
- نصر الله لرسوله ﷺ ٣١٩
- الحث على الجهاد في سبيل الله بالنفس و المال ٣٢٠
- صفة المنافقين ٣٢٢
- بيان الأصناف التي تصرف إليهم الزكاة ٣٢٦
- صفات المنافقين ٣٢٩
- صفات المؤمنين ٣٣٠
- ما أعدده الله للمؤمنين و المؤمنات ٣٣١
- الأمر بجهاد الكفار و المنافقين ٣٣٢
- عقوبة من نقض العهد ٣٣٤
- النهي عن الصلاة على من مات من الكفار ٣٣٧
- ما أعدده الله للمؤمنين و المجاهدين في سبيله ٣٣٩
- الأمر بإخراج زكاة الأموال و الحث على التوبة ٣٤٤
- مسجد الضرار و قصته ٣٤٥

- المؤمن يطمئن قلبه لذكر الله ٤٧٦
- عظمة كتاب الله تعالى ٤٧٨
- صفة الجنة ٤٨٠
- الكلام على المحو والإثبات ٤٨٢
- إنكار الكفار لرسالة النبي ﷺ ٤٨٤
- تفسير سورة إبراهيم ٤٨٦
- إرسال الرسل بلسان أقوامها ٤٨٧
- تفضيل الرسول ﷺ على سائر الرسل ٤٨٨
- شكر النعم يزيد لها ٤٨٨
- من صور عذاب الكفار ٤٩٠
- مثل أعمال الكفار ٤٩٢
- خطبة إبليس باتباعه في جهنم ٤٩٤
- مثل الكلمة الطيبة والخبيثة ٤٩٥
- الكلام على قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ وأحاديث فتنة القبر ٤٩٦
- نعم الله لا تحصى ٥٠٠
- دعاء إبراهيم الخليل ٥٠٠
- تفسير سورة الحجر ٥٠٦
- تمني الكافر الإسلام في الآخرة ٥٠٦
- ما خلق الله تعالى في السماء من بروج وفائدتها ٥٠٨
- أصل خلقه الإنسان ٥١٠
- قصة آدم الخليل مع إبليس ٥١١
- جهنم لها سبعة أبواب ٥١٢
- تبشير الملائكة إبراهيم الخليل بالولد ٥١٣
- إهلاك قوم لوط الخليل ٥١٥
- ما أوتيته نبينا ﷺ من القرآن خير من الدنيا وما فيها ٥١٧
- تفسير سورة النحل ٥٢٢
- تعدد منافع الأنعام ٥٢٩
- إلهام الله للنحل باتخاذ البيوت ٥٢٩
- الحث على الاستغفار والتوبة ٤١١
- أمر صالح الخليل لقومه بعبادة الله، قصة الناقة ٤١٢
- قصة إبراهيم الخليل مع الملائكة ٤١٣
- مجادلة إبراهيم الخليل في قوم لوط ٤١٥
- قصة قوم لوط الخليل ٤١٥
- قصة مدين قوم شعيب الخليل ٤١٧
- أحوال السعداء والأشقياء ٤٢٢
- الأمر بالاستقامة وعدم الركون إلى الظالمين ٤٢٤
- الحسنات يذهب السيئات ٤٢٥
- تفسير سورة يوسف ٤٢٩
- رؤيا يوسف الخليل ٤٣٠
- تأمر إخوة يوسف على قتله ٤٣٠
- مراودتهم لأبيهم على أخذه ٤٣٢
- التقاط السيارة ليوسف من الجب ٤٣٤
- قصة يوسف الخليل مع امرأة العزيز ٤٣٥
- دخول يوسف الخليل السجن ٤٤٠
- رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها ٤٤٣
- تولية يوسف الخليل على خزائن الأرض ٤٤٥
- مجيء إخوة يوسف إلى مصر للميرة ٤٤٦
- أخذ يعقوب الخليل الميثاق على بنيه ٤٤٧
- عفو يوسف الخليل عن إخوته ٤٥٢
- اجتماع يوسف بأبويه وإخوته ٤٥٤
- ثناؤه الخليل على ربه عز وجل ٤٥٥
- وصف المشركين بالشرك مع الإيمان ٤٥٧
- تنبيه المؤمنين إلى ما في قصص النبيين من المواعظ والعبر ٤٦٢
- تفسير سورة الرعد ٤٦٣
- دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى ٤٦٣
- صفات المؤمنين ٤٧٤
- وعيد من نقض العهد وفساد في الأرض ٤٧٥

- | | | | |
|-----------|--|-----------|---|
| ٥٥١ | سعادة المؤمن في الدنيا و الآخرة | ٥٤٠ | منافع العسل |
| ٥٥٥ | الأمر بالأكل من الرزق الحلال الطيب | ٥٤١ | تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق |
| ٥٥٦ | ثناء الله على نبيه إبراهيم عليه السلام | ٥٤٢ | نعمة الأزواج و البنين |
| ٥٥٨ | الأمر بالدعوة إلى الله بالحسنى | ٥٤٦ | شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة |
| ٥٥٩ | فضيلة الصبر و الحزم عليه | ٥٤٨ | تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ﴾ الآية |
| ٥٥٩ | فضيلة التقوى و الإحسان | ٥٤٨ | الحث على الوفاء بالعهد |
| ٥٦٠ | فهرست الكتاب | ٥٥٠ | الحض على الصدقة |